النظريات الاجتماعية

و الممارسة البحثية

فيليب چونز

ترجمة د. محمد ياسر الخواجة

ابن خلدون



علي مولا

النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية

النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية

Sociological Theories and Research Practices

تأليف

فيليب جونز

ترجمة

أ.د. محمد ياسر الخواجة

استاذ علم الإجتماع ووكيل كلية الآداب
للدراسات العليا والبحوث بجامعة طنطا



مصر العربية للنشر والتوزيع

٢٠١٠

العنوان

النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية

المؤلف

د. محمد ياسر الخواجة

الطبعة

الأولى ٢٠١٠

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٩ ش إسلام- حمامات القبة- الزيتون- القاهرة

تليفاكس ٢٢٥٦٢٢٦٨ / ت ٢٤٥٠٥٨٦٣

رقم الإيداع

٢٠٠٩/٢٠٥٤٥

I. S. B. N
977-5471-97-4

البريد الإلكتروني

masrelarabia@hotmail.com

الغلاف

وائل صلاح

تنفيذ داخلي

مها عصمت

بطاقة الفهرسة



جونز، فيليب.
النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية، تأليف فيليب جونز؛ ترجمة محمد ياسر الخواجة. ط ١. القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.
٢٧٢ ص، ٢٤ سم
تدمك ٤ ٩٧ ٥٤٧١ ٩٧٧
١ - الاجتماع، علم- نظريات
ا- العنوان
٣٠١,٠١
رقم الإيداع / ٢٠٥٤٥ التاريخ: ٢٠٠٩/١٠/٢١

فهرس

مقدمة المترجم

عن النظرية فى علم الاجتماع: مفهومها وتصنيفاتها ووظائفها وظروف نشأتها

تشغل النظرية الاجتماعية فى علم الاجتماع اهتمام علماء الاجتماع الكلاسيكيين و المعاصرين، و مع التسليم بوجود تباينات كثيرة ارتبطت بتحديد العلم بين علماء الاجتماع وموضوعه إلا ان اهتمام علم الاجتماع الاساسى ينصب على البناء الاجتماعى **Social structure** ككل و ما يحويه هذا البناء من مكونات و ما يحدث بينها من علاقات و تناقضات و يطرأ على هذا البناء نفسه من تطورات و تغيرات، و ذلك لان الاهتمام الذى يميزه عن غيره من العلوم يتمثل فى انه يعنى بما هو عام و ما هو اجتماعي و ما هو مطرد و ما هو ضروري و لإدراك العلاقات الجدلية بينها جميعا و بين الخاص و الفردي و الطارىء، فهو يدرس هذه الجوانب معا بالقدر الذى يساعد على فهم كل منهما و تحليلهما وتفسيرهما ومحاولة التنبؤ بهما.(١) و من هنا لخص اود و نيل **O' donnell** (١٩٩٧) أهم القضايا الأساسية لنظرية علم الاجتماع من وجهة نظر علماء الاجتماع المؤسسين إبتداء من إميل دوركايم، و مرورا بكارل ماركس و انتهاء بماكس فيبر وهذه القضايا هى:-(٢)

١) مم يتشكل المجتمع؟
٢) كيف يؤدى المجتمع وظائفه الأساسية؟
٣) ما السبب في وجود بعض الجماعات داخل المجتمع أكثر هيمنة و قوة من جماعات اجتماعية أخرى؟
٤) ما الذي يحدث التغير الاجتماعي و يسببه؟
٥) هل المجتمع فى طبيعته فى حالة توازن أم صراع؟
٦) ما علاقة الذات بالمجتمع؟
٧) ما الغرض الاساسى من وراء دراسة علم الاجتماع؟

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥، ص ١٧.

(2) O'Donnell, M‹. Introduction to sociology‹Susry: Nelson‹4 Edition‹ 1997

وبهذا فالنظرية فى علم الاجتماع كما فى غيره من العلوم الأخرى، المحك العلمي الذى يفسر لنا كافة الحقائق **facts** التى أمكن ملاحظتها بأساليب ووسائل عامة للوصول الى نتائج ملموسة وواقعية، والتأصيل النظري لابد أن يتصف بدرجة عالية من المنطق تساعدنا على اختبار الفروض التي نضعها من اجل تفسير كل قضايا البحث و جوانبه المختلفة، و من ثم فان النظرية تساعدنا فى الوصول إلى نوع من المفاهيم و المقولات و القضايا و الافتراضات التى من خلالها نواجه مشكلات الدراسة، و لما كانت النظرية تشتمل على قضايا عامة فإنها تصبح ذات دلالة و يعبر عنها بألفاظ و تراكيب بسيطة غنية فى معناها تفسر كافة الظواهر الاجتماعية و هذه الألفاظ و التراكيب مفيدة أيضا فى رؤية أوجه الشبه والاختلاف فى البحث. و بناء على ذلك فقد خصصنا الفصل الحالي لمعالجة مفهوم النظرية وتصنيفاتها و الوظائف التى تقوم بها فى تفسير قضايا و مشكلات المجتمع وأخيرا إلقاء الضوء على الظروف المجتمعية والفكرية لنشأة النظرية الاجتماعية.

أولاً: مفهوم النظرية وطبيعتها

يتصور البعض أن النظرية ما هى إلا فكرة أو تصور مجموعة من التصورات وضع مسبقا لتفسير شيء ما وبالتالي فهي تأمل، و يظن البعض الآخر بأن النظرية لا تختلف كثيرا عن الفرض العلمي **scientific hypothesis** أى قضية تحمل تفسيرا مبدئيا او حلا مقترحا لموضوع أو ظاهرة أو مشكلة معينة وقد نجد بعضا ثالثا يعتبر النظرية بمثابة مبدأ او قانون علمي **scientific law** اى بوصفها قضية دقيقة تختزل سلسلة من الحقائق العلمية او تختصرها فى صيغة رياضية، فى حين يقرر البعض الرابع ان النظرية تمثل نموذجا **paradigm** أو تقترب من عمليات صياغة الأنماط بوصفها نوع من التنميط **typology** يساعد على تحديد العلاقات المتداخلة بين خصائص او ظواهر نحاول توضيحها تفسيرها. وفى الواقع ان النظرية – كما يقول تيماشيف – تمثل ارفع المستويات جميعا فالجهود المتراكمة لرجال العلم الذين يتخصصون فى علم بعينه تنتهي الى صياغة مجموعة كبيرة من التعميمات التى تنتمي الى نماذج متعددة و مختلفة ومن هنا تظهر الحاجة الى تجميع شتات النتائج المبعثرة حتى أمكن الوصول إليها و توحيدها و يتحقق هذا التوحيد ببناء النظرية، و

بالتالى فانه يحدد مفهوم النظرية بوصفها مجموعة من القضايا التى تتوافر فيها الشروط التالية:-

اولا : ينبغي ان تكون المفهومات التى تعبر عن القضايا محددة بدقة.

ثانيا : يجب ان تتسق القضايا الواحدة مع الأخرى

ثالثا : ان توضع القضايا فى شكل يجعل من الممكن اشتقاق التعميمات القائمة اشتقاقا استنباطيا. رابعا: ان تكون هذه القضايا خصبة و مثمرة تستكشف الطريق لملاحظات ابعد مدى وتعميمات تنمى مجال المعرفة.[٣]

ولذا حاول إيان كريب ان يميز مفهوم النظرية الاجتماعية عن التفكير النظري بصيغته اليومية، من خلال ثلاث عوامل:-الأول:ان النظرية الاجتماعية تحاول ان تكون اشد تنظيما فى نظرها او رؤيتها الى الأفكار و الخبرات معا،علاوة على ذلك فالأفكار فى النظرية يجب ان تستتبع إحداها الأخرى لا ان تتناقض إحداها مع الأخرى او على اقل تقدير يجب ان تكون علاقتها ببعض واضحة المعالم. الثاني: هو إقامة الأنساق النظرية بأفضل الطرق الممكنة و هى عملية لا ترتبط إلا بشكل غير مباشر بتفسير خبراتنا و هذا يثير ثلاث تساؤلات ماذا نعنى بالتفسير؟ و متى يكون التفسير كافيا و متى لا يكون كافيا؟ الثالث: لابد أن تقودنا عمليات التنظيم المختلفة فى بناء النظرية الى عملية الاستنتاج **deductive** و لا يشترط ان تكون عملية الاستنتاج او التفسير مستقيمة مع خبراتنا اليومية المباشرة او مع ما نعتقده مباشرة فهذا هو فى الواقع يمثل الطريقة التى نتعلم بها النظرية.[٤] و إذا كان كريب قد حاول التمييز بين التفكير النظري في الحياة اليومية و النظرية الاجتماعية، فإن والتر والاس **Wallace** قد استخلص بعد تحليله التاريخي الطويل فى علم الاجتماع إلى أن السلوك الاجتماعي و تفسيره يعد لب نظرية علم الاجتماع ثم صنف موقف نظريات علم الاجتماع من هذا السلوك فى فئتين:

---

(٣) نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، طبيعتها و تطورها، ترجمة: محمود عوده وآخرين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص٣٧

(٤) إيان كريب، النظرية الاجتماعية (من بارسونز الى هابرماس) ترجمة: محمد حسين غلوم، مراجعة:محمد عصفور،سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٤٤،ابريل ١٩٩٩، ص ص ٢٨-٣١.

الأولي: ركزت على الجوانب الموضوعية للسلوك اى مخرجات السلوك المتمثلة فى الأفعال الاجتماعية بصفة عامة.

الثانية: ركزت على الجوانب الذاتية الكامنة و المستترة خلف السلوك كالدوافع و القيم و المرامي و المقاصد و ما الى ذلك.(٥)

و أما بيرسى كوهين يقول فى كتابه النظرية الاجتماعية الحديثة بأن النظرية تتجاوز الحقائق المجردة و لا قيمة للنظرية إذا لم تتجاوز الحقائق، و ان هذه الحقائق ما هى إلا مجرد تقارير نعتقد فى صحتها عن وقائع معينة قد حدثت، فالوقائع المقصودة لا تدور حول وقائع خاصة و إنما تدور حول الاهتمام بالفئات الكلية للوقائع لان هناك عدد غير محدود من الوقائع.(٦) اى ان النظرية الحقيقية عبارة عن مجموعة من القضايا المتماسكة المترابطة منطقيا و التى تسمح بملاحظة عدد كبير من الوقائع، و على وجه الخصوص التعميمات الامبيرقية، و النظرية التى تسقط من حساباتها واقعة ما، او تهملها فانها تفشل فى ان تكون عامة، و تعنى صفة العمومية استقصاء كل وحدات الموضوع لأنه ربما يخاطر التعميم بتفسير واقعة مهمة، و الواقعة ذات التعميم الامبيريقى دائما ما تكون موضع تفسير لكثير من النظريات كما أن النظرية تعطى قيمة لعدد كبير من الوقائع و فى هذه الحالة تكون هناك فرصة أخرى لنظرية جديدة تستحوذ هذا الاهتمام. و فى الواقع لا يمكن ان تستقى من الملاحظات و التعميمات عن طريق استخدام وسائل الاستقراء المضبوطة و الدقيقة، فبناء النظرية يعد إنجازا خلاقا ومن هنا فان الأمر لا يدعو إلى الدهشة حين نجد نفرا قليلا من المشتغلين فى ميدان علمي معين هم القادرون على القيام بمثل هذا العمل، فهناك دائما قفزا فوق الأدلة و إحساس خفي متصل بالجهد الخلاق لكن اى نظرية يتم بناؤها على هذا النحو لابد أن تخضع للتحقق، فهى تعد صادقة و محققة بصيغة مبدئية فى حالة عدم وجود وقائع معروفة أو تعميم قائم يناقضها أما إذا كان هناك ما يناقض مثل هذه النظرية المؤقتة فان الأمر يتطلب رفضها أو تعديلها على الأقل. إذن فإن النظرية ليست نهائية على الإطلاق فى العلم الامبريقى.(٧) ومن التعريفات الهامة

---

(٥) عبد الباسط عبد المعطى، مرجع سابق، ص ٢٧

(٦) بيرس كوهن، النظرية الاجتماعية الحديثة، ترجمة:عادل الهوارى، دار فينوس للطباعة، ١٩٧٧، ص ٧.

(٧) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ص ٣٧-٣٨.

لمفهوم النظرية تعريف براث وات الذي يحدد النظرية بوصفها تشتمل على مجموعة من الفروض التى تشكل نسقا استنباطيا اى تتكون بشكل منتظم من بعض الفروض اللاحقة التى تلحق ببعض الفروض المقدمة، بمعنى آخر تعد النظرية بمثابة مجموعة من القضايا التى تنظم فى نسق استنتاجي او استنباطي و تندرج على مستويات تحتل فيها الفروض او القضايا على المستوى الأعلى مكانة المقدمات المنطقية في ذلك النسق، أما التى تكون فى المستوى الأدنى بمثابة نتائج لما بتقدمها من فروض او قضايا وتكون فروض المستوى الأوسط مستنتجة من فروض المستوى الأعلى والتى تعتبر بدورها كمقدمات منطقية لاستنتاج المستوى الأدنى(٨).

اى أن النظرية كما يقول كينلوش عبارة عن قضايا مجردة و منطقية تحاول تفسير العلاقات بين الظواهر ثم حدد كينلوش مجموعة من العناصر الهامة لبناء وتكوين النظرية على النحو التالي:

١) يمثل النموذج **paradigm** الذى تستند إليه النظرية أول أسس بناء النظرية، هذا النموذج القياسي الذى يشتمل على الصياغة التصورية المرتبطة بالظواهر التى تقوم النظرية بتفسيرها ومن أمثلة النماذج النظرية التى يمكن الإشارة إليها النظرية البنائية الوظيفية و إطار نظرية الصراع و نظرية فرويد عن التحليل النفسي للشخصية و نظرية التفاعلية الرمزية.

٢) النماذج النظرية لابد أن تحتوى على مفهومات **concepts** معينة و هذه المفهومات تحتاج الى تحديد واضح و الى التدليل على علاقتها بالنماذج الاساسية لها.

٣) ضرورة الربط بين هذه المفهومات على نحو نظري وتأخذ شكل هذه العلاقات مستويات متباينة فقد تكون بمثابة بديهيات ثم القضايا أو الفروض وعلاوة على ذلك قد تكون هذه العلاقات ايجابية او سلبية او مستقلة.

٤) تحديد العلاقات بين المفهومات فى صورة متغيرات **variables** مثل اختبارات الشخصية و مقاييس الطبقة الاجتماعية، المقاييس الديموجرافية للنسق الاجتماعي، و مقاييس الحراك الاجتماعي و المقاييس الاجتماعية و

---

(8) Seltize، et al، Research methods in social relations، Holt Rinehart، N.Y., U.S.A.، 1961, PP.480-481.

الاقتصادية للتغير الاجتماعي، و يشتمل كل متغير على عدد من المؤشرات الامبيريقية التى تحدد نوع الأداة المستخدمة فى البحث.

٥) تحديد مناهج البحث الامبيريقية لاختبار العلاقات الافتراضية بين المتغيرات و المؤشرات وهذه المناهج تحدد الى درجة كبيرة طبقا لنوع المتغيرات المستخلصة فى بناء النظرية.

٦) تحليل البيانات فى ضوء الفروض الرئيسية للنظرية و غالبا ما تشتمل هذه التحليل على تطبيق الأساليب الإحصائية الخاصة بالارتباط و الدلالة الإحصائية.

٧) تفسير البيانات في ضوء بناء النظرية الخاص بالنموذج الاساسى والبديهيات والقضايا التقريرية والفروض.

٨) ضرورة تقويم النظرية فى ضوء معيارين أساسين الأول كفاءة و مجال و منطق بناؤها النظري و الآخر فى ضوء مستوى إمكانية الاختيار و التنبؤ والدقة عند إخضاعها للفحص الامبريقى. وبهذا فالنظرية فى تصور كينلوش تمثل مجموعة من القضايا التقريرية والمنطقية والمجردة و المقبولة والتى تحاول تفسير العلاقات بين الظواهر.(٩) والخلاصة انه يمكن تعريف النظرية باختصار شديد بوصفها" مجموعة من القضايا التى ترتبط منطقيا فيما بينها وتشبه القوانين،و تربط بين المفهومات و المتغيرات و المؤشرات، و تتسم هذه القضايا بالوضوح و الدقة و الإيجاز وان تكون قابلة للاختبار فى الواقع، فضلا عن قدرتها على تفسير الوقائع و الأحداث والعلاقات بين الظواهر والقدرة على التنبؤ بمسار هذه الوقائع و الظواهر". وفى ضوء هذا التعريف السالف يمكن الوقوف على اهم شروط النظرية العلمية التى اتفقت عليها معظم الكتابات المعنية على النحو التالي:

أ- ضرورة أن تكون مكونات النظرية واضحة ودقيقة ومحددة الألفاظ والمعاني والمضامين.

ب- ان تعبر النظرية بايجاز تعبيرا يوضح هذه المشتملات و يبين غرض النظرية عموما وأهداف كل مكون من مكوناتها تخصيصا.

(9) kinloch, G., Sociological theory: its development and major paradigms، McGraw-Hill, N.Y., 1985,PP.12-14

ج- أن تكون النظرية شاملة بقدر الامكان للجوانب التى قصد ان تنطوي عليها النظرية بما فى ذلك وصف و تحليل و تفسير الحقائق المعنية.

د- أن تكون النظرية متفردة فى موضوعها و مشروعها التفسيرى و ذلك لان وجود نظرية أخرى تدرس نفس الموضوع و تفسره بنفس العوامل والطرق يضعف النظرية و يفقد فاعليتها و يجعلها تكرار لا مبرر له يتنافى مع قاعدة الاختصار العلمى.

ه- أن تكون للنظرية ارضية واقعية بمعنى ان تعتمد فى صوغها على ملاحظات و دراسات واقعية من ناحية و ان تكون قابلة للاختبار العلمي الذي يثريها و يكسبها مشروعيتها العلمية من ناحية أخرى. فالنظرية التى تأتى بقضايا تستعصي على الاختبار لا تعد نظرية علمية.

و- وأخيرا ضرورة وجود القدرة على التنبؤ فى النظرية العلمية، فالنظريات التى تقف عند مجرد الوصف تفيد لكنها تعد ناقصة، والنظريات التى تقف عند مجرد التفسير تفيد لكنها تعد ناقصة ايضا لان قدرتها على التنبؤ تزيد من قوتها من جانب و تجعلها قادرة على مساعدة العلم كي يقوم بدوره المجتمعي الانسانى من جانب أخر.

ثانيا: تصنيف النظرية وأنماطها:

تمثل قضية تصنيف **classified** النظريات الاجتماعية المعاصرة فى علم الاجتماع من بين أكثر القضايا اهمية فى توضيح هذه التصنيفات و تفهم بعض مساراتها، و قد أكد "هوايتهد" الى ان التصنيف أمر ضروري للعلوم لأنه من بين الأساليب التى تسهم فى التعرف على مكونات الأشياء المصنفة و هذا التأكيد فيه قدر كبير من الصواب، لأنك عندما تهتم بتصنيف فكرة ما، او قضايا بعينها يجعلك هذا تنظر فى خصائص هذا الفكر، و هذه القضايا بقصد معرفة ما يميز كلا منها، حتى تضعه فى فئته المناسبة، و فى عملية تحديد المميزات و الخصائص، تركز على الجوهر و الأساس فى هذا الفكر علاوة على ذلك فان التصنيف ييسر عمليات المقارنة و المضاهاة بين محتويات ما تم تصنيفه. و بالتدقيق فى حالة مسألة التصنيف هذه فى نظرية علم الاجتماع يمكن التمييز بين مسلكين عامين فى داخلها مسالك أخرى فرعية عنى الأول بالتصنيف و التنميط مباشرة، دون الالتفات الى

مسائل المعايير و الأسس و الشروط المنهجية المطلوبة، تاركا للقارئ ان يستنتج هو هذه الأشياء من بين ثنايا التصنيف و أما المسلك الآخر فقد بدأ منهجيا بتوضيح فلسفة التصنيف و معاييره من خلال القيام الفعلي بتصنيف هذه الاتجاهات النظرية. و يمكن القول بان المسلك الأول كان الأكثر شيوعا و تواترا بين الباحثين و ربما كان لسهولته، و المثال على ذلك محاولة الكس انكلز فى كتابه " ما علم الاجتماع " و الذى ركز فيه على عدد من الاتجاهات و النماذج التى وجدها كامنة وراء أعمال غالبية رواد علم الاجتماع ووراء معظم مدارسه ايضا، مثل النموذج التطوري و العضوي و نموذج التوازن فى مقابل نموذج الصراع و النموذج الطبيعي وأخيرا النموذج الرياضي و الاحصائى.و يقترب ما قدمه بيرسى كوهين فى كتابه النظرية الاجتماعية الحديثة مما قدمه انكلز و الذي قسم فيه كوهين الاتجاهات النظرية الى نظريات القهر او القسر و نظرية المصلحة و نظريات الاتفاق القيمى و أخيرا نظرية الحضور الذاتي ومثلها أيضا محاولات نيقولا تيماشيف و بيتريم سوروكن و يلاحظ على هذه المحاولات أنها تخلط بين مضمون الاتجاه المعين و بين توجهه العام ومنهجه.و أما المسلك الثاني و هو الأكثر أهمية فـي منهجيتـه و محاولتـه الجادة و يمثله محاولة فاجنر الذى بدأ بطرح عدد من الأسئلة الهامـة و المعـايير المطلوبة لاى تصنيف دقيق و هذه الأسئلة تتمثل فيما يلي:

أ- هل هناك إتساق داخلى فى التصنيف؟

ب- هل التصنيف قادر على التمييز بين الاتجاهات الاساسية من خلال فروق جوهرية بينهما؟

ج- هل يوسم التصنيف بالعمومية بشكل يجعله قادرا على تصنيف معظم الاتجاهات؟

ووفقا لهذه المعايير قام بتصنيف الاتجاهات النظرية كما يلى:-

١) النظريات السوسيولوجية الوضعية التى يعتبر مؤلفوها علم الاجتماع علمـا طبيعيا او هم يتعاملون على هذا الأساس وتتضمن هذه الفئـات النظريـات التى تأثرت بالعلوم الطبيعية او قلدتها او تأثرت بأطرها المرجعية بإدخـال أبعاد غير سوسيولوجية فى تفسير الواقع الاجتمـاعى ومـن أمثلـة هـذه النظريات الوضعية الجديدة و الايكولوجية الإنسانية و البنائية الوظيفيـة و السلوكية و النظرية النفسية الحيوية فى الثقافة.

٢) النظريات التفسيرية التى ينظر أصحابها لعلم الاجتماع على انه علم اجتماعي يمثل تقابلا متميزا عن العلم الطبيعي و من أمثلة هذه النظريات نظرية الفهم الثقافي، اى تفسير الواقع الاجتماعى بالثقافة و نظرية الفعل.

٣) النظريات الاجتماعية غير العلمية او التقويمية و التى يتعامل مؤلفوها مع علم الاجتماع كفلسفة اجتماعية او كإصلاح اجتماعي أو كليهما معا.(١٠)

لكن يرى جوناثان تيرنر – اى ان اغلب نظريات علم الاجتماع تمثل صورة كلامية عن المجتمع بدلا من صياغة مجموعة من القضايا محكمة البناء فى صيغة متماسكة منطقيا، و هكذا فعدد كبير من الأعمال مما يسمى نظرية ما هو فى الحقيقة إلا منظور عام او توجه عام يبحث عن الخصائص المختلفة و المتعددة لعملية قيام التنظيم و التى بدورها قد تترجم أخيرا الى نظرية علمية صادقة إذا ما سار كل شيء على ما يرام و على هذا فقد أشار تيرنر الى ان الوجود الواقعي لعدة منظورات متباينة فى علم الاجتماع يفرض بعض مشكلات التصنيف و الشرح و التفسير و مما يعقد هذه المشكلات بدورها هو حقيقة ان هذه المنظورات تختلط سويا مما يؤدى الى صعوبة تصنيف كل منظور على حدة و رأى ان الحل الأوحد لتلك المشكلة هو تحديد عدد المنظورات المتداخلة التي تدرسها تحديدا تعسفيا، و فى الوقت نفسه الادعاء بأنها منفصلة بعضها عن بعض ووفقا لهذه الرؤية قام بتصنيف الاتجاهات النظرية الى أربعة منظورات أو أربعة اتجاهات أساسية في علم الاجتماع وهى النظرية الوظيفية و نظرية الصراع و نظرية التفاعلية الرمزية و نظرية الدور وأخيرا نظرية التبادل، و قد صنف هذه المنظورات الأربعة بسبب:

أ- الشعور بأنها أكثر المنظورات عمومية و شهرة فى علم الاجتماع وأنها تمثل ركيزة أساسية لمعظم المنظورات فى هذا المجال.

ب- أن هذه المنظورات هى الأكثر تأثيرا و انتشارا وبطبيعة الحال هى الأكثر عرضة للتحليل و النقد.

ج- أن أنصار كل منظور أكد أن منظوره هو الذى يستطيع ان يخرج علم الاجتماع من مأزقه النظري.(١١)

---

(١٠)عبد الباسط عبد المعطى، مرجع سابق، ص ص ٤٤– ٤٧.

(١١) جوناثان تيرنر،بناء نظرية علم الاجتماع، ترجمة:محمد سعيد فرح، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٩٩،ص ص ١٥–١٦.

وهناك عدد من الباحثين في نظرية علم الاجتماع اتخذوا من النظام الاجتماعي الاقتصادي الذي تدافع عنه بعض النظريات أو تراه نموذجا أساسيا للتصنيف أو ما تسميته بالتوجه الايديولوجي للاتجاه و في ضوئه يمكن ملاحظة تصنيفات لبعض الاتجاهات على أنها اشتراكية أو رأسمالية، و يمثل ذلك أعمال أوسيبوف في كتابه (قضايا علم الاجتماع).(١٢) لكن أكثر المحاولات شيوعا في تصنيف نظريات علم الاجتماع هو تصنيفها الى نظريات التوازن التي تركز على استقرار المجتمع و توازنه، ونظريات الصراع التى تركز على التغير الاجتماعي و على اهمية الصراع فى هذا التغير او الى نظريات فلسفية عامة عن المجتمع ترى ان التاريخ البشرى يسير وفق قانونيات عامة تحكم سيره و تيارات لا تعترف بوجود قوانين عامة تحكم سير المجتمعات او لا تقر بإمكانية الكشف عن هذه القوانين فتدعو إلى رفض النظرية فى علم الاجتماع و قصر موضوعه على دراسة الظواهر الاجتماعية الملموسة القابلة للملاحظة و القياس و نظريات من المدى المتوسط تكتفي بدراسة العلاقات داخل بنية اجتماعية محددة فى زمان ومكان محددين و هى نظريات تمثل خطوة أنضج من النظريات الموضوعة لغرض معين و التى توضع باستمرار لتيسير التفاهم حول بعض الانتظامات التى اتضحت إمبيريقيا، و لكن هذه النظريات تمثل درجة أدنى من النظريات المركبة او الشاملة و العلاقة النظرية المتكاملة و قد توافر لدينا فى هذا العدد أربعة مستويات تصنيفية و هي:

- نظريات قائمة على ملاحظة الانتظامات العامة الامبيريقية.
- نظريات محددة الغرض.
- نظريات متوسطة المدى.
- نظريات ذات درجة عالية من التركيب و الشمول.(١٣)

وفي ضوء كل ما سبق من تحليل و مناقشة يمكن التوصل الى ان اى تصنيف يتسم بالشمولية يجب ان تتوافر فيه الملامح التالية:-

أ- ضرورة أن يكون التصنيف علميا

---

(١٢) انظر أوسيبوف، قضايا علم الاجتماع (دراسة سوفيتية نقدية لعلم الاجتماع الرأسمالي) ترجمة: سمير نعيم، و فرج احمد فرج، دارا لمعارف، القاهرة،١٩٧٠

(١٣) محمد الجوهري،عودة علم الاجتماع الى الفلسفة، في كتاب دراسات في علم الاجتماع، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية،كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣، ص ص ٨١- ٨٢.

ب- ضرورة ان يعبر التصنيف عن طابع علم الاجتماع ووظائفه

ج- ان يكون التصنيف قادرا على التعامل مع الاتجاهات الهامة و الاساسية وان يتغاضى عن بعض التفصيلات التى قد تكون جزئية او عرضية و من اهم هذه المحاولات الشاملة للتصنيف النظري فى علم الاجتماع والتي تختلف عن المحاولات الأخرى فى عدد من الخصائص الأخرى على النحو التالي:

١) النظريات الرسمية و غير الرسمية **formal- informal theories** حيث تصنف النظريات الى نظريات علمية او رسمية و هى تلك النظريات التى يقوم بناؤها على مجموعة مسلمات **assumptions** والتي يعتمد عليها المنهج العلمي او قد تكون النظرية من النوع غير الرسمي الذي يفتقر إلى بناء و يعتمد على مسلمات ترتبط بالحياة اليومية، و تدخل النظرية الرياضية و نظرية العلوم الطبيعية فى النموذج الأول، بينما تقع الفروض المفردة و الأيديولوجية و التخمينات البحثية فى الفئة الثانية.

٢) النظريات الو صفية و النظريات التفسيرية **descriptive – explanatory** و بالمثل قد تكون النظرية وصفية فى مجملها و تفتقر الى نموذج قياسي تفسيري اساسى، بينما تركز الأخرى على وظيفة التفسير و يقوم بناؤها على هذا الأساس و على الرغم من ان النظرية الو صفية قد تشتمل ضمنيا على تفسير لكنها تعجز عن تقويمه وذلك لغياب النموذج القياسي أو عدم وضوحه.

٣) النظريات الأيديولوجية و النظريات العلمية **ideological- scientific** قد يكون سياق النظرية أيديولوجيا على نحو واضح او قد تكون النظرية موجهة بالمنهج العلمى، و تؤكد على صياغة الفروض التى يمكن اختبارها امبيريقيا.

٤) النظريات الموضوعية فى مقابل النظريات الذاتية **intuitive – objective** ايضا تختلف النظريات من حيث الدرجة التى تدعى بها ان معرفتها ذاتية و حدسية فى مقابل تلك المعارف الموضوعية و الخارجية و يمكن تجسيد هذا التمييز من خلال الاشارة الى إسهامات علماء الاثنوميثودلوجيا من ناحية و إسهامات علماء البنائية الوظيفية من ناحية أخرى.

٥) النظرية الاستقرائية فى مقابل النظريات الاستنباطية – inductive deductive theory و معظم النظريات تميل إلى الطابع الاستنباطي مستخدمة ما هو عام (مثل النسق الاجتماعى) باعتباره متغيرا مستقلا في نسق التفسير الخاص بها و تمثل النظريات السيكولوجية و السوسيولوجية من ناحية أخرى إلى أن تكون استقرائية فى طابعها

٦) نظريات الوحدات الصغرى و نظريات الوحدات الكبرى microscopic – macroscopic وقد تختلف النظريات ايضا من حيث مستوى التحليل فقد تركز على مستوى فردى محدد (الوحدات الصغيرة) او على مستوى عام و مجتمعي (الوحدات الكبرى) و تميل النظريات فى علم الاجتماع الى النوع الأخير بشكل واضح بينما تركز التفسيرات فى علم النفس على المستوى الأول و لكل مستوى مميزاته الخاصة و ايضا مشكلاته، وعلى أية حال يميل مستوى الوحدات الكبرى الى ان يصبح أكثر عمومية عند تفسير الظواهر الفردية بينما يعانى تحليل الوحدات الصغرى من المشكلات العكسية

٧) النظريات البنائية و النظريات الوظيفية structural – functional كذلك تختلف النظرية فى تركيزها على بعض العناصر فى تفسيرها لبناء الظواهر بينما تعنى الأخرى أكثر بالأسلوب الذى تظهر به او تتغير هذه الظواهر فى علم الاجتماع فمثلا تعنى النظرية البنائية الوظيفية ببناء مجتمع معين فى ضوء وظائفه الاساسية بينما تركز نظريات الصراع على ديناميات هذا المجتمع.

٨) النظريات الطبيعية و النظريات الاجتماعية naturalist – social و أخيرا تختلف النظريات من حيث أنواع المتغيرات البيولوجية و الطبيعية، بينما تركز الأخرى على المتغيرات الاجتماعية اى يحاول العالم الاجتماعى تفسير السلوك الاجتماعى فى ضوء الغرائز البيولوجية للإنسان (المدخل الطبيعي) او فى ضوء خصائص النسق الاجتماعى مثل تقسيم العمل و درجة النمو النظامي (التوجه النسقى) وهذان نوعان مختلفان في التفسير و لهما مضامين متباينة.(١٤)

---

(١٤)على جلبى، الاتجاهات الاساسية فى نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص٣٥– ٣٨

وهكذا يتضح انه لابد من توافر شروط علمية فيما يسمى اتجاها نظريا حتى يدخل فى عملية التصنيف و اهم هذه الشروط الوضوح و العمومية و التميز و التأثير فى مسار العلم كما يتضح ان عملية التصنيف لها أهمية كبيرة في علم الاجتماع حيث يسهم فى فهم الاتجاهات و تقييمها، كما يساعد فى تنقيح علم الاجتماع من شوائب جعلت صورته غير واضحة ومتداخلة مع غيره من العلوم المهتمة بدراسة الإنسان و المجتمع.

ثالثا: وظائف النظرية

تقوم النظرية العلمية بوظائف متعددة و متنوعة تتراوح بين الوظائف ذات النطاق الضيق و الوظائف ذات النطاق الشامل او ما يمكن تسميته بوظائف الحد الأدنى، و الوظائف التى تتجاوزه الى أخريات أكثر شمولا، فعلى المستوى يذهب بيير دوهم **duhem** إلى أن هدف النظرية العلمية يتركز فى عرض الوقائع و تنسيقها و أما التفسير فهو شيء يأتي متطفلا عليها، و لكي يدلل على زعمه هذا فقد ميز بين نوعين من النظريات، تلك التى تختص بالوصف و تلك التى تهتم بالتفسير، وبجانب هذا يذهب البعض من أمثال موريتس شليك **shlick** إلى أن تقدم العلم و المعرفة العلمية مرهون بالتفسير، كما ذهب الباحث الامريكى هارولدفالدنج **faldings** الى انه لكي تكون النظرية علمية يجب ان تكون ذات قدرة تفسيرية و على هذا يمكن إيجاز أهم الوظائف التى تؤديها النظرية العلمية:-

١) تساعد النظرية اى علم على تحديد هويته و موضوعاته الاساسية الأمر الذى يسهم فى ابراز دوره المعرفي التراكمي حيث يحدد فى ضوئها ما يجب دراسته أكثر من غيره، وما الذى لم يدرس ومستوى ما تم التوصل إليه.

٢) نظرا لتشعب الظواهر الاجتماعية و تعقدها فالنظرية العلمية تعد نقطة الانطلاق الهامة حيث تمد الباحث بإطار تصوري يساعده على تحديد الأبعاد و العلاقات التى عليه ان يدرسها، و تمهد له الطريق لجمع معطياته و تنظيمها و تصنيفها و تحديد ما بينها من ارتباطات و علاقات.

٣) تؤكد خبرات البحث العلمي ان جمع بيانات بلا نظرية موجهة يسلمنا إلى بيانات صماء عمياء فاقدة المعنى و الوظيفة، و بنفس القدر تعد النظرية

العلمية بلا معطيات و بيانات عملا خاويا و محض مفهومات و مصطلحات مجردة ومن ثم فالعلاقة جدلية بين النظرية العلمية و البحث.(١٥)

و الجدير بالذكر هنا ان النظرية العلمية -كما أوضحت سيلتز و آخرون- تقوم بوظائف متعددة فى توجيه البحث العلمي من أهمها:-

(١) توجيه النظرية نحو الموضوعات المثمرة للبحث العلمي:

تحدد النظرية مسار و اتجاه البحث و توجيهه نحو تناول الموضوعات التي تحتمل أن تكون أكثر ثمارا من غيرها، والمثال الذى يوضح ذلك يمكن ان نستمده من نظرية بيرسى كوهن **cohen** التي قدمها لتفسير تكوين الثقافة الفرعية الإنحرافية في بعض قطاعات المجتمع الامريكى، تلك النظرية التى أقامها من نتائج بحوث سابقة حول السلوك الانحرافى، و على خبراته الخاصة بسلوك عصابات الجانحين وعلى بعض النظريات الأخرى فى ميدان علم النفس و الاجتماع، مستخلصا مجموعة من القضايا النظرية التالية:

أ- يهدف كل سلوك إنساني الى حل بعض المشكلات.

ب- بالرغم ان كل أعضاء المجتمع يعانون من المشكلات إلا ان هذه المشكلات تتباين بين أعضاء المجتمع، فمثلا أعضاء الطبقة العاملة يعانون من المشكلات بدرجة أكثر مما يعانى منه أعضاء طبقة الموظفين كما يوجه الذكور مشكلات تفوق ما يواجهه الإناث و هكذا

ج- يمثل التفاعل بين الأفراد و مواجهة مشاكل التكيف شرطا أساسيا لتكوين أنماط ثقافية جديدة.

د- يشترط في تكيف الأفراد ان يرضى عنه أقرانه الذين تكون لهم أهمية من وجهة نظرهم.

ه- يصعب تحقيق التكيف لأبناء الطبقة العاملة بسبب تطبيق معايير الطبقة الوسطي على أبنائهم فى المدارس و النوادي و غيرها مما يجعلهم غير مهيئين لمجارات مثل هذه المعايير.

و- تتغلب الثقافة الفرعية الانحرافية على ذلك من خلال وضع معايير لهم يستطيع هؤلاء الأبناء مجاراتها.

---

(١٥) عبد الباسط عبد المعطى، مرجع سابق، ص ص ١٢- ١٣

ز- نشوب صراع بين المعايير المفروضة على أبناء الطبقة العاملة و معايير الثقافة الفرعية للعصابات الجانحة

ح- ولفض هذا الصراع فإن الثقافة الفرعية الانحرافية ترفض معايير الطبقة الوسطي بكل رموزها و مكانتها، و تعلى من شأن معايير العصابة الجانحة

و لذا يرى كوهن ان نظرية تقترح الاهتمام بدراسة علاقة تصدع الأسرة و الشخصية و الحي و ما إليها بالجناح و ضرورة توفير الوقائع حول سلوك المنحرف نفسه و بالتالي فهذا المثال يوضح كيف تعمل النظرية على توجيه البحث نحو موضوعات معينة.(١٦)

(٢) تلخيص الوقائع و توضيح العلاقات بينها.

لا شك ان كل قانون و كل فرض بل و حتى كل مفهوم تتضمنه النظرية ليس إلا تلخيصا هائلا لعدد لا نهاية له من الملاحظات التى قام العلماء بإجرائها فمفهوم الخلية الحية مثلا يلخص فى كلمة واحدة ملاحظات عديدة أجريت عن شكل او صورة معينة من المادة، و مفهوم الأسرة يمثل نفس الشيء و القوانين تلخص العلاقات المتعددة بين الظواهر موضوع الدراسة، و النظرية كذلك تلخص العلاقات بين القوانين، و بدون عملية التلخيص **summarizing** و التنظيم هذه يتعذر تماما الإلمام بمكتشفات العلم أو استنتاج أى شيء منها أي أن التلخيص يمكن ان ينقسم إلى نوعين هما: التعميمات الإمبيريقية، و اتساق العلاقات بين القضايا والفروض.

(٣) التنبؤ بالوقائع.

فإذا كانت النظرية تلخص الوقائع و تقرر وجود نظام عام يربط بين الملاحظات التى يتوصل إليها العالم فانها تصبح ايضا تنبؤات بما سيحدث فى المستقبل فقولنا مثلا ان المعادن تتمدد بالحرارة يعنى فى نفس الوقت انه إذا لم تترك مسافات مناسبة بين قضبان السكك الحديدية فانها سوف تتقوس نظرا لتمددها، و قولنا ان البعوض ينقل مرض الملاريا يعنى فى نفس الوقت تنبؤا بان نسبة هذا المرض ستقل إذا ردمنا البرك و المستنقعات التى يتوالد فيها البعوض.اى ان النظرية إذا أمكن لها ان تقوم بتلخيص الوقائع وتقديم اتساق عام من وراء

(١٦) على جلبى، مرجع سابق، ص ص ٥٠-٥٢.

ملاحظات مباشرة فتستطيع ايضا ان تتنبأ بالوقائع، فـالتنبؤ هـو اسـتنتاج غيـر معروف من المعروف، ومثال ذلك انه يمكننا ملاحظة ان التكنولوجيا الغربية تؤدى الى الهبوط الحاد فى معدلات المواليد كما ان هناك هبوط نسبى ضئيل فى معدلات المواليد لدولة ما، و ذلك من خلال المظاهر الاولية و بهذا نتوقع انه اذا ظهـرت مظاهر التكنولوجيا الغربية فى دولة ما فاننا نتوقع هبوط فى معدلات المواليد.

(٤) النظرية تحدد الثغرات في معلوماتنا.

حيث إننا لا نستطيع ان نعرف ما ينقصنا فى اى مجال إلا إذا عرفنا اولا ما هو متوفر لدينا و إذا كانت المعرفة المتوفرة لدينا من الكثرة فانه يصعب علينـا ان نعرفها جيدا و لما كانت النظرية تلخص و تنظم المعرفة المكتسبة فانها تساعدنا على التعرف على ما ينقصنا من معرفة و بالتالى ترشدنا الى الجوانب التى يجـب ان نركز عليها.[(١٧)] و تعتبر محاولة سذرلاند لإعادة النظر فى المفهـوم الـدارج للجريمة مثالا بناء على الكيفية التى بها مليء نقص المعرفة حول بعض الجـرائم فعندما اخذ سذرلاند يجرى عملية مراجعة لنظريات علم الإجرام التى تشـير الـى وجود معدل عال للجريمة بين الطبقات الدنيا يفوق نظيره بين الطبقـات العليـا و التى توصلت الى هذه الحقيقة استنادا الى بيانات الجريمة الرسمية التى تم جمعهـا فى ضوء مفهوم اجرائى معين للجريمة و التى أدت الى سلسلة من الفروض التـى تعتبر حالة الفقر و ظروف التخلف و الضعف العقلي و غيرها من السـمات ذات الارتباط العالي بالمكانة للطبقات الدنيا، و التى تعتبر من بـين العوامـل الهامـة للسلوك الاجرامى، استطاع عندئذ ان يكشف عن الغموض و الخطأ الذى تنطـوي عليه هذه النظريات، و لقد بدأ مراجعته لهذه النظريات من مفهوم الجريمة نفسـه، الذى حاول توسيع نطاقه ليشمل مخالفات القانون الجنائى التى تظهـر بـين ذوى الياقات البيضاء و رجال الأعمال و الإدارة تلك المخالفـات التـى تختفـي مـن الإحصائيات الجنائية الرسمية بمقارنتها بغيرها من مخالفات ذوى الياقات الزرقـاء أعضاء الطبقة الدنيا وفى ضوء هذا المفهوم الجديد يتوقع اختفاء الارتباط العـالي بين الجريمة و المكانة الاجتماعية الدنيا لأن سذرلاند عندما اخذ بالمفهوم الجديـد للجريمة حاول إعادة بناء الثغرة فى البيانات عن طريق الإشارة الى مـا تنطـوي

(١٧) سمير نعيم، النظرية فى علم الاجتماع، دار المعارف، ط٢، القاهرة ١٩٧٩، ص ص ٣٤-٣٥

عليه وما تستبعده، بواسطة الشك في المسلمات التي قامت على اساسها هذه البيانات الإحصائية و بخاصة تلك المسلمة التي يستند إليها التحديد الامبيريقي للجريمة و التي مفادها انه يتم تسجيل مخالفات القانون الجنائي التي يرتكبها أعضاء الطبقات الاجتماعية العديدة بطرية واحدة في الإحصائيات الجنائية، و هكذا تؤثر مفاهيم النظرية و تصوراتها من ناحية أخرى، في حل الثغرات الملاحظة بين النتائج و الوقائع، وعموما يساعد التحليل التصوري الصريح على معرفة اى شيء يستجيب و اى العناصر يتجاهلها.(١٨)

(٥) النظرية أخيرا تقوم بمهمة ترشيد التطبيق

ان الغاية التي يرمى إليها العلم في النهاية هي مهمة التطبيق **applied** بمعنى ان العلماء يدرسون ظواهر الكون و الطبيعة، و يحاولون التوصل الى القوانين التي تحكمها من اجل استخدام نتائج دراساتهم في التعامل مع الطبيعة و السيطرة عليها، و النظرية العلمية بما أنها تلخيص لكل الحقائق التي اكتشفها العلماء تقوم بمهمة ترشيد اى توجيه التطبيقات العلمية في مجالات الحياة المختلفة، فقوانين الطفو مثلا ساعدت على بناء السفن ونظرية الجاذبية ساعدت على بناء الطائرات و هكذا.

والعلاقة بين الممارسة او التطبيق من جهة و بين النظرية العلمية من جهة أخرى علاقة متبادلة، فمحك صدق النظرية هو نجاح ما تشير إليه من تطبيقات عملية، كما ان التطبيقات العلمية و الممارسة تدعو العلماء الى استكمال او الإجابة على التساؤلات التالية:

أولا: ما هو البناء الاجتماعي الكلى لهذا المجتمع النوعي؟ و ما هي مكوناته الاساسية و كيف ترتبط هذه المكونات بعضها ببعض، و كيف يختلف كل منها على بقية الأبنية؟ و ما الدور الذى يلعبه اى عنصر داخل البناء ذاته بالنسبة لاستمرارية هذا البناء وتغيره؟

ثانيا: أين يقع هذا المجتمع في التاريخ الانساني؟ و ما هي آليات تغيره؟ و ما هو مكان هذا المجتمع و دلالته بالنسبة لتطور الانسانية ككل؟ و كيف يؤثر اى عنصر ندرسه في المرحلة التاريخية التي يتحرك فيها؟ و ما هي المعالم الاساسية

---

(١٨) على جلبى، مرجع سابق، ص ص ٥٤- ٥٥.

لهذه المرحلة؟ و كيف تختلف عن غيرها من المراحل، و مــا هــى خصائصــها المميزة فى التاريخ الانسانى؟

ثالثاً: ما نوعيات الرجال و النساء المسيطرين فى هذا المجتمع فى تلــك المرحلة؟ و ما هى النوعيات التى فى سبيلها الى السيادة و السيطرة؟ و كيف يــتم اختيارهم و تكوينهم و تحريرهم أو قمعهم؟ و فى النهاية ما مغزى و دلالــة كــل عنصر نقوم بدراسته فى المجتمع بالنسبة للطبيعة الإنسانية؟. هذه الأسئلة الرئيسية التى يراها ميلز ضرورية لكل تحليل سوسيولوجى لدراسة الإنســان و المجتمــع حيث ان الوظيفة الجوهرية للنظرية الاجتماعية هى الانتقال من منظور الى آخر و التصور الموضوعي للعلاقات الاجتماعية المتبادلة بين الناس يتفاعلون مع بعضهم البعض داخل المجتمع.(١٩)

رابعاً: الظروف المجتمعية و الفكرية لنشأة النظرية الاجتماعية: تتشــكل الأفكار بالسياقات الاجتماعية التى تنشأ فى إطارها، و لقد تأثرت الأفكار النظريــة فى علم الاجتماع بمجموعة من الظروف و القوى المجتمعية و الفكرية التى يمكن الإشارة إليها على النحو التالي:

(١) الثورات السياسية و الصناعية:
industrial and political revolutions

فى الواقع لقد نشأت نظرية علم الاجتماع اســتجابة لظــروف مجتمعيــة خاصة بالثورة السياسية و الصناعية، فلقد قامت الثورة الفرنسية فى أواخر القــرن الثامن عشر (١٧٨٩) و كان قيامها باعث لقيام كثير من الثورات السياسية التــى حدثت فى القرن التاسع عشر، حيث كان قيام هذه الثورات عاملا مباشــرا لنشــأة التنظير فى علم الاجتماع و لقد ترتب على حدوث هذه الثورات كثيــرمن الآثــار الايجابية فى المجتمعات التى قامت فيها تلك الثورات و لكن أكثر ما لفــت نظــر الباحثين فى علم الاجتماع تمثل فى الآثار السلبية و المشكلات الاجتماعيــة التــى تجمعت عن التغيرات الاجتماعية التى أحدثتها هذه الثورات السياسية و ما صاحب ذلك من اتساع نطاق الفوضى و الاضطراب فى الحياة الاجتماعية، و قــد حــدث رغبة كثير من الباحثين فى علم الاجتماع -خاصة فى فرنســا - بإعمــال الفكــر

(19) Milles. R.، Sociological imagination، in Rose, P., (ed) the study of society (an integrated anthology) Arondam house book، N.y.، 1967، PP.4-7

للوصول الى ما يعيد الاستقرار و النظام فى المجتمع، و اندفع بعض من هـؤلاء الى الدعوة للرجوع مرة أخرى الى حياة اجتماعية يسودها النظام و الاستقرار و السلام، كما تحقق ذلك بقدر كبير فى العصور الوسطي و لكن بعضا من المفكرين أدركوا استحالة تحقيق ذلك، لان التغير الاجتماعي الذى حدث فى تلك المجتمعات يجعل تلك العودة أمرا مستحيلا و لهذا اتجه هؤلاء الى البحث عن أسس جديدة يمكن ان يستند إليها النظام العام فى المجتمع الذى تأثر كثيرا بالثورات السياسية التى قامت فى القرنين الثامن والتاسع عشر، و هنا برزت قضية النظام العام **social order** فى المجتمع باعتبارها قضية ذات أهمية حاسمة فى الحياة الاجتماعية، و لا تزال هذه القضية مثارا لاهتمام أصحاب النظريات فى علم الاجتماع منذ ذلك الوقت وحتى الوقت الراهن.[٢٠] كما كان للثورة الصناعية عموما أثرها فى تشكيل نظرية علم الاجتماع، و لم تكن الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر واقعة مفردة بل كانت مجموعة مترابطة من التطورات التى أدت الى تحول المجتمع الغربى من مجتمع يسوده الطابع الزراعي الى مجتمع تغلب عليه سمة النسق الصناعي مما أدى الى ترك العمال الزراعيين للزراعة و سعت للعمل فى الصناعة، كما حدث فى إطار هذا النظام نوع من التفاوت الاجتماعى حيث أفادت منه فئة قليلة فازدادت ثراء و ربحا بينما ظلت الأغلبية تعانى من قلة الدخل من الطبقة العاملة مما أسهم ذلك فى ظهور حركات راديكالية مما انعكس على وجود مظاهر من الاضطراب فى المجتمع الغربى و لا شك ان هذه الظروف الاجتماعية تفسر الاهتمام الرئيسي الذى سعى إليه علماء الاجتماع كونت، ودوركايم، و فيبر فى البحث عن الكيفية التى يستطيع من خلالها ان يستبدل الفوضى و الاضطراب بالنظام، و ان يعيد بناء المجتمع بأسره من جديد، خاصة و انه ليس هناك ترتيب مناسب للنظم يتوافق مع التغيرات الجديدة و السلوك الاجتماعى للجماهير غير محكوم بقواعد منظمة و موجهة توجيها غير صحيح ايضا، هذا فضلا عن ان الفكر الانسانى ايضا أصبح فكرا قاصرا عن ملاحظة التغيرات و الديناميات الاجتماعية الجديدة، و لقد نجم عن ذلك مباشرة التعارض بين الاعتقاد و المعرفة و إذا كانت المشاعر الإنسانية تعدم التكامل و الثقة، و تخلو من الأهداف و تحتاج الى الموجهات الأخلاقية الصحيحة نحو الفضائل، فإن ذلك

(٢٠) حكمت العرابى، النظريات المعاصرة فى علم الاجتماع، ط١، الرياض، مطابع المرزوقة التجارية، ١٩٩١،ص ص ٣٤- ٣٥.

يبرر حاجة النظام الاجتماعي السياسي إلى قواعد جديدة يرتكز عليها التغيير المنشود في المشاعر و الفكر و السلوك و الذي سيتوافق مع المجتمع الصناعي الجديد، و لعل أهم ركيزة لهذا البناء الجديد هي المعرفة الاجتماعية الثابتة التي تحدد معالم و مقومات المسئولية الإنسانية، فلم يعد من الممكن العودة مرة ثانية إلى اللاهوت و الميتافيزيقا و إنما يجب ان يعرف الإنسان على وجه الدقة المسئولية الاجتماعية التي عليه ان يضطلع بها إزاء مجتمعه و أصبح يوجد مجموعة من القيم الجديدة التي سوف تحدد هذا الدور الجديد للمواطنة في المجتمع الغربي.[٢١] و لاشك ان هذه الظروف السائدة في المجتمع الغربي وما صاحبها من مظاهر عديدة للاضطراب و الفوضى آثار واضحة في تكوين نظرية علم الاجتماع، قائمة على نسق من المعرفة العلمية الصحيحة الخاصة بالإنسان و بالمجتمع البشري.

(٢) التغيرات الدينية:

لقد أثرت المتغيرات المجتمعية التي أوجدتها الثورات السياسية و الصناعية وعملية التحضر، تأثيرا واضحا في ظاهرة التدين عند الناس، و كان كثير من علماء الاجتماع الرواد يتمسكون بالعقائد و الشعائر الدينية، لان الأصول التي نشأوا في ظلها كانت تحض على ذلك، بل كان بعضهم من رجال الدين و دارسيه، ولهذا تجسدت أهداف الدين و قيمه، و شكلت أفكار رواد النظرية في علم الاجتماع فكلهم سعوا إلى تحسين طابع حياة الناس و رفع مستوى هذه الحياة و كلهم أفردوا اهتماما خاصا بتحليل الدين، فمنهم أوجست كونت الذي أراد أن يتحول علم الاجتماع إلى دين تؤمن به الإنسانية كلها أطلق عليه "دين الإنسانية " **religion of humanity** ينهض على أسس منهجية جديدة، يهدف إلى تحقيق غايات و مثل أخلاقية واجتماعية، من أجل إحداث التوازن الاجتماعي المطلوب والإصلاح الاخلاقي الذي سيعيد للمجتمع وحدته وتماسكه. و منهم دوركايم **Durkheim** الذي كان الدين موضوعا لواحدا من أهم مؤلفاته "الصور الأولية للحياة الدينية والذي أكد على أن الأفكار والممارسات الدينية إنما تشير أو ترمز إلى الجماعة الاجتماعية، فالرموز الدينية تشير إلى الواقع الاخلاقي للمجتمع و أن الوظيفة الأولى للدين هي خلق وتدعيم التضامن

---

(٢١) محمد على محمد، تاريخ الفكر الاجتماعي (الرواد والاتجاهات المعاصرة)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٨، ص ص ٨١- ٨٢

الاجتماعي، وسوف يبقى الدين ببقاء المجتمع، كما يقرر دوركايم ان التصورات الدينية هى تصورات جمعية تعبر عن الحقائق الجمعية، والطقوس هي طريقة للسلوك تتسبب فى حالات عقلية معينة، ان الحياة الدينية هى التعبير الصريح للحياة الجمعية،وان فكرة المجتمع هي روح الدين، والقوى الدينية هي فى الحقيقة قوى إنسانية وقوى أخلاقية.(٢٢) و بالتالي فقد لعبت القيم الأخلاقية المستمدة من الدين دورا أساسيا فى نظرية علم الاجتماع عند دوركايم و عند تالكوت بارسونز **Parsons** بعد ذلك، و كانت النظم الدينية فى أجزاء العالم المختلفة موضوعا لقدر كبير من دراسات ماكس فيبر **weber** و بخاصة فى دراسته الذائعة الصيت عن الأخلاق البروتستانتية و روح الرأسمالية التي أثارت اهتمام الباحثين فى ميادين الاقتصاد و التاريخ و الاجتماع جميعا و التي حاولت الإجابة على التساؤل التالي: إلى اى مدى تؤثر التصورات الدينية عن العالم و الوجود فى السلوك الاقتصادي لكافة المجتمعات؟ وقد أجاب فيبر على ذلك بأن الرأسمالية الحديثة نشأت من خلال العقيدة البروتستانتية و أخلاقيتها الاقتصادية، فروح الرأسمالية هى نفسها روح العقيدة البروتستانتية بما تتضمنه من سلوك و أخلاقيات عملية، و لقد وجدت الأخلاقيات الاقتصادية فى نطاق الديانة البروتستانتية، فروح الرأسمالية ظهرت قبل ان تظهر الرأسمالية ذاتها خاصة ان العقيدة البروتستانتية تهتم اهتماما بالغا بتنشئة الفرد تنشئة عقلية، وهى تمنح المهنة قيمة أخلاقية كبيرة، كما أنها تقدس العمل، بل و تعتبر ان تأدية العمل بحماس واجب مقدس، كما تعتبر ان جمع المال بطريقة شريفة نشاطا ذكيا.(٢٣) كما اهتم ماركس أيضا بالدين و لكن اتجاهه كان نقديا و هجوميا على الأديان بعضها مخدرة للشعوب

(٣) اتساق نطاق العلم و التحضر:
urbanization and scientific growth

لقد شهد القرن التاسع عشر انفجارا حضريا كبيرا فى المجتمع الاوربي، حتى أن بعض العلماء و المفكرين قد وصفوا هذا القرن بأنه عصر التحضر و كانت الثورة الصناعية هى السبب الرئيسي فى هذا التغير البارز نتيجة لتغير نظام

(٢٢) محمد على محمد، مرجع سابق، ص ٢١٨

(٢٣) نفس المرجع السابق، ص ٣٢٨

المصنع فى المدن و الزيادات اللاحقة فى الإسكان و المال التجارية ووسائل النقل، انتقل عدد كبير و متزايد من السكان الريفيين إلى البيئة الحضرية، و لكن تلك الأوضاع أوجدت مشكلات عديدة واجهت المهاجرين الذين كان من اللازم لاستقرار حياتهم أن تتحقق لهم القدرة على التكيف مع أوضاع الحياة الحضرية علاوة على ذلك أدى التوسع العمراني للمدن إلى كثير من المشكلات الحضرية كالازدحام و التلوث و الضوضاء و قلة فرص العمل مما جعل الشوارع ذاتها عديمة النظام.(٢٤) و هكذا فقد صاحب التغيرات الاجتماعية التي سبق ذكرها اتساع نطاق الاهتمام بعملية التحضر من قبل رواد علم الاجتماع، كما تزايد الاهتمام بالعلم و بالمنهج العلمي و قد حاول الكثير من علماء الاجتماع أن يضعوا أسس النظرية و المنهج فى علم الاجتماع إقتداء بالنموذج الناجح الذي تحقق فى العلوم المتقدمة و لكن سرعان ما ظهر اتجاه فكرى آخر فى علم الاجتماع يعارض الاتجاه الذي يدعو إلى محاكاة العلوم الطبيعية مشيرا إلى أن الحياة الاجتماعية لها خصائصها المتميزة مما يجعل استخدام النموذج فى العلوم الطبيعية أمرا صعب المنال و لهذا ظل الجدل حول العلاقة بين علم الاجتماع و العلوم الطبيعية قائما حتى يومنا هذا، و قد أدى اتساع نطاق العلم الى نشأة العقلية العلمية التى تتضمن فى ذاتها بعدين أساسين هما:

أ- اتجاه جديد للنظر الى العالم.

ب- أساليب جديدة للحصول على المعرفة بهذا العالم.

أما الاتجاه الجديد فيستند الى إحلال قيم العلم محل القيم الدينية و أما الأساليب الجديدة فقد تمثلت فى جمع المعطيات الواقعية و تحليلها لتكون مصدرا رئيسيا للحق و المعرفة بدلا من ان يكون هذا المصدر مستندا الى الإيمان بالمعطيات الدينية التى ترد فى الكتب المقدسة او ان يكون مصدر المعرفة قائما على التقاليد المستقرة وقد أطلق مسمى الوضعية **positivism** بوصفها دين الإنسانية الجديد على هذا الاتجاه الفكري. كما شاهد القرن التاسع عشر اتساع نطاق استخدام المنهج العلمي **scientific method** فى كل مجالات الحياة سواء كانت هذه المجالات المادية، أو الحيوية أو الاجتماعية فقد استخدم المنهج العلمي

(24) Spates، J. L.،and Macions, J.، The sociology of cities، stmarlin's press, N. Y،. 1982, P.28

فى البداية فى الفيزياء و الفلك ثم بع ذلك استخدامه في العلــوم البيولوجيــة ثــم ظهرت الدعوة بعد ذلك لدراسة المجتمع الانسانى(٢٥).

(٤) العناصر الفكرية:

intellectual etements

لقد استمدت النظرية فى علم الاجتماع تطورها من مجموعة من العناصر الفكرية المتطورة، فى هذا العصر و بخاصة تلك المجموعة من القيم التي تعكــس مراحل متباينة من انتقال المجتمع و تحوله تجاه عملية التصــنيع، فلقــد تــأثرت النظرية المبكرة بفلسفة حركة التنوير التي تؤكد على النزعــة الطبيعيــة و علــى العقلانية **Rationality** وعلى المماثلة العضوية **organic** وكانــت الفــروض المتعلقة بالطبيعة الإنسانية احد دعامات نظرية الصراع الماركسية، وكانت الصلة واضحة بين أنساق الفكر المبكرة فى علم الاجتماع صلة واضحة، و فى اللحظــة التي سيطرت فيها روح البراجماتية والتطبيق المصاحب للمــنهج علــى الموقــف الفكري و خاصة الامريكى، ترجمة فلسفات مبكرة مثل الاهتمــام بالرشــد إلــى البرجماتية العلمية، و قد ترتب على ذلك التحول نحو نظرية نفسية اجتماعية مــع الاهتمام بالوحدات الصغرى.و بالتالي كانت للبيئة الفكرية التي تحــيط بأصــحاب النظريات، أثرا واضحا على أعمالهم، كما أثرت أيضا استجابة قرنائهم المفكرين و بخاصة تشجيعهم و دعمهم و تأييدهم على تفكيرهم سواء كانت هذه البيئة مؤيدة او ناقدة مما نجم عنه أنماط فى التفكير جديدة و متغيرة، وكانت المشاركة مع مفكرين آخرين و الدعم الاكاديمى و الاقتصادي من جانب الجامعات الأكاديمية كــان لــه أهمية خاصة فى إثارة أصحاب النظريات العلمية.[٢٦] و الجــدير بالــذكر هنــا أن النظرية فى علم الاجتماع قد استمدت أسسها المنطقيــة مــن الفلســفة، و مادتهــا الواقعية من التاريخ، و نموذجها المنهجي من العلوم الطبيعية، و لتوضيح ذلك لابد من الإشارة إلى أن علم الاجتماع قد اخذ وجهات نظره الأولى من الفلســفة، كمــا أخذ منها كذلك الأساس المنطقي للبرهان العقلي ففي أحضان الفلسفة نشأ التنظيــر السوسيولوجي و عندما أصبحت النظرية الاجتماعية مســتقلة ظلــت فــى نســقها المفهومى و رؤيتها شديدة الاعتماد على الفلسفة، ومرتبطة أوثق الارتباط فى كــل

(٢٥) حكمت العرابى، مرجع سابق، ص ص ٣٩- ٤٠.

(٢٦) على جلبي، مرجع سابق، ص ٤٣.

مراحل تطورها – صعودا و هبوطا – بالرؤية الفلسفية او الأطر النظرية العامة التي تفلسف لها رؤيتها للوقائع التي تتناولها و أسلوبها في تفسير تلك الوقائع و ما يعتريها من تغيرات، و لاشك أن تلك الرابطة بالنظرية كانت في العلوم الاجتماعية أقوى منها في العلوم الطبيعية و إذا استخدمنا عبارة باشلار في وصف هذا الفارق بين المجالين، قلنا أن الفلسفة التي كان العلماء الاجتماعيون يمارسونها أثناء النهار، كانت أكثر انغماسا في الفلسفة التي كان يبدعها فلاسفتهم أثناء الليل.[٢٧] و لقد ظلت الفلسفة شاملة في نطاقها لمجموعة من الأفكار التي انفصلت عنها بعد ذلك لتؤلف العلوم الخاصة، لكن إذا كان البرهان العقلي أساسا صلبا لبناء عملية الفكر الانساني، فإن البرهان العقلي وحده لا يكفي لإقامة العلم و لهذا نستطيع ان نقول ان البرهان العقلي كان واحدا من الخطوات الأساسية نحو الوصول الى أساس علمي لصياغة النظرية في علم الاجتماع، كما ان علم الاجتماع بوصفه علما يتناول الواقع الاجتماعي في حاجة إلى مجموعة من الحقائق عن المجتمع و العلاقات الاجتماعية و الثقافية الإنسانية ليقيم على أساسها دعائم أفكاره و نظرياته، فإن علم التاريخ و خاصة التاريخ الوصفي هو الدراسة التي استمد منها علم الاجتماع ونظرياته تلك الحقائق عن الوقائع و الأحداث الاجتماعية و الثقافية، و لقد زود التاريخ الوصفي علم الاجتماع بقدر هائل من المعطيات الموضوعية الاجتماعية التي ظلت لفترة طويلة من الزمن المعطيات الوحيدة الميسورة أمام الباحثين في علم الاجتماع وواضعي النظريات في هذا العلم. و قد كان من اللازم لظهور العلم ان يوجد بناء منهجي يفي بالحاجات التي تتطلبها المعرفة التجريبية بحيث يمكن ان يكون هذا البناء المنهجي المنظم أساسا للعلوم التجريبية و منها علم الاجتماع كما كان البرهان العقلي أساسا للفلسفة، و لقد أمكن الوصول إلى البناء المنهجي للعلوم التجريبية في إطار الأعمال التي قام بها رجال الفن في عصر النهضة حيث أمكن تطبيق المنهج التجريبي المستند إلى المشاهدة المنظمة و استخدام التجربة على كل مشكلة علمية صادفت هؤلاء، و في إطار هذه الفترة أرسيت العلوم الطبيعية على أساس منطقي و منهجي منظم وأصبح إمكان قيام علم اجتماعي أمرا ظاهرا في أعمال فرانسيس بيكون قبل نهاية عصر التنوير و لقد كان تقدم العلوم الطبيعية و البيولوجية و ما أحرزته تلك العلوم من تقدم في مجالات الدراسة المختلفة حافزا مشجعا إلى قيام الدعوة إلى تطبيق المنهج العلمي

(٢٧) محمد الجوهري، مرجع سابق، ص ص ٤٣-٧٤.

في دراسة المجتمع و ظواهره، و قد ظهرت آراء واضحة لتحقيق ذلك خلال القرن التاسع عشر.[٢٨] لكن السؤال الذي يطرح نفسه بعد عرض الظروف المجتمعية و الفكرية لنشأة النظرية الاجتماعية و تطورها فى علم الاجتماع هل مـــن الممكـــن الوصول إلى نظرية اجتماعية شاملة فى ميدان علم الاجتماع؟ فى الواقـــع حـــاول عالم الاجتماع الامريكى رايت ميلز فى كتابه الخيال السوسيولوجي ان يوضح فى هذا السياق ان هذا العلم يوجد به انقسام بين المعرفـــة الامبيريقيـــة مـــن جهـــة و المعرفة العقلية من جهة أخرى وعدم تكامل بينهما، فهناك علماء يتجهون إلى جمع بيانات عن الحياة الاجتماعية دون توجه نظري او الاسترشاد بنظرية عامة بينمـــا يوجد فريق آخر من علماء الاجتماع يتجهون إلى التحليق فـــي ســـماء الفكـــر و صياغة نظريات عامة مجردة عن المجتمع دون ان تعتمد على وقـــائع و بيانـــات ميدانية تحت ملاحظتها و التأكد من صحتها، و أطلق ميلز على أصحاب الفريـــق الأول مسمى التجريبية المجتزأة و على أنصار الفريق الثاني أصحاب النظريـــات الكبرى، و بين ميلز عقم الاتجاهين و كيف ان كلا منها يؤدى إلى عرقلة نمو علم الاجتماع و يعوق الوصول إلى الفهم العلمي السليم للظواهر الاجتماعية، و بالتالي فإنه إذا كان أي علم من العلوم يتصف بالوحدة بين الجانبين الحسي و العقلي فـــإن هذا الانقسام الواضح فى علم الاجتماع إنما يدل على أنه لـــم يبلـــغ فـــى الواقـــع المستوى المطلوب و أن نظرياته التى لا تدعمها الحقائق لاتزيد عن كونها تأملات فكرية و لا ترقى إلى مستويات النظريات العلمية.[٢٩] لكن يجب ألا يتبـــادر فـــى أذهاننا ان هناك استحالة فى الوصول إلى نظريات اجتماعية علمية فى ميدان علم الاجتماع، فذلك ممكن تماما لان الظواهر الاجتماعية التى يدرسها هذا العلم ظواهر طبيعية اى توجد فى الطبيعة و يمكن إخضاعها تماما للدراسة بالمنهج العلمـــي و بالتالي يمكن الوصول إلى القوانين التى تحكمها أو صياغة نظرية شاملة عنها.

و بعد هذه المقدمة التمهيدية التى لابد منها كي يستطيع القارىء ان يفهـــم مضمون النظرية والوظائف التي تقوم بها و تصـــنيفاتها الأساســـية و الظـــروف المجتمعية و الفكرية التى ساهمت فى نشأتها و تطورها، فإن هذا الكتاب المتـــرجم يقيم بين دفتيه عشرة فصول بالإضافة إلى هذه المقدمة الهامة.

---

(٢٨) حكمت العرابى، مرجع سابق، ص ص ٥٠-٥٢.

(٢٩) سمير نعيم أحمد، مرجع سابق،ص ص ٣٧-٣٨.

ويتناول الفصل الأول ثلاثة أنواع مميزة للنظرية و هي نظريات الاتفاق **consensus** و نظرية الصراع **conflict** و نظرية الفعل **action** و التي تركز كل واحدة منهم على المصادر الاجتماعية للسلوك البشرى، و يطرح فيه فيليب جونز تفرقة مفيدة بين هذه النظريات حيث تؤكد نظرية الاتفاق او الإجماع على الدور المحوري الذي يلعبه الاتفاق بين الناس على القيم الأخلاقية في المحافظة على النظام الاجتماعي، هذا من جانب، ومن جانب آخر تؤكد نظرية الصراع و نظرية الفعل الاجتماعي على الصراع بدلا من الاتفاق في المجتمع، ومن الملامح المميزة للنظريات البنائية أنها تسعى إلى التفسيرات العلمية للسلوك الاجتماعي، و يعلمنا جونز ان مناقشة النظريات ينتج عنه فائدتان هما – ان تقوم بدور المقدمة للمناقشات النظرية فى علم الاجتماع.

أن تقوم بدور نقاط الإشارة للحكم على عمل المنظرين في هذا الموضوع و مقارنتهم ببعضهم البعض. و يناقش الفصل الثاني الوظيفية (دوركايم) بالإضافة إلى إسهامات رواد هذه النظرية من أمثال مالينوفسكي و راد كليف براون و أيضا تر بريتشارد و مير فورتس و ماكس جولكمان علاوة على الى إسهامات تالكوت بارسونز و روبرت ميرتون وكيجزلي دافيد و الذين يؤكدون على ان المجتمع يعمل بطريقة مماثلة لقيام الكائن الحي بوظائفه، ويشار إلى هذه المقارنة بالمماثلة العضوية ومن فإن النظم الاجتماعية تقوم بأداء وظائفها معا من أجل مصلحة المجتمع ككل كما يرى الوظيفيون ان النظام و التوازن طبيعيان فى المجتمع، و بالتالي يؤكدون على ان أساس التوازن هو وجود إجماع أخلاقي بين أفراد المجتمع، لذا فان المجتمع يشكل الفرد من خلال تأثير مؤسساته مثل الأسرة و المدرسة و مكان العمل مما جعل هذه النظرية تتعرض لانتقادات عدة من أهمها التصور المفرط للطبيعة الاجتماعية للكائنات البشرية و المبالغة الممقوتة فى دور الإجماع و الفصل الزائف بين البناء و النسق و الغائية. و يعرج الفصل الثالث على النظرية الماركسية (ماركس) التى تؤكد على فكرة الصراع و التركيز على عملية الإنتاج و على العلاقات الاقتصادية، و تعد الخاصية المميزة للماركسية هى وجهة النظر المرتبطة بالنشاط الاقتصادي حيث أنها تمثل المعماري الذى يقوم برسم و تصميم الملامح الأخرى للحياة، كما اهتم هذا الفصل بعلاج المادية التاريخية من حيث نموها و تطورها فى أصولها و إطارها التصوري و بناؤها الفرضي، وظهور نماذج جديدة منها مثل الماركسية الإنسانية **humanist marxism** والتى يمثلها انطونيو

جرامشي و أعضاء مدرسة فرانكفورت (المدرسة النقدية) و الماركسية البنائية و التى ارتبطت أساسا بإسهامات العالم الفرنسي لويس ألتوسير. و تتلخص أهم الانتقادات الموجهة إلى الماركسية فى الاعتقاد بحتمية ثورة البروليتاريا و تشديد التأكيد على الصراع والفجوة بين المثاليات و الواقع. أما الفصل الرابع فيناقش إسهامات ماكس فيبر فى تأسيس نظرية الفعل التى اهتم فيها بنظريات الفاعل من خلال دوافع الفعل الموجهة غائيا و التى ركز فيها على المعنى الخاص بالتفاعلات الخاصة بين الأفراد كما عرض لأنماط الفعل و هى الفعل التقليدي و العاطفي و الموجهة قيميا و أخيرا الفعل العقلاني او الهادف ثم عرض لأهم أنماط السلطة و النماذج المثالية و العلاقة بين الدين و الرأسمالية و العقلانية او الرشد. لكن ماكس فيبر لم يوفق فى تحقيق المهمة العسيرة بدمج الذات و البناء معا، و تأرجح بينهما مما جعل أعماله تتجه أكثر نحو علم الاجتماع البنائى فى حين ان مقصده كان محاولة تطوير علم اجتماع الفرد او علم اجتماع المعنى الذاتي. و يناقش الفصل الخامس النظرية النسوية **feminist** تلك التى بنيت نفسها على جوانب مهمة من رؤية الصراع و مع هذا فإنها تأثرت بالحاجة إلى التكامل الاجتماعي الذى دافع عنه الوظيفيون، و يرى علماء النسوية فى الفروق النوعية **gender** انعكاسا لخضوع جماعة ما (النساء) لجماعة أخرى (الذكور) و اعتمادا على أعمال ماركس و انجلز ينظر أصحاب النسوية المعاصرون الى خضوع النساء باعتباره من موروثات ثقافة المجتمعات الرأسمالية، كما يرى أنصار النسوية الراديكالية ان اضطهاد النساء حتمي فى جميع المجتمعات التى يهيمن عليها الرجال، ومنها المجتمعات التى نسميها رأسمالية أو اشتراكية. و يخصص الفصل السادس لنظريات علم الاجتماع التفسيري **interpretive** و خاصة التفاعلية الرمزية **symbolic interaction** من حيث بدايتها المنطقية و إطارها التصوري و بناؤها الفرضي الذى يركز على التفاعل بين الذات و المجتمع و كيفية بناء تصور الذات من خلال ما يسمى بالانعكاس الذاتي **self- refletive**و ما طرحه جوفمان عن ان الحياة الاجتماعية هى عملية تمثيل حيث ان الذات لا فحوى لها غير ما هو متوقع منها فى مواقف مختلفة، و نحن لدينا من الذوات بقدر ما هنا لك من مناسبات و مواقف مختلفة و ما طرحه جوفمان عن ما يسمى بالمنظور المسرحي اى ان الأدوار التى نقوم بها هى بمنزلة نصوص مكتوبة نقوم بتمثيلها، كما انبثقت عن التفاعلية الرمزية ما يسمى بمنظور التسمية **labeling** و التى تهتم أساسا بأن الناس فى بعض الأحيان يكونوا ضحايا لتفسيرات

الآخرين عنهم كما طرح أدوين ليمرت فكرة جنون الاضطهاد او العظمة و هى حالة عقلية يعانى الفرد من الشعور بالمعاناة من خلال مؤامرة مدبرة له بإحكـــام و هـــى نتيجة تعثر الفرد فى علاقاته الاجتماعية بالأفراد و الآخرين، كما أشارت النظريـــة بان علاقات التسمية قائمة على علاقات السلطة او القوة لذا فقد طرحت هذه النظرية أسئلة هامة ليست تتعلق بكيف أصبح هؤلاء الناس على ما هم عليه؟ و لكن لماذا تـــم تسمية هؤلاء الناس هكذا و ليس غيرهم؟ او لماذا يكون هؤلاء الناس ضـــحايا هـــذه التسميات و ليس غيرهم؟ لكن يعاب على هذه النظرية أنها لم تهـــتم اهتمامـــا كافيـــا بالقضايا الكبرى (الماكرو) المرتبطة بالقوة و البناء، على الرغم مـــن تأكيـــد هـــذه النظرية على التفاعل بين الذات و المجتمع، فعلى سبيل المثال لم تكـــن مســـألة اى جماعة هى التى تحكم المجتمع مسألة محورية للتفاعلية إلا ان التفاعلية استطاعت ان تنفذ بإقتدارالى فهم تفاصيل عملية التفاعل بين المعلم و الطالب ووصم بعض الأفراد بالانحراف فى إطار ما يسمى بنظرية او منظور التســمية. كمـــا تعـــانى النظريـــة التفاعلية من نزعة تفاؤلية ليبرالية سطحية من خلال الاعتقاد بـــان التســـليم بحريـــة التفاعل و التعلم من خلال الخبرة سوف يساعد الناس للوصول الى نتائج عقلانيـــة و إنسانية و من ثم يؤسسون مجتمعا عقلانيا و إنسانيا متقدما.و يخصص الفصل السابع للغة و الحياة الاجتماعية فى إطارها النظرية البنيوية و ما بعد البنيوية و النسبية و ما بعد الحداثة. من خلال التركيز على تحليل لغة الخطـــاب بوصـــفه يمثـــل الوســـائل الرمزية الأساسية و التى يعنى بها الأعضاء النظام فى المواقف الاجتماعية، عـــلاوة على ذلك تؤكد على ان الفكر يعتمد على اللغة حيث انه لا يمكن الحصول على فكرة او مفهوم إلا إذا تعلمنا ماذا يطلق عليها، لان الأفكار نفسها اجتماعية فى الأصل، لذا فانك تتعلم مفهوم الألم عندما نتعلم اللغة، كما اهتم هذا الفصل يعرض اسهامات ليفى ستروس فى ان اللغة تنشأ فى العقل البشرى اللاواعى و إسهامات فوكو فيمـــا بعـــد البنائية و التى يرفض فكرة ان هناك سمات عالمية تدعم اللغات، و لكنه مهتم بشـــكل اساسى باستخدام السلطة او القوة فى إنشاء و استخدام اللغة و أننا يمكننـــا الوصـــول الى الحقيقة من خلال تحليل ما يسمى بلغة الخطـــاب ثـــم طـــرح فكـــرة النســـبية **relativists** التى ترى انه لا يوجد شيء يسمى حقيقة موضوعية، لذا فان أنصـــار النسبية يرون انه لا يمكننا ان نهرب من حقيقة ان ما نحن عليه وما نعرفه هو خلـــق اجتماعي، ومن وجهة النظر هذه فنحن حتما مكبلون او مقيدون فى لغـــة الخطـــاب بقوانين الزمان و المكان لان المعايير التى نحكم بها على الحقيقة او الخطـــأ تكـــون

نفسها عبارة عن بناء اجتماعي قدمت إلينا من خلال عالمنا الاجتماعي او واقعنا الاجتماعي الذى نعيش فيه.و يهتم الفصل الثامن بقضايا النظرية، و المعرفة و التفسير بالتركيز على المنهجية **methodology** بوصفها الأساليب و المستويات المختلفة لاكتساب المعرفة، كما فرق بين المنهجية التى تشير إلى عملية إنتاج المعرفة و المنهج أو الطريقة التى تشير إلى الأدوات و الوسائل النوعية لاكتساب المعرفة، و يعرض لأهم وسائل جمع البيانات مثل المقابلة شبه المقننة و المقابلة المفتوحة او غير المحددة، و الاستبيان و أسلوب العينة، و الجماعة البؤرية، و الملاحظة بأنواعها المختلفة، الاثنوجرافية أو الكيفية و الملاحظة عن طريق المشاركة و الملاحظة بدون مشاركة و الملاحظة العلنية و غير المعلنة، و الملاحظة التى تتم بشكل مرئي او الملاحظة المسجلة الكترونيا و أخيرا التجربة. فضلا عن تحليل المضمون و الوثائق و التحليل الثقافي و الأساليب التفكيكية **deconstruction** التى تستخدم المنهج الجدلي ما بعد البنائى الذى يوضح كيفية استخدام اللغة و تحليل النصوص المستخدمة للوصول إلى المعنى الذى يريده المؤلف. كما عرج هذا الفصل على نظريات المعرفة و الوجود **-ontology** **epistemology** و الافتراضات التى تقوم عليها تلك النظريات. ويعرج الفصل التاسع على علم الاجتماع و العلم من خلال مناقشة الحداثة و العلم و الوضعية و علم الاجتماع، من حيث الأسس المعرفية و الانطولوجية و المنهجية و التركيز على علم الاجتماع الوضعي الذي يرى أن مناهج العلم الطبيعي قد حققت نجاحات ملموسة تعد مناسبة لدراسة الظواهر الاجتماعية و من ثم فان مناهج علم الاجتماع الوضعي تركز على التجربة **excrement** والملاحظة **observation** و المسح **survey** و في المقابل يناقش الفصل ايضا علم الاجتماع التفسيري من حيث الأسس الانطولوجية و المعرفية و المنهجية و التى تختلف تماما مع المناهج الوضعية فإذا كانت الوضعية ترى ان العلم يجب ان يفسر الحياة الاجتماعية بسبب التشابه بين المجتمع و الطبيعة، إلا ان أنصار النظريات التفسيرية (الفعل) يرون عكس ذلك تماما لان الحياة الاجتماعية ليست مثل الطبيعة على الإطلاق و يرون ان على علم الاجتماع ان يتجاهل أي محاولة علمية فى هذا الاتجاه، ومن ثم فإنهم يستخدمون مناهج الفهم بالاعتماد على المقابلات المتعمقة و الملاحظة بالمشاركة أو الاثنوجرافية و المنهجية الشعبية و تحليل اللغة و المحادثة، منتهيا باستخلاص عن العلاقة بين النظرية و المنهج فى البحث التفسيري و الوضعي.و أخيرا يأتي الفصل العاشر

ليعرض لأهم التطورات الحديثة فى النظريات الاجتماعية و الممارسات البحثية مثل التعددية **triangulation**، والبنائية و التحليل الثقافى و البحث مـا بعـد البنـائى، والنسوية ما البنائية، والبحث النسوى، و البحث الاجتماعي كمشرع سياسي.

ولا شك ان الموضوعات التي يتناولها هذا الكتاب ذات أهمية كبيرة فـى مجال النظرية فى علم الاجتماع نظرا لأنه حاول ان يقرن ما بين النظرية والمنهج بشكل واضح ومحدد وهذا ما أكد عليه بولدنج من ان تقدم علم الاجتماع يعتمد على التفاعل ما بين نمو النظرية وقدرتها على إعادة تكوين صورة المجتمـع، وتطـور أساليب البحث وطرائقه، هذا من ناحية و من ناحية أخرى ان هذا الكتاب حاول ان يعرض الاتجاهات الأساسية فى النظرية الاجتماعية من خلال تتبع تطورها الفكري منذ نشأتها حتى وصلت إلى مراحلها المتطورة فى ثوبها الجديد من خـلال إلقـاء الضوء على إسهامات منظري كل اتجاه و ضرب بعض الأمثلة بالدراسات التـى قام بها فى سبيل توضيح المنطلقات النظرية و المنهجية معا. ولكل هذه الاعتبارات حاولت ان أقدم للمكتبة العربية هذه الترجمة، أسأل الله أن ينفـع طـلاب العلـم و الباحثين بما جـاء بموضـوع هـذا الكتـاب والمسـاهمة فـى فهـم النظريـة الاجتماعية."وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين".

المترجم:

أ.د. / محمد ياسر الخواجة

الفصل الأول

مقدمة في النظريات الاجتماعية

مقدمة:

ان البشر كائنات اجتماعية و سواء بإرادتنا أو بدون ارادتنا فتقريبا كل ما نقوم به فى حياتنا يحدث فى وجود الاخرين، والقليل من نشاطتنا هى التى تحدث بشكل منعزل ونادرا ما نكون بالفعل منفردين، لذا فان دراسة كيفية القدرةعلى التفاعل مع الاخرين (مع بعضنا البعض) ودراسة ما يحدث عندما نتفاعل من شأنها أن تكون أحد الأهتمامات الجوهرية لأى شخص يهتم بالحياة الإنسانية.

وقد يبدو غريبا أن من حوالى بداية القرن التاسع عشر فصاعدا لم يكن اهتمام الشخص المتخصص فى الجانب الأجتماعى للوجود الإنسانى شئ حديث نسبيا ولكن كان يتم التعامل معه بشئ من الألفة بمعنى أنه شئ مألوف.وقبل ذلك الوقت فهناك أنواع أخرى قد سيطرت على تحليل الحياة الأنسانية.ومن أهم الأتجاهات مرونة من حيث الدراسة كانت التفسيرات الطبيعية "و التفسيرات الفردية "الخاصة بالسلوك الإنسانى.

وبدلا من النظر الى السلوك الإنسانى على أنه ناتج التفاعل فان تلك النظريات قد ركزت على الصفات المتأصلة داخل الأفراد .فمن ناحية تفترض التفسيرات الطبيعية أن كل السلوك البشرى متضمنا التفاعل الاجتماعى – هو ناتج ترسيبات مورثة نمتلكها نحن كالحيوانات فاننا– مثل الحيوانات – مبرمجين بيلوجيكيامن قبل الطبيعة. وعلى صعيد آخر، فإن التفسيرات الفردية ترفض الانقياد لمثل تلك القواعد العريضة الخاصة بحتمية السلوك. ومن وجهة النظر هذه فإننا ككل "فرديين" ومختلفين. لذلك فتفسيرات السلوك البشرى يجب أن ترتكز دائما على الصفات النفسية الخاصة و الفريدة للأفراد. والنظريات الاجتماعية هى النقيض المباشر لتلك الأتجاهات(المداخل) "غير الاجتماعية". وبتدقيق النظر اليها واكتشاف ما هو خاطئ وغير تام فيها يجعل من السهولة فهم سبب وجود النظريات الاجتماعية.

والتفسيرات الطبيعية للنشاط البشرى منتشرة بالشكل الكافى.فعلى سبيل المثال فى مجتمعنا غالبا ما يقال إن من الطبيعى بالنسبة للرجل و المرأة أن يقعوا فى الحب و يتزوجوا وينجبوا أولاد. كذلك من الطبيعى لتلك الأسرة النووية المكونة من الأب و الأم و أبنائهم أن تعيش كوحدة مستقلة فالزوج يذهب للعمل ليكسب الموارد للأشخاص الذين يعتمدون عليه، فى حين أن الزوجة على الأقل فى

السنوات الأولى لأولادها تكرس نفسها لعنايتهم حتى تقوم بدور الأم.وعندما يكبرون و يكتسبون استقلالية بشكل أكبر فما زال الأمر طبيعيا للأولاد أن يعيشوا في المنزل مع آبائهم المسئولين عنهم على الأقل حتى أواخر سنوات المراهقة. وبذلك يكون من الطبيعي بالنسبة لهم أن "يتركوا العش"وأن يبدأوا في شق طريقهم في الحياة و بالأخص أن يبحثوا عن شركائهم في الزواج.لذا فانهم أيضا يستطيعون أن يبدأوا أسراً بشكل مستقيم.

والنتيجة الطبيعية لتلك الممارسات الطبيعية هي أنه أحيانا يبدو الأمر غير طبيعي عندما لا يرغب الفرد في الزواج أو حينما يتزوج لأسباب آخرى غير الحب. كذلك فقد يبدو الأمر غير طبيعي للزوجين اذا لم يريدوا انجاب أولاد أو بالنسبة للزوجات اذا لم يريدن أن يكن أمهات أو للأمهات اذا لم يريدن أن يكرسن كل حياتهن لتربية الأطفال و على الرغم من أنه ليس عدلا أو طبيعيا أن يترك الأطفال المنزل وهم تحت سن الثامنة عشرة فبالتأكيد لا يبدو الأمرطبيعيا بالنسبة لهم اذا لم يريدوا أن يتركوا المنزل على الاطلاق ليبدأوا أسرة خاصة بهم.

وعلى أى حال فإن تلك الرغبات و الممارسات غير الطبيعية منتشرة في مجتمعنا بشكل كافي. فهناك الكثير من الناس الذين يفضلون أن يبقوا بدون زواج (أعزب) وأن يتزوجوا وأعينهم على فرصة بعينها. وهناك الكثير من النساء الذين لا يحبون فكرة الأمومة وهناك أيضا عدد من النساء لا يريدون أن يقضوا حياتهم في الأساس في شكل زوجات و أمهات. و هناك الكثير من الأولاد الذين يرغبون في أن يتركوا المنزل قبل أن يبلغوا سن ال١٨بفترة طويلة في حين أن هناك أولاد يشعرون بالسعادة في اقامتهم كأعضاء في بيت الأباء و ذلك لفترات طويلة بعد سن ال١٨. فما سبب ذلك؟ في الواقع اذا كان السلوك البشرى هو ناتج لترسيبات موروثة متأصلة في طبيعة البشر فلماذا تحدث مثل هذه الانحرافات عما هو طبيعي بشكل منتشر؟ ويمكننا بصعوبة أن نفترض أن الوجود العريض لمثل هذه النماذج غير الطبيعية للسلوك يرجع الى نوع خاطئ من البرمجة الوراثية وعلى أى حال،فما السبب في أن هناك متنوعات كثيرة لهذه المفاهيم الخاصة بممارسات الأسرة "العادية " في أنواع أخرى من المجتماعات الإنسانية؟ وقد زودنا كل من التاريخ و الأنثروبولوجيا بتناقضات هائلة في حياة الأسرة. ففي كتابه عن حياة الأسرة في أوروبا الوسطى و الكتاب هو- قرون من الطفولة - ١٩٧٣يرسم فيليب آريز**philippe Aries** صورة للزواج والأسرة و تربية الطفل والتي يبدو في

تناقض واضح مع مفاهيمنا عن الشكل الطبيعى والعادى لهذه الأشياء. ومن ثم فإن الأسر لم تكن، كما هوالآن، وحدات معزولة ولها خصوصية و منفصلة اجتماعيا و منفصلة عن العالم بشكل عام.والأسرلم تكن مندمجة بعمق فى المجتمع حيث أن الناس يعيشوا حياة عامة بدلا من الحياة الخاصة. فإنهم عاشوا فى بيوت تركيبها متحول فالأقارب و الأصدقاء والأطفال و الزوار و المارة و الحيوانات كلهم كانوا ينامون تحت سقف واحد.و الزواج كان فى الأساس يعنى وسيلة لاتحادات مزيفة بدلا من أنه نتيجة الحب، وفى الوقت الذى لم تنظر فيه النساء الى الأمومة كمصيرهم الوحيد.وفى الواقع كانت تربية الطفل شئ غير مطلوب و كانت مهمة شاقة أكثر من وقتنا هذا. وهناك الكثير من الناس من الاقارب و المجتمع ككل يشاركون في تربية الطفل واستمرت الطفولة لوقت أقصر مما هو عليه الآن. و كما يعبر آريز **Aries** عن ذلك بقوله."بمجرد أن يتم فطم الطفل أو بعد ذلك مباشرة فان الطفل أصبح الرفيق الطبيعى للشخص البالغ" وفى المجتمعات غير الصناعية المعاصرة ايضا هناك مجموعة كبيرة من المتغيرات فى ممارسات الأسرة. ففى هذه المجتمعات كذلك يكون الزواج فى الأساس يعنى بتأسيس اتحادات بين المجموعات بدلا من أن يكون علاقة بين أفراد. والزواج من امرأة واحدة فقط – زوج واحد و زوجة واحدة هو شكل واحد من أشكال الزواج – وتعدد الزوجات الزواج بين زوج واحد و أكثر من امرأة و تعدد الأزواج الزواج بين زوجة واحدة وأكثر من رجل يوجد فى كثيرمن المجتمعات.

والحياة العائلية (المنزلية) تأخذ شكلا عاما وأكثر ارتباطا عنها فى المجتمعات الصناعية. فكل وحدة عائلية هى جزء من مجموعة كبيرة ومترابطة من الأقارب في النسب (الدم) والذين يرتبطون بمكان محلى يكون عادة فى شكل قرية.و كما كان فى أوروبا الوسطى كانت تربية الطفل لا تعتبر هىالمسئوليةالأساسية للأباء وحدهم و لكنها تتضمن عدد كبير من الناس الأقارب وغير الأقارب.

النظريات الفردية Individualistic Theories

وماذا عن التفسيرات الفردية؟ وما هى مدى الفائدة من القول بان السلوك هو ناتج التكوين النفسى للأفراد؟ ان توظيف مثل هذا النوع من النظريات هو شائع للغاية. فعلى سبيل المثال من المعتاد أن يكون النجاح والرسوب فى التعليم مجرد انعكاس للذكاء: أى أن الأولاد الأذكياء ينجحون و الأطفال غير الأذكياء يرسبون.

والمجرمين غالبا ما يتم النظر اليهم على أنهم أناس ذو شخصية معينة وعادة ما يتم النظر اليهم على أنهم أفراد ليس لديهم الوازع الأخلاقى و ينقصهم أى شعور حقيقى بالصواب والخطأ. و الأشخاص العاطلين يتم كذلك إدانتهم (شجبهم) على أنهم "يخجلون من العمل "و أنهم كسالى أو انهم "متطفلين"- أى أنهم أشخاص ليس لديهم كفاءة و لكنهم يحصلون على أشياء دون تقديم شئ. ويتم النظر الى الأنتحار على أنه تصرف من الشخص غير المستقر- فهو تصرف يتم اللجوء اليه،على حد تعبير المحققين فى مثل تلك القضايا،"عندما يتم اختلال توازن العقل".وهذا النوع من التفسيريبدوجذابا لكثير من الناس وقد ثبت أنه تفسير مرن فى النقد الأجتماعى. ولكن بتدقيق النظر فيه يتضح أنه خاطئ بشدة. اذا كان الأتجاه التعليمى هو ببساطة انعكاس للذكاء فما هو السبب فى أن الأطفال القادمين من المنازل التى يعمل أصحابها فى الصناعات اليدوية يتم مقارنتهم بشكل سئ بالأطفال القادمين من منازل الطبقة المتوسطة؟ ويبدو الأمرخاليا من العقلانية اذا افترضنا أن القيام بعمل وظيفة معينة بدلا من الأخرى من المحتمل أن يحدد ذكاء طفلك. ويجب أن يتأثر الأنجاز فى التعليم بطريقة ما بالخصائص الخاصة بخلفية الطفل **Child Background**.

وعلى قدم المساواة،فان الحقيقة التى ترى أن غالبية الناس المقتنعين بالجريمة يأتون من فئات اجتماعية معينة يجب أن تشكل فى نظرية "الشخصية الناقصة "(الشخصية المعيوبة). ومعدل الأقتناع بذلك يكون أعلى عند الذكورالصغار (الشباب) وخصوصا من السود **Blacks** الذين يأتون من الطبقة العاملة أو العاطلين. فهل يمكننا أن نعتقد حقا أن الشخصيات المجرمة من المحتمل أن يرتكزون فى مثل تلك الفئات الأجتماعية؟ وكما هو الحال فى حالة الأنجاز التعليمى فمن الواضح أن الأقتناع بالمجرمين يجب أن يتأثر الى حد ما بالعوامل الاجتماعية.

كذلك، فمن المحتمل أن الثلاث ملايين الأشخاص عاطلين او كثير من الناس غير مهتمين بالعمل بالشكل النمطى عندما يتم اجبار الغالبية العريضة منهم على ترك وظائفهم نتيجة الكساد الاقتصادى - وذلك من خلال مجموعة من الظروف الأجتماعية الخارجة عن ارادتهم.

ويبدو أن الانتحار ظاهرة قوية المدى اذا تم تفسيره كتعريف نفسى خالص و لكن اذا كان الانتحار هو مسألة "عقل غير سليم "لذا فما هو السبب وراء تنوع الانتحار بين المجتمعات؟ و لماذا يختلف بين المجموعات المختلفة فى نفس المجتمع؟ كذلك لماذا تكون معدلاته ثابتة فى المجموعات و المجتمعات على

مدار الوقت؟ وكما هو الحال فى امثلة أخرى فانه من المؤكد ان التفسيرات على مستوى الشخصية غير كافية لتوضيح ذلك.

والمتغيرات مثل هذه توضح عدم كفاءة نظريات السلوك البشرى التى تؤكد على الدوافع الطبيعية الداخلية أو التركيب النفسى الفريد للافراد. اذا كانت الطبيعة هى أساس السلوك فلماذا تتنوع حسب الاوضاع الاجتماعية؟ واذا كنا كلنا أفراد مختلفين نتصرف وفق ما يمليه علينا المؤثرات النفسية الفريدة فلماذايتصرف الافراد المختلفين فى نفس الظروف الاجتماعية بشكل متشابهة و بطرق يفهمها الاخرون؟ وبشكل واضح فهناك جانب اجتماعى للوجود الانسانى والذى يتطلب وضع نظريات او (تنظير)اجتماعى لتفسيره.

لذا فان النظريات الاجتماعية تشترك فى تركيزها على الطريقة التى تؤكد أن الاعتقاد الانسانى والسلوك الانسانى هما نتاج المؤثرات الاجتماعية. وتختلف هذه النظريات حسب كينونة هذه المؤثرات و كيف يمكن فحصها وتفسيرهاوهذا الكتاب يوضح هذه الاختلافات.

و سوف نفحص الآن ثلاث أنواع مميزة للنظرية – نظريات القبول **Consensus** (الاتفاق) والصراع **Conflict** والفعل **Action** والتى تركز كل واحدة منهم علىالمصادر الاجتماعية للسلوك البشرى. وعلى الرغم من أن عمل علماء الاجتماع فى باقى الكتاب لا يندرج تحت هذه الفئات الثلاثة فان مناقشتهم (مناقشة النظريات) الآن سوف ينتج فائدتين هما:

١- أن تقوم بدور المقدمة للمناقشات النظرية فى علم الاجتماع
٢- أن تقوم بدور نقاط الاشارة للحكم على عمل المنظرين فى هذا الموضوع ومقارنتهم ببعضهم البعض.

المجتمع كبناء من القواعد Society as Astructure of Rules

تأثير الثقافة على السلوك

تخيل أنك تعيش فى مدينة كبيرة. فكم عدد الناس الذين تعرفهم بشكل جيد؟ عشرون شخص؟ خمسين شخص؟ مائة شخص؟ و الان تخيل كم عدد الافراد الذين تقابلهم كل يوم و الذين لا تعرف عنهم شئ. فعلى سبيل المثال،كم عدد الناس الغرباء الذين يتصل بهم الاشخاص الذين يعيشون فى لندن أو مانشسترأو برمنجهام كل يوم؟ ففى الشارع والمحلات والاتوبيسات والقطارات والسينما والنوادى الليلية-

تكون الحياة اليومية فى المدينة الكبيرة عبارة عن مواجهات مستمرة مع الغرباء. وحتى لو سأم سكان المدينة من التأمل فى هذه الحقيقة فانهم لن يتركوا منازلهم ليروا كيف يتعرف كل هذه المئات من الغرباء تجاههم. وفى الواقع فانهم قلمايفكروا فى ذلك. لماذا؟ لماذا نضع فروضا لقدرتنا على مواكبة التعامل مع الغرباء؟ وذلك لان كل الاشخاص الذين نقابلهم فى حياتنا اليوميةيتصرفون بطرق نتوقعها منهم. فاننا نتوقع أن يتصرف ركاب الاتوبيس و المتسوقين وسائقى التاكسى و المارة وهكذا بطرق محددة مع اننا لا نعرف شئ عن هؤلاء الاشخاص من الناحية الشخصية. فسكان المدن بالاخص - يدخلون أماكن لا يعرفون الاشخاص الذين يعملون فيها ومع ذلك فانهم يتوقعون الطريقة التى سوف يتصرف بها هؤلاء الاشخاص، والاكثر من ذلك فاننا على صواب حتما فى هذين الصددين. فاننا نندهش اذا قابلنا شخص، ليس غريبا ويكون الاجتماع جيد لمقابلة هذا الشخص و يبدو العالم صغيرا فى هذه الحالة واذا تعرف أحد الغرباء بشكل غريب نقول: اماه، لماذا يصرخ هذا الرجل " ولماذا يحدث ذلك؟ لماذا يقوم الاخرون بعمل ما نتوقعه منهم؟ لماذا يكون الاضطراب أو الاشياء غير المتوقعة نادرة بين الغرباء؟

أولاً: نظرية الاتفاق البنائى Structural Consensus Theory

ومن الطرق التقليدية التى يفسر بها علماء الاجتماع نظام الحياة الاجتماعية تكون عن طريق اعتبار السلوك البشرى على انه سلوك مكتسب (ملقن). وهذا المدخل معروف بنظرية (الاتفاق التركيبى) و العملية الاساسية التى تؤكد عليها تلك النظرية تسمى **socialization** التنشئة الاجتماعية.

وهذا المصطلح يشير الى الطريقة التى يتعلم بها البشر انواع السلوك المتوقع منهم فى المواقف الاجتماعية التى يجدوا انفسهم فيها. من خلال وجهة النظرهذه تختلف المجتمعات لان انواع السلوك التى تعتبر مناسبة فى هذه المجتمعات تختلف، فالناس فى مجتمعات اخرى يفكرون ويتعرفون بشكل مختلف لانهم تعلموا قواعد مختلفة عن كيفية التصرف والتفكير. ونفس الشئ يحدث مع المجموعات المختلفة فى نفس المجتمع. وتختلف التصرفات وأفكار المجموعة الواحدة عن تصرفات وأفكار مجموعة أخرى لان اعضائها تم تهيئتهم اجتماعيا وفق قواعد مختلفة.

ويطلق علماء الاجتماع المهتمين بنظرية الاتفاق على القواعد التى تحكم الفكر و السلوك فى مجتمع ما اسم" الثقافة "، فالثقافة موجودة قبل الناس (الاشخاص) الذين يتعلموها. فعند الميلاد يواجه البشر عالما اجتماعيا موجودا بالفعل. و يتضمن الالتحاق بهذا العالم تعلم كيف أن الاشياء تتم فى هذا العالم " وعن طريق تعلم القواعد الثقافية للمجتمع يستطيع الشخص التفاعل مع الاخرين. ولانهم تم تهيئتهم اجتماعيا بشكل متماثل فان الاشخاص المختلفين سوف يتصرفون بشكل متشابه.

وتقول نظرية الاتفاق أن القواعد الثقافية للمجتمع تحدد سلوك اعضائه. وتقوم تلك القواعد بدورها بنفس الطريقة التى يشكل بها البناء الخارجى لمبنى معين من تصرفات الاشخاص الذين يسكنون بداخله. ولنأخذ مثلا سلوك الطلاب فى المدرسة. فعندما يكون الطلاب بداخل المدرسة فانه سوف يتبنوا أنماطا منظمة للسلوك. فكلهم سوف يسيروا بامتداد الطرقة و الى اعلى والى اسفل على السلالم و داخل وخارج حجر الدراسة (الفصول) ومن خلال الابواب و هكذا. و بوجه عام فانهم لن يحاولوا حفر الارضيات أو تكسير الحوائط أو التسلق عبر النوافذ. فتصرفاتهم (تحركاتهم) الجسدية مقيدة بالبناء المدرسى. ولان هذا يؤثر على كل الطلاب بشكل متشابهة فان سلوكهم داخل المدرسة سوف تكون متشابهة و سوف يعرض (يبين) انماط محددة الى حد ما. وفى نظرية الاتفاق يكون نفس الشئ صحيحا بخصوص الحياة الاجتماعية.فسوف يتعرف الافراد بشكل متشابهة فى نفس الوضع الاجتماعى لانهم مقيدين بالتساوى بقواعد ثقافية. وعلى الرغم من أن هذه التركيبات الاجتماعية غيرمرئية فى التركيبات الخارجية فان المشتركين فى هذه القواعد يجدوا انها محددة للسلوك بشكل متماثل.

والمستويات التى تعمل فيها هذه القواعد الثقافية تتنوع.فبعض القواعد، كالقوانين مثلا، تعمل على مستوى المجتمع ككل وتكون سلوك كل شخص يعيش فيه. والقواعد الاخرى لا تأخذ هذا الشكل العام بنسبة كبيرة و لكنها تكون سلوك الاشخاص فى مواقف اجتماعية محددة. فعلى سبيل المثال،من المتوقع ان يتعرف الاطفال فى الفصل الدراسى بأسلوب منظم ودقيق. وفى الفناء المدرسى يتم اعطاؤهم رخصة للتصرف بحرية أكثر فى حين انه عندما يكونوا خارج المدرسة يختلف هذا السلوك عن السلوك الذى يتبعوبه أثناء الدراسة.

و بالمثل عندما يكون ضباط الشرطة أو الممرضات أو أعضاء القوات المسلحة في واجبهم الوظيفي فان هناك قواعد معينة تحكم وتكون تصرفاتهم بشكل محدد.

وعندما يكونوا بعيدا عن الزى الرسمى أو الواجب الوظيفى فان هذه القيود لا يمكن تطبيقها على الرغم من أن هناك قواعد اخرى يتم العمل بها كالقواعد التى تتحكم في سلوكهم كآباء و أمهات أو أزواج و زوجات، على سبيل المثال.

وهذا يوضح كيف تعمل نظرية التركيب الاجتماعى للقواعد الثقافية. فالقواعد لا تنطبق على الافراد انفسهم و لكنها تنطبق على الوضع الاجتماعى الذى يشغلونه.

فالمتسوقين وضباط البوليس و منظمى المرور والمدرسين أو التلاميذ يكونوا مقيدين بالتوقعات الثقافية المرتبطة بتلك الاوضاع الاجتماعية عندما يشغلون تلك المواضع. وفى الظروف الاخرى وفى الاماكن الاخرى من التركيب الاجتماعى كآباء أو أمهات ولاعبى اسكواش و مشجعى كرة القدم و اعضاء فى الكنيسة وهكذا تأخذ قواعد اخرى شكلها الجارى.

و يسمى علماء الاجتماع الاوضاع فى البناء الاجتماعى "بالادوار" **Roles**. وتسمى القواعد التى تكون (تشكل) سلوك من يحتل تلك الاوضاع الاجتماعية (بالمعايير)**Norms**. وهناك بعض القواعد الثقافية التى لا ترتبط بأى دور أو مجموعة من الادوار الاجتماعية. وهناك ما يسمى بالقيم **values** وهى خلاصة مشاعرنا للطرق المعيشية التى تنال الاستحسان والتى تقوم بدور الاساس الذى ينشأ منه معايير معينة. كذلك، على سبيل المثال، "ان التعليم ينبغى أن يكون مفتاح النجاح"و"ينبغى أن تكون العلاقات الاسرية أهم ما ينبغى حمايته" و "الاعتماد على النفس ينبغى أن يكون الوسيلة التى يستطيع الفرد من خلالها تحقيق الذات": فكل هذه الاشياء قيم توفر مبادئ عامة تشتق منها المعايير التى توجه السلوك فى المدارس و الجامعات وفى المنزل وفى العمل.

وفقا لهذه النظرية الاجتماعية فان الارتباط (التوافق) الاجتماعى داخل بوتقة المعايير والقيم ينتج الاتفاق بين الناس حول السلوك والمعتقدات المناسبة والتى بدونها لا يمكن أن يبقى المجتمع البشرى على قيد الحياة. ولهذا السبب تسمى هذه النظرية بنظرية الاتفاق البنائى. فعن طريق الارتباط الاجتماعى تشكل القواعد الثقافية السلوك وتضمن التوافق حول السلوك المتوقع وبذلك تكفل النظام الاجتماعى.

وبشكل واضح، فى المجتمع المركب (المعقد) هناك معايير وقيم تنافس بعضها البعض أحيانا. فعلى سبيل المثال، فى حين أن بعض الناس يعتقدون أن من الخطأ أن تذهب الامهات الى العمل فهناك كثير من النساء ينظرون الى الامومة كفرض حقيقى وذلك فى أحسن الحالات و يعتبرونها تقيد لحريتهم فى أسوأ الحالات. و الاطفال غالبا ما يشجعون بعضهم البعض أن يتصرفوا بشكل سئ فى المدرسة وأن يسخروا من أقرانهم الذين يرفضون عمل (فعل) ذلك. وعادة ما ينظر المدرسين الى ذلك من ناحية أخرى. ويوضح المؤتمر الذى يعقده حزب التورى([1]) Party Tory سنويا حده شديدة فى ادانة (شجب) أى متحدث ينتقض الشرطة. ويغضب الشباب من السود من الاشخاص ذو الاعداد الكبيرة الذين يتخذون موقفا عدائيا تجاههم. ويفسر منظرى نظرية التوافق مثل تلك الاختلافات فى السلوك والاتجاه فى ضوء وجود مؤثرات ثقافية بديلة والتى تميز المواقف الاجتماعية المختلفة. وخير مثال على هذا التأكيد هو موقفهم تجاه عدم المساواة التعليمية educational inequality وفى معظم النتائج التى توصل اليها فان البحث التعليمى يوضح أن الانجاز فى التعليم مرتبط ارتباطاً قوياً بالطبقة الاجتماعية والنوع والاصل العرقى. وعلى سبيل المثال، هناك دليل قاطع أن أطفال الطبقة العاملة (أولاد الطبقة العاملة) والذين لديهم ذكاء مشابهة لذكاء الاولاد ذوى الخلفيات متوسطة الطبقة يحققون نجاحا اقل من الناحية الاكاديمية عن الاولاد الذين ينتمون الى الطبقة المتوسطة. ولتوضيح ذلك يلجأ أصحاب نظرية الاتفاق الى مفاهيم خاصة باتجاههم نحو الحياة الاجتماعية مثل المعايير والقيم والارتباط الاجتماعي والثقافة. ولانهم بدأوا بافتراض أساس يقول أن السلوك والاعتقاد ينتجان من الارتباط داخل قواعد معينة فان تفسيرهم لانجاز الطبقة العاملة الضعيف من ناحية التعليم يسعى للتعرف على:

١) المؤثرات الثقافية التى تدفع أولاد الطبقة الوسطى الى النجاح الاكاديمى.

٢) المؤثرات الثقافية التى تقذف بأولاد الطبقة العاملة الى الضعف.

---

1 يعتبر حزب "التوري" هو أصل حزب "المحافظين" الحالي في بريطانيا. وكان حزب التوري هو حزب المدافعين عن الملك وسلطانه ضد البرلمان، وعن الكنيسة الإنجليكية التي يرأسها الملك، والتي انشقت عن كنيسة روما الكاثوليكية التي يرأسها البابا، وكان هذا الحزب عبارة عن جماعة دينية أرستقراطية من أصحاب الأملاك الزراعية.

و تأخذ المناقشة شيئا من هذا القبيل. ان تربية الطبقة المتوسطة يتطلب ارتباط اجتماعى بالمعايير والقيم المثالية للانجاز التعليمى. وبسبب خبراتهم التعليمية. فان الاباء من الطبقة المتوسطة من المحتمل أن يكونوا ذو معرفة بالقدر الكافى جدا حول استغلال التعليم الاستغلال الامثل والحصول على أفضل النتائج من خلاله. وفضلا عن ذلك من المحتمل أن يكونوا أشد حرصا على أن يحقق أولادهم النجاح عن طريق التعليم. وهؤلاء الاطفال بذلك سوف يتم تربيتهم ونموهم فى وضع اجتماعى حيث يتم تقييم الانجازالتعليمى فيكون الانجاز ذو قيمة ويتم كذلك تشجيعهم باستمرار ومساعدتهم ليحققوا مطامحهم الاكاديمية.

وعلى النقيض من ذلك فان الخلفية المنزلية لاولاد الطبقة العاملة غالبا ما ينقصها مثل تلك الارتباطات الاجتماعية المتميزة. فالاباء الذين ينتمون الى الطبقة العاملة غالبا ما يكونوا محدودى الخبرات حول التعليم. وحتى ولو كانوا حريصين على أن يحقق أولادهم نجاحا تعليميا فانهم سوف يفتقدون بالتأكيد الى الكيفية الى يستطيع من خلالها الأب الذى ينتمى للطبقة العاملة تحقيق ذلك. وفى الواقع، فانهم أحيانا لا يستحسنون (يفضلون) الانجاز الاكاديمى، فعلى سبيل المثال قد لا يثقون ببساطة فى ما لا يعرفونه. وكنتيجة لذلك قد يكون من الافضل أن يتعلم أولادهم أن يقدروا المزايا العملية والفورية لترك المدرسة بأسرع ما يمكن. فعلى سبيل المثال، قد يتم تشجيع الاولاد على أن يتعلموا التجارة " و أن يتجنبو ا النجاح الاكاديمى لضمان التأهيل فى وظيفة مناسبة ". وهنا مثال واضح على تطبيق نظرية التوافق على حقائق الحياة الاجتماعية.

ان الانماط المختلفة للسلوك هى النتاج للانماط المختلفة للارتباط (الترابط) الاجتماعى. وقد يبدو أن هذا يتناقض مع التزام أصحاب النظريات بالفكرة التى تقول أن النظام الاجتماعى فى المجتمع هو نتيجة اتفاق أو توافق بين اعضائه حول كيفية التصرف والاشياء التى تكون موضع تفكير. ولكن أصحاب نظرية التوافق يقولوا أن على الرغم من الاختلافات الثقافية بين الجماعات المختلفة وحتى على الرغم من الفئات الثقافية المعارضة والتى توجد فى الثقافة الكلية فانه فى كل المجتمعات يسود التوافق الكلى. وهذا لان كل المجتمعات تمتلك قيم معينة حول الاهمية التى لا يختلف عليها أحد. وتسمى هذه القيم بالقيم المركزية **Core Values** أو القيم المحورية ويضمن الترابط الاجتماعى أن كل الاشخاص على وفاق مع هذه القيم.

وفى بريطانيا أثناء العصر الفيكتورى كانت هناك قيمتين محوريتين وهما الالتزام بالنسق الاخلاقى المسيحى والولاء للملكة والامبراطورية البريطانية. وفى هذه الايام قد تكون الامثلة على القيم المركزية تكمن فى أهمية النمو الاقتصادى وأهمية المؤسسات الديمقراطية وأهمية أحكام القانون وأ همية حرية الفرد فى نظام القانون.

ووفقا لنظرية التوافق تكون القيم المحورية هى العمود الفقرى للتراكيب الاجتماعية التى يتم تأسيسها والحفاظ عليها من قبل الترابط الاجتماعى. ويتم تحديد السلوك الاجتماعى والنظام الاجتماعى من قبل قوى ثقافية خارجية فالحياة الاجتماعية ممكنة بسبب وجود تراكيب اجتماعية للقواعد الثقافية.

المجتمع كتركيب (كبناء) لعدم المساواة:

تأثير المزايا و العيوب على السلوك Society as Structure of inequality

ويناقش علماءاجتماع آخرون قضية نظرية مختلفة الى حدما عن أراء أصحاب نظرية التوافق. فهم يتفقون على أن المجتمع يحدد سلوكنا عن طريق تكوين وتقيد هذا السلوك. ولكنهم يؤكدون على (يركزون على) قيود بنائية مختلفة. فمن وجهة نظرهم، أهم ما يؤثر على الحياة الاجتماعية هو توزيع الافضليات وتأثيره على السلوك، فعندما توزع الافضليات (المزايا الاجتماعية) بعدم التساوى تكون فرص المميزين لاختيار كيفية التصرف أكبر من فرص الافراد غيرالمميزين.

فعلى سبيل المثال، فى حين أن من الممكن لولدين من نفس الذكاء أن يكون لديهم حرص متساوى ليحققوا انجازا تعليميا وأن يتم تشجيعهم من قبل الاباء بالتساوى فان الحماس الذى يتم تلقينه اليهم عن طريق الثقافة لا يمكن بمفرده أن يخبرنا بكل شئ حول نجاحهم التعليمي أو فشلهم. فاذا أتى أحد الاولاد من منزل ثرى و جاء الاخرمن منزل فقيرفان هذا سيكون له علاقة موضحة للتعليم بدلا من أن يكون علاقة لتوضيح رغباتهم المتشابهة التى يحصلون عليها بالتعليم. و بشكل واضح، فان التوزيع غيرالمتساوى (الجائر) للمميزات الاجتماعية - فى حالة الموارد المالية - سوف يساعد الولد الذى يمتلك مزايا اجتماعية كما أنه سوف يعرقل حركة الولد الذى لا يمتلك مزايا اجتماعية.

ان آباء الولد ذو المزايا الاجتماعية يستطيعون أن يشتروا تعليما خاصا لولدهم فى حين أن أباء الولدالفقير لا يستطيعون عمل ذلك. والطفل المميز متأكد

من أنه يعيش فى منزل مؤهل بقدر كافى ويمتلك حيز كافى للمذاكرة فى حين الولد الغير مميز قد يذاكر فى نفس الغرفة التى يتواجد بها التليفزيون أو أن يشترك فى غرفة النوم مع أخواته الذكور والاناث.

والطفل المميز يمكن أن يعتمد على وجبة مناسبة (غذاء مناسب) والتى تؤدى الى صحة جيدة فى حين أن الطفل غيرالمميز لا يتمكن من ذلك. ويستطيع الولد المميز أن يحصل على كل الكتب والاجهزة التى يحتاجها للدراسة فى حين أن الطفل غيرالمميزلا يتمكن من ذلك. والاكثر أهمية من ذلك، أن الطفل المميز يستطيع أن يستمر فى التعليم الى الحد الذى لا يعوقه فيه شئ. أما بالنسبة لهؤلاء الذين يمتلكون مزايا أقل فغالبا ما يكون من الضرورى بالنسبة لهم أن يتركوا المدرسة ويذهبوا الى العمل ليزيدوا من دخل الاسرة. وعادة ما يؤدى هذا الدافع الاقوى بالتعليم الى نهاية مبكرة.

ثانياً: نظرية الصراع البنائى Structural Conflict Theory

أحد الاعتراضات التى طرحها بعض علماء الاجتماع تجاه نظرية التوافق التركيبى هو أنه حينما تكون المجتمعات جائرة لا يكون الناس مقيدين فقط بالمعايير والقيم التى قد تعلموها من خلال الترابط الاجتماعى. ولكنهم مقيدين كذلك بالمزايا التى يمتلكوها و كذلك باشكال عدم المساواة الموجودة داخل مجتمعهم. وهذا التأكيد على مؤثرات السلوك الخاص بالتوزيع الجائر للمميزات فى المجتمع عادة ما يكون مرتبطا بنظرية الصراع التركيبى. فلماذا تسمى مثل هذه النظريات بنظريات الصراع؟

وتتنوع أنواع وأشكال عدم المساواة فى مجتمع ما. ويمكن أن تكونا ا لجماعات العرقية جائرة فالصغار والكبار يمكن أن يكونوا جائرين وكذلك الرجال والنساء والأشخاص الذين يقومون بوظائف مختلفة وذوى الأديان المختلفة وهكذا يمكن أن تتنوع؟أنواع المميزات التى يمتلكها مثلك تلك الجماعات بشكل غير متساوى، فالجماعات المختلفة يمكن أن تمتلك كميات غير متساوية من القوة والسلطة والاعتبار أو الثروة أو كل هذه الأشياء ومميزات أخرى.

وعلى الرغم من أشكال عدم المساواة التى تركز عليها نظريات الصراع وكذلك أنواع المزايا التى تعتبرها النظريات موزعة بشكل غير متساوى فإن مثل

تلك النظريات تشترك فى حقيقة ثابتة وهى أن أساس عدم المساواة يكمن فى سيطرة الجماعات ذوى المزايا على الجماعات التى لا تمتلك مثل هذه المزايا

ونظريات الصراع تعتبر نظريات مزعومة لأنه من وجهة نظر هذه النظريات يكون الصراع على الحقوق بين الأثرياء والفقراء متأصل فى المجتمع الجائر وكما يعبر عنها " ويس شاروك ١٩٧٧ " **Wes Sharroch**:

إن مشهد الصراع القائم على افتراض أن أى مجتمع قد يوفر حياة كريمة بشكل قوى لبعض الأفراد وهكذا يكون ممكنا فى العادة لأن الغالبية العظمى مقهورون.... لذلك فإن الاختلاف فى الحقوق يكون ذو أهمية للمجتمع تماما مثل الاتفاق على القواعد والقيم ومعظم المجتمعات تنظم بهذا الشكل حيث أن تلك المجتمعات لا توفر فقط فوائد عظيمة لبعض الأفراد أكثر من الآخرين ولكن بطريقة يسبب فيها تراكم الفوائد لأقلية من الأفراد وعدم ارتياح إيجابى عند الآخرين.

لذلك فإن نظرية الصراع تختلف عن نظرية التوافق ليس فقط لأنها تهتم بالطريقة التى يشكل فيها التوزيع غير المتساوى للمزايا فى المجتمع وبناء السلوك ولكن أيضا لأنها تهتم بالصراع وليس التوافق المتأصل فى هذا المجتمع. ووفقا لنظرية الصراع هناك صراع على الحقوق بين ذوى الامتيازات والذين لا يملكون هذه الامتيازات وهذا الأمر متأصل فى علاقتهم ببعضهم البعض.

وهناك اعتراض آخر من قبل نظرية الصراع ضد نظرية التوافق. إن أصحاب نظرية الصراع يتهمون أصحاب نظرية التوافق بالتركيز الشديد على المعايير والقيم كمحددات للسلوك على حساب مؤثرات أخرى كما أنهم يقولون أن نظرية التوافق تسيء فهم دور اهتمامها الرئيسى وهو الارتباط الذى يحدث عن طريق الثقافة، فنظرية التوافق تقول أن الناس يتصرفون عن طريق ارتباطهم بالقواعد الثقافية وتكون النتيجة هى وجود توافق حول كيفية التصرف والسلوك والذى يوضع نفسه فى شكل أنماط منتظمة للسلوك. ويقول أصحاب نظرية الصراع أننا ينبغى علينا أن ننظر إلى دور القواعد الثقافية وعملية الارتباط فى ضوء مختلف تماما. إن المحددات الفعلية للسلوك هى المنح والمزايا التى تمتلكها الجماعات المختلفة فى المجتمع بشكل غير متساوى.

وعلى أية حال فهناك أشياء أخرى لا تكون متساوية كالعاة فعندما يكون المجتمع جائر فإن الطريق الوحيدة التى يستطيع من خلالهاأن يبقى على قيد الحياة تكمن فى ما إذا كان الاشخاص المحرومين فى هذا المجتمع سوف يقبلون هذا

الحرمان وأحيانا يأخذ ذلك شكل إكراه بين. فالعديد من المجتمعات الجائرة تعيش لأن حكامها تحمى الحركات القهرية والأنظمة القهرية القائمة على الترهيب وممارسة القوة اللازمة لحماية الامتيازات غير المتساوية. لا يحتاج أن يأخذ هذا الشكل الواضح الجلى. كذلك يمكن أن تعيش أشكال عدم المساواة ويكون لها مستقبل مضمون إذا لم يعتبر المحرومون من الامتيازات أنهم محرومين أو إذا أدركوانلك يتم إقناعهم إن هذاالنظام عادل بالقدر الكافى وشرعى وصائب والطريق الذى يحدث من خلاله ذلك يكون من خلال التحكم والسيطرة على المعايير والقيم أى القواعد الثقافية التى يرتبط بها الناس من الناحية الاجتماعية.

لذا فإن من وجهة نظر أصحاب نظرية الصراع من المحتمل أن يكون الترابط آداة تنتج نظام اجتماعى عن طريق القوة والهيمنة والسيطرة بدلا من أن يكون وسيلة للنظام الاجتماعى من خلال التوافق.

ولك أن تتخيل السناريو التالى: ذات صباح باكر فى دولة فى أمريكا اللاتينية هناك مجموعة من العمال الزراعيين من الر جال والنساء ينتظرون بقارعة الطريق وصول الأتوبيس ليحملهم إلى العمل وفجأة ظهرت سيارتين وقفز منهم أربع رجال من رجال العصابات يرتدون أقنعة وتحت تهديد السلاح أمروا العمال ان يركبوا فى الخلف من السيارتين ثم أسرعوا بهم داخل الأرض المجاورة وبحلول الليل تم نقل العمال إلى سيارة لورى كبيرة مغطاة ثم نزلوا بهم بعد ذلك إلى سفح الجبل وقبل النهار وصلت السيارة إلى المكان المقصود حيث يوجد منجم تحت الأرض كبير فى قلب الجبل. وهنا فزع العمال عندما وجدوا جيشا كبيرا من العبيد يكدحون تحت سيطرة حراس شديدوا القسوة وبعد إعطائهم وجبة هزيلة اجبروا هؤلاء العمال بتلك القوى العاملة.

ولأنهم يعيشون حياة بائسة تعيسة فى العالم الجبلى فإن بعضا من هؤلاء العبيد حاولوا الهرب وعندما تم القبض عليهم تم معاقبتهم جهرا ليكون هذا رادع للآخرين وهناك محاولتين هروب تسببوا فى الاعدام لمن حاولوا الهرب. ولأن العمال قد كبروا فى السن فإنهم يعتمدون على بعضهم البعض من أجل الصحبة "أن يكونوا مجموعة" ويعتمدون على ذاكرتهم للإحساس بالراحة فهم يحافظون على عقولهم عن طريق حكى الحكايات سابقة فى حياتهم السابقة وبمرور الوقت ينجبون أطفال ويكون الآباء حريصين على إخبارهم كل شيء عن ماضيهم وعندما يكبر الأطفال وينجبون أطفال فإنهم أيضا يعرفون حياة أجدادهم ولكن بالنسبة لهم هذه

الحكايات تكون مجرد حكايات تاريخية خاصة بحياة مجموعة من الأشخاص، وكل هذه الحكايات تكون كذلك قائمة على التجارب وبمرور السنيين وعلى الرغم من حقائق الحياة داخل الجبل تبقى كما هى فإن الادراك الحياتى من قبل من يعيشون فيه الآن يتغير وبمرور خمس أو ست أجيال من العبيد فإن معرفتهم لعالم الأجداد فى الماضى تصبح مضمحلة فأحيانا ما يتم الحديث عن هذا الماضى وكل الذى يعرفونه عن طريق الخبرة والتجربة العبودية وبقدر ما يتذكرونه عن ذلك فإنهم يكونوا عبيدا بطول الوقت وتكون العبودية شىء طبيعى فى عالمهم. وبالفعل يكون معنى كلمة "عبد" عندهم مختلف جدا عن مفهوم أجدادهم حول هذه الكلمة.

وتحدث عملية مشابهة مع المستبدين حيث أن نظرة العبيد تجاههم تتغير بمرور الوقت فإن ضرورة العمل تصبح أقل فأقل وعن طريق الارتباط الاجتماعى يبدأ الخاضعين للعمل أكثر ألفة مع فكرة الخضوع فإن الحراس لم يعد لديهم حاجة لاستخدام المسدسات والعصيان الكهربية وبسبب ذلك فإنهم لا ينظروا إلى أنفسهم نفس النظرة التى كانت عند الحراس الأوائل وكل من المستبدين والخاضعين لهم ينظرون إلى عدم المساواة فى عالمهم فى ضوء مختلف تماما عن نظرة السكان الأصلين ويحدث ذلك عن طريق الارتباط الاجتماعى.

وبالرغم من أن هذه القصة أكبر من نظام حياتنا فإنها تسمح لنا أن نرى دور الترابط الاجتماعى فى القواعد الثقافية كما يراها أصحاب نظرية الصراع فرأيهم أننا يجب أن نكون حريصيين على ألا نهمل وجود الصراع فى المجتمعات فقط لأن التوافق يبدو سائدا والقوة المجردة من كل غطاء تكون ضرورية فقط طالما أن الناس ينظرون إلى أنفسهم كأشخاص مقهورين وإنما تم إقناعهم أنهم ليسوا مقهورين أو إذا فشلوا أن ينظروا إلى أنفسهم أنهم كذلك فإنهم يكونون مثل المهندسين المعماريين الذين يصمموون خضوعهم بأنفسهم. وأسهل الطرق لممارسة القوة أن يكون المُسيَطر عليه ليس على وعى بذلك الخضوع.

لذلك فبدلا من وصف القواعد الثقافية فى المجتمع ببساطة يجب علينا أن نفرض باهتمام وعناية محتوى هذه القواعد، فيجب أن نتساءل من الذى يستفيد بشكل خاص من هذه القواعد السائدة فى هذا المجتمع بدلا من قواعد أخرى فالقواعد الثقافية لا يمكن أن تكون حيادية أو أن تكون كلاها ذو علاقة بعمل الخير بالطبع يرتبط الناس ببعضهم البعض وفقا لمعاير وقيم موجودة مسبقا ولكن ذلك يخبرنا بنصف القصة فقط فيجب علينا أن نكتشف كذلك سواء كانت بعض

الجماعات تستفيد أكثر من الآخرين من وجود مجموعة معينة من القواعد ولهم رأى كبير فى تكوينها وتفسيرها وإذا فعلوا ذلك فإن عملية الترابط الاجتماعى فى نظام هذه القواعد ستكون أداة فى مصلحتهم.

وعلى سبيل المثال فحتى عن طريق لمحة خاطفة على أنواع المهن التى يشغلها النساء وأنواع المكافأت التى يتلقونها مقابل المهن يتضح المزايا التى يتمتع بها الرجال عن النساء فى مجتمعنا فلا يمكن أن يكون رئيس الوزراء من النساء أو من تعمل فى القطاع المدنى أو عضوية البرلمان أو القاضية أو نائبة رئيس الجامعة. ان هناك فرص مهيمنة غير متساوية وكذلك مكافآت اقتصادية غير متساوية ويقوم ذلك على النوع، والحقيقة هى أن الرجال يسيطرون على أفضل المهن من حيث العائد المادى ومن حيث المكانة وأنهم يتلقون عائدا أكبر عندما يقومون بنفس الوظائف التى تقوم بها النساء.

وبشكل واضح فهناك صراع على الحقوق بين الرجال والنساء هنا ولا يتنافس النساء بأعداد كبيرة على حقوق الرجال التى تتجسد فى الوظائف ذات العائد المرتفع وبسبب حقوق الرجال فإن النساء يمكثون فى االمنزل ليوفروا الخدمات المنزلية لهؤلاء الرجال وإذا أرادت النساء شيئا غير ذلك فإن ذلك سوف يصارع رغبات وحقوق وطموحات الرجال. لذلك لماذا لا تعترض كثير من النساء على هذه الأمور إذا كانت النساء تم حرمانهن من الوظائف والمكافآت من قبل الرجال فلماذا يتأقلم النساء مع هذا الحرمان؟ فعلى سبيل المثال ما هو السبب فى أن هناك بعض من أشد النقاد ضراوة للحركة النسوية من النساء ولماذا تفضل الكثير من النساء ان يكن ربات منزل غير مأجورين لمصلحة أزواجهن وأولادهن؟ ولماذا يختار الكثير من البنات العلوم المنزلية والحياكة والفن فى المدرسة ولا يفضلون مثلا الكمياء والفيزياء والرياضيات؟ وما السبب فى أن أقصى طموحات الكثير من البنات أن يبدان يكون أسرة ولماذا لا يرغبون فى اكتشاف مواهبهم فى نشاطات أخرى وبشكل أفضل؟

وبشكل أفضل فإن جزء من الرد على هذه التساؤلات يتجسد فى أن النساء تم تكوينهن اجتماعيا لقبول معرفتهن بذاتهن بهذا الشكل، ووفقا لأصحاب نظرية الصراع فإن هذا مثال واضح على معايير معينة وقيم معينة تعمل لصالح فئة واحدة من المجتمع وتقف ضد فئة أخرى فمن خلال الأفكار التى يتعلمونها فإن النساء قد يجبرن على قبول الدور الخاضع لسيطرة الرجال.

وهناك تساؤل أخير حول هذا المدخل النظرى كيف يحدث ممارسة القوة عن طريق الترابط بأفكار معينة؟ ويقول أصحاب نظرية الصراع أن هذا يمكن أن يحدث عن قصد أو عن غير قصد لأن حكام الكثير من المجتمعات فى العالم فى الوقت الحالى يوظفون الدعاية عن قصد لاقناع من يحكمونهم بشرعية هذا التنظيم وهم غالباً.

ما يتحكمون فى وسائل الاعلام ويراقبونها فى دولهم لضمان غياب المعارضة تجاه الترابط الاجتماعى الذى يتحكمون فيه.

إن ممارسة هذا النوع من القوة يمكن أن يحدث عن قصد ولكن بشكل أقل من ذلك أيضا خذ على سبيل المثال عدم المساواة بين الرجال والنساء في مجتمعنا. إلى أى مدى يتم تعزيز قبول عدم المساواة الخاص بصورة المرأة فى الجرائد على الرغم من أن الغرض من ذلك هو بيع منتجات متنوعة من ملابس النساء إلى البرفانات إلى البضائع المنزلية والكحوليات الى السجائر والسيارات وأجهزة المكاتب فإن صور النساء التى تعرض فى الاعلان محدودة جدا حيث أن هناك تأثيرات أخرى تحدث عن غير قصد بشكل أقل وهناك صورتين هما المسيطرتان إحداهما عن المرأة كمربية فى المنزل والتى تستخدم أفضل المنتجات للتنظيف والتلميع والغسيل والطباخة، والأخرى عن المرأة كشىء مرغوب فيه من الناحية الجسدية والتى تضمن بذلك شيئين هما ١ أن تزين حياة أى رجل لديه احساس كاف ليشرب نوع معين من المسكرات ويقود سيارة معينة أو يستخدم مرطب معين للحلاقة أو ٢ أن تتحول إلى شىء مغرى لا يقاوم من الناحية الجسدية عندما ترتدى ملابس معينة أو تستخدم بارفانات معينة أو تأكل نوع معين من الشيكولاته.

وبالطبع فإن مثل هذا الاعلان يربط كل من النساء والرجال وتكون النتيجة هى الرؤية النمطية للأنوثة أو النساء لمجموعة ومكانة المرأة فى المجتمع وهذه الصورة يتبناها النساء التى تحرمهم هذه الصورة من المزايا، وكذلك يتبناها المستفيدين منها وهناك اتفاق حول هذه الاشياء. على أى حال فإنه ليس التوافق الموضح من قبل أصحاب نظرية التوافق فهو توافق مفروض يمنع الصراع الذى قد يندلع إذا تمكن الناس من النظر إلى العالم كما هو بالفعل.

وهناك عدد من النظريات الاجتماعية التى يمكن أن تسمى النظريات البنائية للصراع "نظرية الصراع البنائية" وهى تقوم على فرضيين أساسيين هما:

١) أن البناءات الاجتماعية تتكون من جماعات أومجموعات توزع عليها الامتيازات بشكل غير متساوى وحقوق هذه الجماعات تكون فى صراع حيث أن عدم المساواة تنتج من سيطرة واستغلال الجماعات من ذوى الامتيازات على الآخرين الذين يفتقرون إلى مثل تلك الامتيازات.

٢) يتم الحفاظ على النظام الاجتماعى فى مثل هذه المجتمعات عن طريق القوة سواء عن طريق القوة الفعلية أو القوة التى يتم ممارستها عن طريق الترابط.

لذا فإن نظرية التوافق التركيبى ونظرية الصراع التركيبى تركز على أنواع مختلفة من المؤثرات على الفكر والسلوك. وعلى الرغم من أن كل من النظريتين ترى أن أساس الحياة الاجتماعية من حيث المؤثرات والمحددات الخاصة بالمجتمع أشياء خارجة عن إرادة الفرد فإنها لا تتفق حول الأشياء الخارجية التى يتكون منها المجتمع، فنظرية التوافق قائمة على أولوية تأثير الثقافة "التأثير الثقافى" أى ما نتعلمه كنتيجة للترابط. وبالتناقض فإن نظرية الصراع تعطى اهتماما أكبرللصراع الموجود فى العلاقات بين الجماعات التى توزع عليهم الامتيازات بعدم التساوى، وتقول أن محتوى الثقافة ينبغى أن ننظر إليه كوسيلة لاستمرارية علاقات عدم التساوى.

المجتمع كتكوين من أعضائه: تأثير التفسير على السلوك
Society as the Creation of its Members

إن النوع الثالث من النظرية الاجتماعية يؤدى إلى اتجاه مختلف إلى حد ما فلا تزال النظرية الاجتماعية تحاول شرح وتفسير السبب الذى يجعل البشر فى مجتمع ما يتصرفون بشكل منتظم ولكن بدلا من أن تبحث عن الاجابة فى شكل تأثير البناءالاجتماعى الذى يواجهه الناس والذى يقيدهم ويحكمهم فإن هذه النظرية لها قول آخر من وجهة النظر هذه فإن أهم مؤثر على سلوك الفرد هو سلوك الأفراد الآخرين تجاهه أو تجاهها والتركيز ليس على القواعد الثقافية العامة أو على التوزيع غير المتساوى للامتيازات فى المجتمعات ككل، ولكن التركيز يكون على الطريقة التى يتفاعل بها الأفراد ومن الناحية الاجتماعية وكذلك على الطريقة التى يستطيع الأفراد بها التفاهم مع بعضهم البعض. وهذا لا يعنى أن النظريات

التركيبية لم تحاول أن تفسر ذلك أيضا فعلى سبيل المثال فى نظرية التوافق يكون الناس عبارة عن أشخاص يمثلون أدوار اجتماعية ويتصرفون وفقا لما تعلموه من الترابط ولكن كيف يحددوا الأدوار التى يلعبونها فى الموضع الاجتماعى بذاته، ونظرية التوافق لا تحاول تفسير السبب الذى يجعل الناس يختارون دورا بدلا من الآخر. ومن المفترض أننا نتعلم كيف نحسن الاختيار وعلى أى حال فإن النظرية الثالثة ترى أن اختيار الأدوار شيء معقد أكثر من تلك النظرة الأولية فهى تقول أن أساس الحياة الاجتماعية يكمن فى القدرة الفائقة للأفراد على فهم ما يحدث حولهم ثم اختيار التصرف بطريقة معينة فى ضوء هذا التفسير وهذه تسمى النظرية التفسيرية " التوضيحية " أو نظرية الفعل **Action Theory**.

ثالثاً: نظرية الفعل Action Theory

تؤكد نظرية الفعل على الحاجة الى التركيزعلى المستوى الاصغر **Micro Level** من الحياة الاجتماعية، خاصة على أسلوب الافراد الذي يستطيعون به التفاعل مع بعضهم البعض، وذلك اكثرمن التركيز على المستوى الاكبر **Macro Level** الذى يشمل البناء الكلى لتأثيرات المجتمع على أسلوب الافراد، وهى (نظرية الفعل) تؤكد أنه لا يجب أن نفكر فى وجود المجتمعات خارج نطاق تفاعل الافراد، وبالنسبة لمنظرى نظرية الفعل الاجتماعى فإن المجتمعات هى فى النهاية نتيجة التفاعل الانسانى وليس سببها.

وهى يجب أن تنظر فقط حول الكيفية التى يستطيع بها الكائن الانسانى التفاعل حتى يمكن ان نستطيع فهم كيفية خلق النظام الاجتماعى، ولنرى كيف يحدث ذلك.

وهذا يجعلنا نفكر فى انماط الفعل التى يستطيع الانسان القيام بها، ولا شك ان بعض الافعال الانسانية تشبه أفعال الظواهر فى العالم المادى، تتم بلا غرض او هدف أو نقص القصد او النية، فنحن جميعاً نفعل اشياء بشكل تلقائى أو عفوى مثل العطس **Sneezinng** وفتح وقفل العينين **blinking** أو التثاؤب **Yawing** كما اننا لا نختار الشعور بالخوف والدهشة والالم، أو نختار ردود افعال لهذه المشاعر على حد معرفتنا، اما فيما يتعلق بما نعرفه عن مفهوم الظواهر غير الانسانية (المادية) أنها غريزية بحته (اليه اوتعكس استجابات لمثيرات خارجية)

أنه فى الحقيقة ان الحيوانات على سبيل المثال احياناً ما تتصرف باسلوب عقلانى عن طريق استخدام عقولهم، فهى تبدو ذلك فى اختيار المأكل أو النوم او حينما تكون ودودة أو عدوانية او عند قضاء حاجاتهم على السجادة الجديدة فى حجرة المعيشة ..الخ، ومع هذا فان التفسير الخاص بعلم الحيوان يرى ان هذا غالباً ما يكون بسبب انماط معقدة من الفعل الحيوانى غير الارادى، حيث أن هذا يكون ناجما عن فعل تلقائى اكثر من نتيجة قرار أرادى مبدع.

تقريباً ان ردود افعال الانسان تكون ارادية او مقصودة **Voluntary** اى انها ناجمة عن قرار واعى نتيجة للتفكير العميق. تقريباً ان كل شيئ نفعله نتيجة الاختيار الحر للقيام بفعل بطريقة أو باخرى، علاوة على ان هذا يكون نتيجة اختيار هادف أو موجه عقلانياً، فنحن نختار بين مجموعة من الافعال لاننا كبشر قادرين على وضع هدف أو غاية لناخذ فعلاً مناسباً لتحقيق ذلك، وتقريباً كل فعل انسانى هو فعل مقصود **Intention Action**، فنحن نقوم بما نريد من أجل تحقيق هدفنا المنشود. من أين يأتى اختيار الاهداف؟

وهنا تؤكد نظرية الفعل اننا نقرر ما نريد فى ضوء تفسيرنا للواقع من حولنا، ولكوننا بشر فإن ذلك يعنى اننا نتماشى مع الحياة الاجتماعية فى ضوء المواقف التى نجد انفسنا فيها وتكون ردود افعالنا وفقاً لذلك، وعندما نطبق نظرية الفعل المعتاده فى ذلك فنحن نختار ماذا نفعل فى ضوء تعريفنا للمواقف، فعلى سبيل المثال هب انك استيقظت فى صباح يوم صيفى لتجد الشمس ساطعة فى سماء صافية، فانك سوف تقرر ان تمشى كل يوم، وعندما يكون الجو بارداً فى وقت الظهيرة وترى كثيراً من السحب تتكون، فانك تقرر ان هناك فرصة لوقوع عاصفة خطيرة، واذا ذهبت للريف للنزهه فى المساء ثم وقفت لتشرب من بار وبمجرد انك خرجت خارج القرية ولاحظت دخاناً يرتفع على جانبى التل من مسافة بعيدة، وعندما تلاحظ الدخان اصبح أكثر كثافة وظلمة فانك تعتقد أو تقرر ان النار ضخمة وخارجة عن السيطرة.

باختصار بعد ذلك فانك تسمع ان محرك النار يعمل على زيادة اشتعال النار، ولكن عندما تتسلق اقرب تل لتنظر أفضل، فانك ترى النار فى الحقيقة عملية مقصودة فى إحدى حدائق المنازل على جانبى التل التى لم تستطع أن تراها من بعد. وباختصار بعد ذلك فانك تسمع محرك النار يعود الى قاعدته، وهنا ترجع الى

البار لتكمل شرابك، واصبح من الواضح فى ذهنك عندما لا تجد معك نقوداً فانك تقرر ان هذا ليس يومك وتقرر العودة الى المنزل.

بالطبع تقريباً فى كل الاماكن نجد احساساً بالتداخل والانغماس اكثر من ذلك لان كل شيئ نفعله فى حياتنا يحدث فى صحبة الاخرين، لان معظم المواقف التى نختارها هي اجتماعية بطبيعتها، حيث انك تدخل مع الناس فى حوارات عندما ترى رجل كبيراً جداً يهز قبضة يده ويصرخ فيك، ونستنتج من ذلك انه غضبان (او غير مسرور) لانك خبط (ارتطمت) بسيارته عند الرجوع ونتيجة لذلك تقرر (ولاتقترح) انك مسئول عن وقوع الحادثة بسبب الطريقة التى تركن بها، هذا هو الفعل الاجتماعى انه الفعل الذى نختاره فى ضوء تفسير السلوك للاخرين لما نعنيه، وهذا يكون فعلاً اجتماعياً اكثر من التفسير الذى يؤدى الى الفعل نفسه.

ومع ذلك ففى معظم الاوقات عندما نتفاعل مع افراد اخرون، فانهم يريدون منا ان نتوصل الى تفسيرات معينة لافعالهم، كما يريدون منا ان نفكر فى شيئ مهم اكثر من الاخر، فالشخص الذى حطمت سيارته لم يتصرف بطريقة مخيره وصفت سابقا بسبب انه يرغب فى ان المزنب **Culprit** يأتى الى المنزل ليحتسى الشاى، فالرجل الذى يهرش فى انفه فى مكان المزاد، لا يخفف عادة من حك جلده، وهو يتصل بمزاده عن طريق القائم بالمزاد، وهو يتوقع ان الاخير سوف يفسر افعاله كما يريد، والاشخاص الذين يمشون على ارجلهم فى شوارع لندن لا يلوحون لسائقى التاكسى لانهم يريدون ان يصبحوا اصدقائهم وهم يفعلون ذلك لانهم يريدون العودة الى منازلهم.

وكذلك فان نوع الزى او الملبس يمكن ان يوضح التفسير الفعال وراء الايماءات بالطبع، فعلى الرغم من ان عازفى موسيقى الروك وضباط البوليس ورجل المرور والموظف المدنى الذى يرتدى القبعة السوداء والذين نقابلهم فى الشارع لا يحاولون بشكل واضح أن يتفاعل معنا لانهم يريدون ان يفعلوا ذلك بالتاكيد، فهم يريدون أن نفكر فيهم بشكل معين عندما نشاهدهم، ولذلك فهم يختارون التواصل عن طريق استخدام الزى الموحد **Uniforms** وهم يستعملون الملبس بشكل رمزى مثل الايماءات وطريقة الكساء ترمزطبقاً لما يريده الاشخاص الذين يرتدونها ان تعبر عنهم.

واكثر الرموز الفعالة عند البشر فى ترتيبها هى الكلمات، والرموز اللغوية وعلى الرغم من ان الملبس أو الزى والايماءات واللمس وحتى الرائحة توصل

معانى معينة وتنظم عملية التفسير للافعال بشكل كاف، ولهذا السبب فان منظرى نظرية الفعل الاجتماعى يهتمون فى الغالب بالطريقة التى تستخدم بها اللغة لتبادل المعانى مع بعضنا البعض، واللغة سواء كانت لفظية أو مكتوبة هى الوسيلة الانسانية الوحيدة التى نستطيع بها ان نتفاعل بشكل مفهوم مع بعضنا البعض وبذلك هى التى تخلق المجتمع.

ومن وجهة النظر هذه، فالمجتمعات تتشكل من افراد منغمسون أو متداخلون فى عدد لا حصر له من المقابلات ذات المعنى، والنتيجة هى النظام الاجتماعى، وهذا النظام ليس محدداً او حتمياً، فهو ليس نتيجة فرض قواعد ثقافية كما يرى منظرى نظرية التوافق، وهو كذلك ليس نتيجة قيود عالمية كعدم توزيع الامتيازات بشكل متكافئ أومتساوى، كما يرى منظرى نظرية الصراع، وبدلاً من ذلك فان المجتمع هو نظام اجتماعى يتم خلقه عن طريق قدرات اعضاء المجتمع انفسهم، فهو نتيجة مناسبات عديدة من التفاعل تتم او تتقدمه خلال المشتركين فى التفاعل على فهم وتفسير المواقف الاجتماعية التى يجدون انفسهم فيها والذين يختارون مسار التفاعل فى هذه المواقف الاجتماعية.

وهناك اختلاف هام كذلك بين المفهوم البنائى والمفهوم التأويلى (التفسيرى) للمجتمع، فمن وجهة نظر اصحاب النظرية البنائية فان شخصية المجتمع وبنائه الاجتماعى شيئ لاجدال فيه فهو شيئ حقيقى (واقعى) وهو موجود خارج ارادة اعضاء هذا المجتمع، اما من وجهة نظر انصار النظرية التأويلية فانه من الصعوبة البالغة ان نصف المجتمع الذى هو نتيجة التفسير باعتباره حقيقى أو واقعى. ومن وجهة نظر المنظر التأويلى فان كون الانسان متضمن فى تفسير ما يحدث حول هذا الانسان كقولنا "هذا ما يحدث هنا" والاختيار المناسب لمسار الفعل فى ضوء هذا التفسير، ومثل هذا التفسير حول ما يحدث هنا يمكن ان نعتبره صحيح أو حقيقى لشخص معين قائم على التفسير لما يحدث بشكل واقعى معتمد على الفرد نفسه.

والحقيقة الفعلية هى ما تتم من وجهة نظر الفاعل أو الملاحظ beholder واننا نتصرف بالطريقة التى نعتبرها مناسبة، وما نراه مناسباً يعتمد على طريقة تفكيرنا حول ما يعنيه سلوك الاخرين، وبذلك فان هذا يعنى انه من المستحيل على الاخرين الذين يتواجدون فى نفس المواقف الاجتماعية مثلنا سواء يفهمون الافعال التى تحدث حولهم على انها تعنى شيئاً مختلفاً، وبذلك سوف

ياخذون مساراً مختلفاً للفعل عن المسار الذى نسلكه، فعلى سبيل المثال عند اصطدام سيارة بحائط فى مساء ليلة ممطرة، وعندما تم استدعاء ضابط البوليس الى مكان الحادث اكتشف ان السائق قد مات ثم اكتشف بعد التحرى رائحة قوية ناتجة عن شرب الخمر بداخل السيارة نفسها، كما كشف البحث عن زجاجة ويسكى تحت مقعد من مقاعد السيارة، ومثل باقى البشر الذين يواجههم موقف اجتماعى فان الضابط يقوم بعملية تفسير لتحديد هذا الموقف ومن خلال الدلائل فإنه قد قرر ان التصادم كان نتيجة حادث ان السائق كان مخموراً وفاقد للسيطرة على المركبة التى يقودها فى مثل هذه الظروف الصعبة للقيادة، وعند استدعاء ضابط اخر لمكان الحادث فانه ربما يستخدم هذه الدلائل فى تفسير اشياء مختلفة، فربما يعتبر ان السائق نفسه هو الذى اصطدم بالحائط بمحض ارادته كنوع من الانتحار **Suicide** وقد دفعته الخمر الى ارتكاب هذا الفعل، وبذلك فان الضابط الثانى قد توصل الى استنتاجات وتفسيرات مختلفة لم يتوصل اليها الضابط الاول، ويمكن النظر الى الظروف العائلية وظروف العمل الخاصة بالسائق المتوفى وربما يمكن التوصل الى ان هذا السائق قد انفصل مؤخراً عن زوجته وبذلك يكون قد فقد حق رعاية اولاده، وبالتالى سوف يقرر الضابط ان الشكوك الخاصة بالانتحار قد تم التأكد منها عن طريق هذا الدليل الاضافى وسوف يتم الادلاء بذلك فى محكمة كورونو**Coroners Court** المسئولة عن اجراءات التحقيق بخصوص الحوادث التى تحدث عن طريق اسباب غير طبيعية.

وعن كيفية تفسير الوفاة فى النهاية فلا شك انه يعتمد على قرار المحكمة بالطبع، وذلك من خلال اعادة تقييم الدليل عن طريق مجموعة جديدة من المفسرين، وخصوصاً الاشخاص المختصين باجراء التحقيقات حول الحوادث التى تحدث نتيجة اسباب غير طبيعية، والقرار النهائى لهؤلاء المحققين سوف يحدد الوفاة بوصفها طارئة أو صدفة أم بوصفها انتحار، وهنا تثور مجموعة من التساؤلات التالية:- هل الحكم القضائى هو الحقيقة بعينها؟ ومن الذى يقول ما هى الحقيقة لهذا الموقف؟وماذا حدث بالفعل؟ فى مثل هذه الحالة لا يستطيع احد معرفة الرد على هذه التساؤلات.

وحتى فى اكثر الظروف النهائية، فان الافعال لا تزال تعتمد دائماً على تفسير الملاحظ او المراقب للمواقف الاجتماعية، وهب انك قابلت صدفة رجل فى منتصف العمر يتشاجر مع فتاة صغيرة بين شجيرات حديقة ما، وبالتالى فان ما

تقوم به سوف يعتمد على مدى فهمك لما يحدث، فربما تقرر ان الرجل يهاجم البنت وبالتالى فان السلوك الذى تقوم به وتراه مناسبا يعتمد على تفسيرك للموقف ومدى شعورك بالشجاعة فى ذلك الوقت، او ربما تقرر ان هذا غزل بين حبيبين او ربما يكون اب يعاقب ابنته، او اى تفسير اخر يطرأ على الذهن، وما يمثل اهمية هنا هو ما يلى:-

١) لامفر انك سوف تصل الى تفسير معين أو تفسير أخر حتى ولو لم تكن تعرف ما يحدث بالفعل.

٢) ان ما سوف تقرر القيام به سيكون نتيجة لهذا التفسير.

وعلى الرغم من ان الاحداث المتعاقبة قد تثبت اشياء بطريقة أو باخرى فان الحدث الاولى الذى يقوم به الانسان فى مثل تلك الظروف الاجتماعية، ومع هذا فانه غالباً ما يتضمن عملية التفسير التى لا يمكن ان تفترض صحته او واقعيته المطلقة، فما الامر الا طريقة رؤيتنا للاشياء فقط، فالعالم هو فكرتنا نحن عن هذا العالم، او كما عبر عنه **Thomas** توماس (١٩٦٠) قائلاً " اذا عرف الانسان المواقف على انها واقعية فانها تكون لها نتائج واقعية، وعلى النقيض من هذه النظرية البنائية، فان الواقع الاجتماعى ليس واقعياً أو موضوعياً أو ما يخص شئون حالنا بشكل واضح او جلى، فالواقع الاجتماعى هو مايراه المشاركون فى التفاعل الاجتماعى بشكل واقعى، حيث ان ما نراه فى الواقع يحدد ما نقوم به، فالواقع بذلك هو المخلوق المتعارف عليه بين الافراد فى تفاعلهم مع بعضهم البعض، فضلاً عن ذلك ان البيئة الاجتماعية تعتمد على تفسيرات افراد بعينهم فى ظروف اجتماعية بعينها، حيث انها تركيبات اجتماعية عفوية (ناتجة عن الصدفة) وليست محدده بمفهوم البناءات الاجتماعية التى تحدد السلوك.

لذا فان اصحاب نظريات التوافق، والصراع، والفعل الاجتماعى، يحددوا العوامل المختلفة فى تفسير طبيعة الحياة الاجتماعية، وطبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع، وباختصار فاننا سوف نحاول النظر بالتفصيل الى عمل بعض علماء الاجتماع البارزين فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، والتى تنظر الى علم الاجتماع بوصفه نظام اجتماعى مميز، وتركز على القضايا الاجتماعية التى اهتمت بها نظريات التوافق والصراع والفعل واعتبارها محوراً اساسياً فى التنظير الاجتماعى.

وقد كان عمل ثلاثة من علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر مدوياً خلال القرن العشرين، ولهذا السبب يعتبروا اهم الشخصيات الكلاسيكية فى هذا

المجال، وهم العالم الفرنسي اميل دوركايم **Emil Durkheim** (١٨٥٨-١٩١٧) واثنان من الالمان وهما كارل ماركس **Karl Marx** (١٨١٨- ١٨٨٣) وماكس فيبر **Max Weber** (١٨٦٤-١٩٢٠) وعلى الرغم من التباينات الشاسعة فى مضمون إتجاهاتهم النظرية فان عمل دوركايم وماركس وفيبر يمثل رد فعل فكرى وسياسى للظروف التاريخية، وكانت اقوى مجموعة من المؤثرات التى كانت موضع دراسة فى اوروبا فى القرن ال (١٩) هى التى بدات فى القرن السابع عشر والثامن عشر اثناء الفترة الى يسميها المؤرخون فترة عصر التنوير **Enlightenment** وفى الوقت الحالى يتم تلخيص هذه القوى فى علم الاجتماع تحت مفهوم الحداثية أو الحداثة **Modernity**، حيث اتى علم الاجتماع الى حيز الوجود بسبب الحداثة، ويمكن النظر الى النظريات الاجتماعية التى دشنها الشخصيات البارزة فى هذا المجال فى القرن التاسع عشر والعشرون على انها استجابات متنوعة لنشأة العالم الحديث، وهذا حقيقى بشكل خاص فى الادبيات الكلاسيكية لاميل دوركايم وماركس وفيبر.

رابعاً: الحداثة والتحديث Modernity and Modernism

إن فكرة الحديث مشتقة من مجموعة من الافكاروالسلوكيات التى كانت سائدة فى العصور الوسطى باوروبا، ويوجد ثلاث عناصر اساسية للحداثة والتحديث الاقتصادى والسياسى والثقافى والتى يمكن تلخيصها كالتالى:-

اقتصادياً : **Economically** تحتوى الحداثة على الممارسات الراسمالية للسوق الاقتصادى وانها تشمل نمو الانتاج من اجل الربح والاجوروفرص العمل كشكل اساسى للتوظيف والتطور التكنولوجى الصناعى وزيادة تقسيم العمل.

سياسياً : **Politically** فالحداثة تشمل ظهور الدولة الوطنية واندماجها والتوسع فى الاشكال البيروقراطية للادارة والاشكال التنظيمية للسلطة وديمقراطية النظم الحزبية السياسية.

ثقافياً : **culturally** فالحداثة تعنى التحدى للتقاليد فيما يسمى بالعقلانية والتاكيد على المثل أو القيم العلمية والمعرفة التكنولوجية.

لذا فالتغير الثقافى فى المعتقدات حول ما الذى يحدد المعرفة، وما تهدف اليه، وما تتجه اليه مباشرة للنهوض بعلم الاجتماع والتنظير الاجتماعى، فالتفكير الحداثى، يتضمن الفكرة التى تهدف الى اكتساب المعرفة كما قال انتونى جيدنز **Antony Giddens**(١٩٨٧) والتى تهدف الى التاثير الايجابى فى تحسين

الظروف الانسانية، فالحداثة تشير الى التحسينات المستمرة والدائمة فى حياة الانسان وتطوره المستمر، على عكس الاشياء التقليدية التى تبقى فى العالم الحديث وأصبح التغير، والتطور والتحسين هو الهدف الاسمى للحداثة كما أوضح شيل Cheal(١٩٩١)، إن امكانية التقدم تعنى الاعتقاد بأن الاشياء غداً سوف تكون أفضل مما هى عليه اليوم، والتى تعنى بالتالى تجهيز النظام السائد لكى يتجه نحو التقدم، وهذا يعنى بكلمات اخرى القدرة على كسر وتحطيم التقاليد البالية، لكن يمكن تحقيق هذا التقدم تحت مسمى الاعتقاد فى احتمالية التقدم هو الايمان بقوة السبب فى قدرة البشر على التفكير بانفسهم واحوالهم ومجتمعهم، بطريقة عقلانية وتأملية من اجل تحسين هذه الظروف فى ضوء هذا التفكير العقلانى، فالفكرة بان البشر لا يستطيعون فقط ان يفكروا ويفسروا حياتهم من أجل إنتاج نظريات اجتماعية فى الواقع لكنه ايضاً لكيفية توظيفهم من أجل تغيير مجتمعاتهم إلى الأفضل على وجة الخصوص فى ضوء فكرة الحداثة.

الفكرة هى أن العقل يقدم أجندة أو مخطط لوضع وصفه للحياة بدلاً من الاعتماد على التداخلات والتعليمات الربانية والتى سادت فقط بعد عصر التنوير، وتلخيص تأثير عصر التنوير فقد قال بدهام Badham عام ١٩٨٦، فى اثناء هذه الفترة ساد الايمان بالوحى الالهى وسلطة الكنيسة كتفسير لارادة الله التى قلصت من زيادة الثقة فى قدرة الانسان على فهم العالم ومرشداً للسلوك الانسانى، وبطريقة متشابهه، فان فهم التاريخ كحتمية السقوط للانسان من رحمة الله فى العالم الاخر تبدلت للاعتقاد فى قوة الانسان وقدرته على استخدام المعارف الجديدة من اجل تحسين حالة البشرية، فاهمية هذين الافتراضين ليست لها قيمة بدون الايمان بالعقل، فالنظرية الاجتماعية لا يمكن ان تلعب دوراً هاماً فى المجتمع بدون الاعتقاد فى احتمالية التقدم وقدرة العقل على فهم المجتمع، ولذا فان النظرية الاجتماعية لا يمكن ان تكون قادرة كذلك على ان تلعب دوراً ايجابياً فى تحسين قدر الانسان فى هذا المجتمع.

لذلك فان علم الاجتماع هو نتاج للحداثة، والاعتقاد فى قوة العقل الانسانى فى خلق وابداع المعرفه، والتى يمكن استخدامها لتحقيق التقدم وموضوعها هو خلق العالم من خلال الحداثة، كما قال جيدنز عام ١٩٨٧ ان علم الاجتماع هو المجال الاساسى لدراسة العالم الاجتماعى الذى يكمن فى المعرفة بالحداثة، فبناء

النظريات الاجتماعية تعكس الاهتمام ليس فقط فى كيف نحن نعيش؟ ولكن كيف ينبغى لنا ان نعيش؟

فالنظريات الاجتماعية للمجتمعات الحديثة تحاول ليس فقط مناقشة وتفسير مجتمعنا العالمى ولكن لتشخيص مشاكله ووضع الحلول لها، وطبقاً لجيدنزفان واقع علم الاجتماع يقع فى مرحلة انتقالية بين التشخيص والتكهن، فالمشكله بالطبع تهتم بالهدف واتجاه التغير المرغوب فيه على وجه الخصوص، ولاشك ان السبب فى وجود نظريات اجتماعية متباينة بدلاً من نظرية اجتماعية واحدة طبقاً لبلتون **Bilton** واخرون ١٩٨٧ بينما معظم علماء الاجتماع سيطر عليهم الاهتمام بتحسين مجتمعاتهم الا انهم يختلفون فى تعريفهم للعلاقة بين الانسان والمجتمع، وكيف يحدث ذلك، والفصول التالية سوف تحاول تلخيص أهم اسهامات علماء الاجتماع فى القرن العشرين والتاسع عشر، فى هذا المشروع ومدى مساهمة علم الاجتماع فى مشروع الحداثة.

الفصل الثاني

دوركايم والوظيفية

مدخل

ترتبط الوظيفية بشكل واضح بعمل مؤسسها الأول "إميل دوركايم" ١٨٥٨ ١٩١٧ بالإضافة لعديد من العلماء الآخرين الذين كانت لهم اسهامات كبيرة فى مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى المجتمع البريطانى وذلك بين ١٩٢٠ ١٩٦٠ أمثال: مالينوفسكى وراد كليف براون هذا بالإضافة لكتابات علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين مثل: إيفانز **Evans** بريتشار **Pritchard** وميرفورتس **Mayerfortes** وماكس جلوكمان وهؤلاء كان لهم دور واضح فى تأسيس النظرية الوظيفية فى علم الاجتماع البريطانى، وفى مجال علم اجتماع القرن العشرين يأتى "تالكوت بارسونز" باعتباره شخصية بارزة فى الفترة من الثلاثينيات وحتى أواخر الخمسينيات.

وعلى الرغم من وضوح أدوار العديد من علماء الاجتماع الوظيفيين الآخرين أمثال ميرتون وكنجزلى دافيد وغيره فقد سيطرت أمريكا على علم الاجتماع وسيطرت الأنثروبولوجيا الاجتماعية على علم الاجتماع البريطانى، ومن ثم فمن أوائل العشرينيات وحتى أواخر الخمسينيات لم يظهر تأثير واضح أو حتى وجود حركة داخل العلوم الانسانية كما أن المرحلة النظرية تم السيطرة عليها من قبل النظرية البنائية الوظيفية فى مقابل نظرية الاتفاق البنائى.

لابد أن يبدأ فهم المتغيرات والبدائل النظرية المعاصرة فى علم الاجتماع بفهم العملية الوظيفية بالرغم من فقدانها الكثير من تأثيرها على نظرية علم الاجتماع وخاصة خارج الولايات المتحدة الأمريكية. وبشكل حى وواقعى، فإن تصاعد نظريات الصراع وخاصة عند ماركس وبعض إصدارات نظرية المساواة بين الرجل والمرأة وكذلك نظريات الفعل والتفاعلية الرمزية كما هو الحال فى أساليب علم الاجتماع المنطقى حيث يمكن فهمها فى ضوء الانتقادات التى بدأت فى الظهور "خاصة مع الخمسينيات" لحركة الوظيفية.إن نظريات الصراع والفعل لم تأتى الى الوجود لمعاداة الوظيفية، وبالرغم من ذلك فإن لهم شهرتهم عند قيامهم بهذا الدور وذلك بسبب العديد من العلماء الذين قاموا بطرح العديد من الأسئلة والأجوبة حول الحياة الاجتماعية فى حين عجزت الوظيفية عن القيام بذلك والأن دعنا نرى السبب.

تشتمل استجابة إميل دوركايم لحركة التمدن والتحديث المعاصرة على عنصرين أساسيين:

١) إمكانية خلق وتكوين مجتمعات متناسقة ومنظمة.

٢) أراد أن يخلق علم للمجتمع لإيجاد المعرفة المهمة والضرورية ليوضح كيف هذا ان يحدث.

وفى الواقع فقد كان لدوركايم وجهة نظر خاصة بالبنيات الاجتماعية وذلك من خلال ملامحها الاساسية كما أوضح نلك من خلال تكونها من مجموعة من المعايير والقيم. كما أعتبرت التعريفات الثقافية للسلوك ملائمة ومناسبة وتستحق المجازفة فى كثير من المواقف فمن خلال العمليات الاجتماعية يتم تعلم مثل هذه التعريفات المعيارية، كما أنه من خلالها أيضاً يتم تشكيل الأفراد على أنهم أعضاء فى المجتمع ومن ثم إتاحة وإمكانية الحياة الاجتماعية.

فوفقاً لدوركايم، بالرغم من أننا قد نعتقد أننا نقوم بعملية اختيار السلوك الخاص بنا، إلا أنه أول من اهتم بفكرة الاتفاق الجمعى التى ترى " أنه بالرغم من أن إمكانات الفرد والخبرة ملزمة وليست مبتكرة، " كما جاء ذلك فى " لويس ماير ١٩٧٢ ". مثال ذلك الأفراد الذين يحضرون مناسبات الخدمة الدينية قد يؤمنون بالله بشكل مخلص وصريح، إلا أن الاعتقادات والممارسات الخاصة بالدين موجودة فعلاً قبل وجودهم وقد تم تعلمها.

ومثال ذلك كما هو الحال مع كل الأنشطة الاجتماعية الأخرى فإن الاعتقادات والمماسات الدينية تم تشكيلها وتكوينها بواسطة المجتمع وكذلك بمكانة الناس أو الآخرين فى هذا المجتمع وهذا ما حاول دوركايم التأكيد عليه من وجهة نظره المعتدلة حول الحياة الاجتماعية.

عندما أقوم بتحقيق الالتزامات المفروضة علىّ كأخ أو كزوج أو كمواطن فأنا أمارس الواجبات المفروضة علىّ والتى تم تحديدها وتعريفها بشكل خارجى مع نفسى وتصرفاتى المختلفة كما هو الحال مع القانون والعادات والأعراف، وحتى لو كان لهذه الالتزامات تفاعل مع مشاعرى الخاصة وأشعر بحقيقتها بشكل ذاتى فهى أو الحقيقة الخاصة بها ما زالت موضوعية، حيث أننى لم أصنعها أو أخلقها بنفسى، فقد ورثتها بشكل بحت من خلال التربية... كذلك فقد وجد رجال الكنيسة أن المعتقدات والممارسات الدينية يتم صنعها منذ الولادة، فمعنى وجودها قبل ميلاد الفرديعنى وجودها خارج ذاته.

ومن ثم فإنه بالنسبة لدوركايم، فإن تحقيق الإنجاز فى الحياة الاجتماعية بين الأفراد ووجود النظام الاجتماعى فى المجتمع والتى أسماها التضامن العضوى **Social Solidarity** التى يتم تدعيمه بالثقافة والتى تمثل المعايير الجمعية

وقواعد السلوك. "وقد أطلق دوركايم مصطلح الوقائع الاجتماعية على مثل هذه القواعد" وبالرغم من كونها مرئية وملموسة فقط من خلال خضوع الأفراد لها، فإنها فى لغة وتعبيرات دوركايم ليست سوى امتداد خارجي ويتم فرضها على هؤلاء الأفراد. إن مثل هذه البناءات للقواعد الثقافية تكون فى جوهرها واقعية للأفراد الذين يتم تحديد سلوكهم بواسطتها من خلال بنية المجتمع المادية الخارجية التى يواجهونها فالمجتمع وفقاً لعبارة "دوركايم" المشهورة حقيقة مستقلة بذاتها **Sui-generis** وله وجوده الخاص به.

ويعد فهم دوركايم لمحتوى المادة وفق هذا المفهوم هو ما قاده إلى التوصية باستخدام العلم لشرح الحياة الاجتماعية وكانت الطريقة العلمية التى فضل استخدامها هى "الوضعية" **Positivism**.

ويعد المبدأ المرشد للعالم الوضعى الذى يعتمد عليه هو فإن وجود شيء ما فى الطبيعة، فإن سببه يرجع إلى وجود شيء آخر فى الطبيعة كذلك. وتعد هذه ظاهرة طبيعية تسبب حدوث ظاهرة طبيعية أخرى. مثال ذلك عند وصول الماء لدرجة حرارة معينة "السبب" فإنها تتجمد "النتيجة". إضافة لذلك فإن هذا غالباً ما يحدث. لا توجد ظروف محيطة "اعتماداً على الضغط الجوى" عندما لا تصبح المياه ثلجاًعند درجة حرارة معينة. ان مثل هذه العلاقة الحتمية بين" السبب والنتيجة " تسمى القانون. وقد وضع العلم أساسالاكتشاف القوانين فى الطبيعة وقد تم وضع مثل هذه القوانين لنا سواءأعجبتنا أم لا. فإن درجة الحرارة مرتفعة فى الصيف عنها فى الشتاء سواء أحببنا ذلك أم لا، كما أن الأوراق تتساقط عن الأشجارفى الخريف، فنحن نعيش فى عالم طبيعى منظم بشكل معين ومرتبطون بكل ما فيه بشكل وثيق. فمهما كانت اراتنا حول هذا العالم؛ فإن العلم نتيجة لذلك يهتم باكتشاف وتوضيح لماذا تكون الطبيعة على شكلها الحالى. ونستطيع أن نصف ملامح الطبيعة على أنها ملامح العالم الموضوعى فهى توجد كشكل واقعى بشكل مستقل عن أى مشاعر ذاتية أو حتى أحكام فردية قد نطلقها على مثل هذه الملامح.

وبالنسبة لدوركايم فإن البنى الاجتماعية موضوعية مثلها مثل الطبيعة كذلك فقد تم توفير هذه البنى الاجتماعية للسكان وأفراد المجتمع منذ اللحظة الأولى لميلادهم تماماً مثل العالم الطبيعي بظواهره سواء العاقل منها أو غير العاقل وهذا ما يؤدى لحدوث مثل هذه الظواهر. إن ازهار النرجس لم تختر أن تكون صفراء كما أن الضفادع لم تختر أن تنعق أو ان تكون لها عينان بارزتين كذلك لم تتح للمياه

حرية الاختيار للتجمد. وكذلك البشر لم يختاروا أن يكون لهم عينان أم لا أو حتى أنفاً أو فماً. أو أذرع وأرجل فمثل هذه الظواهر ما هى إلا وقائع بيولوجية فى الحياة.

وعند دور كايم يتكون المجتمع من نفس نسيج الحقائق الاجتماعية الخارجية والمفروضة على الجميع. فنحن لم نختار أن نصدق الاشياء التى نصدقها أو حتى نتصرف بالطريقة التى نتصرف بها، فنحن نتعلم أن نفكر ونقوم بالأشياء المختلفة. إن القواعد الثقافية الموجودة سابقا تحدد وتشكل أفكارنا وسلوكنا من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ومن ثم وبنفس الطريقة لخصائص الظاهرة الطبيعية فهى نتيجة لقوانين الطبيعة ومن ثم فإن أفكار الأفراد وكذلك أفعالهم المختلفة هى منتج القوى الاجتماعية الخارجية والتى تشكل الابنية الاجتماعية المختلفة. فقد أوضح دور كايم ١٩٣٨ أن قوانين المجتمعات ليست مختلفة عن تلك الحاكمة لباقى الظواهر الطبيعية والطريقة التى يتم اكتشافها بها متطابقة مع مثيلاتها من العلوم الأخرى.

وبالنسبة للعلم الوضعى فإن هذه الطريقة تتضمن الملاحظة التجريبية: فقط فى حالة القدرة على امتلاك الدليل للعلاقات السببية والتى يتم تحديدها بواسطة الحواس التى يستطيع المرء أن يدعى أنها تسيطر على وجوده ومن ثم فإن دوركايم قد أكد على ان علم الاجتماع يجب ان يعتمد على الدليل التجريبى (الامبريقى) كذلك منذ ان كان السلوك والاعتقاد يتم تحديدهما من خلال القوى البنائية الخارجية، عندما نقوم بتحديد الدليل المادي للفعل الذى يحدث او حتى الفكرة التى تشيع وتنتشر بين الافراد فما نملكه هو دليل تجريبي ملموس عن الحد الذى تستطيع عنده هذه القوى القيام بانتاج السلوك ووجود الاعتقاد.

ان جاذبية هذه الطريقة تعتمد على الدليل المادى التجريبى الخاص بانتاج المعرفة تبدو انها تعرض إمكانية التاكد من الدليل الملموس، إن العديد من الافراد الذين ينخرطون فى مشروع ما مرتبط باعادة البنية الاجتماعية والتقدم الاجتماعى. فعلم الاجتماع الخاص بالعالم الحديث. فان مثل هذا التوقع تكون له اهمية واضحة ملموسة. ويعد اوجست كونت من "١٧٩٨-١٨٥٧" هو اول من نادى بفضائل علم الاجتماع القائم على الاساسى الامبريقى **Emprically** ووفقا لبلتون **Bilton et al0** واخرون "١٩٨٧" الذى يعتبر واحداً مثل كونت المولود فى اعقاب الثورة الفرسية فان تطبيقات مثل هذا العلم الاجتماعى كانت متعددة وكذلك لان المعرفة الاجتماعية الوضعية توفر وسائل اعادة بنية النظام الاجتماعى بشكل سلمى من خلال

مجهودات علماء فترة التنوير وكذلك مفكرين هذه الفترة الزمنية فالتغير الاجتماعى لا يتطلب بالضرورة الاعتماد على العنف الثورى وتحكم الغوغاء والفوضى.

وقد ورث دور كايم هذا التقليد وقام بتطويرة وبناء معرفته عليه، فرأى ان تاسيس علم الاجتماع الذى يستطيع وصف كيفية تنظيم المجتمعات فى ضوء معرفة القواعد والقوانين المتحكمة والضابطة للسلوك الاجتماعى من خلال رؤية معاصرة متمدنة.

فوفقاً لدور كايْم بعد ذلك أصبح النظام نابع من الالتزام والالتزام من خلال وجود مجموعة من المعايير المشتركة والقيم المتبعة. وبالنسبة له فإن السبب الأساسى للخلل الاجتماعى الفردى يرجع الى الأنومي. **Anomie** وهى "ضعف أونقص المعاييرالتنظيمية" ويعد الأنومي نتيجة العقاب الكامن للمجتمع المعاصر المتنافس، وكذلك نمو الرغبات غير المحدودة؛ وذلك بدون معايير ضابطة للسلوك. فإن الأفراد يظهرون الكثير من الرغبات غير المشبوعة الشرهة بالإضافة للرغبات غير المحدودة وإثارة المشاعرالعامة وكذلك عدم الرضا. وقد أوضح دوركايم أن المجتمع القوى المنظم والذى تسود فيه الحرية الفردية التى تضمن فقط فى حالة وجود مجموعة من المعتقدات والسلوكيات المنظمة بشكل مقبول من خلال التنشئة الاجتماعية. حيث إن الفرد يخضع وينصاع للمجتمع وهذا الانصياع هو شرط حريته، ذلك أن حرية الأفراد تتكون أساساً فى ظل التخلص من الانقياد الاعمى وقوى الجهل المادية، وذلك يتم من خلال معارضة هذه القوى الظالمة الجاهلة باستخدام قوى الذكاء العظيمة المتمثلة فى المجتمع والتى يحتمى تحت ظلالها هذا المواطن. لماذا يكون النظام والتناغم والاتفاق مشكلاً لشئون المجتمع؟

التشابه أو التماثل العضوى

The Organismic Analogy

استخدم دوركايم أعمال العالم الإنجليزى "هربرت سبنسر" ليؤكد بأننا نستطيع أن نفهم وجود وخصائص أو ملامح البناءات الاجتماعية من خلال مقارنتها بوظائف وأعمال الكائنات الحية. ومن خلال الاسم يتضح أن الكائن الحى هو كيان حى يعتمد وجوده على كل الأعضاء المكونة له التى تجعله يؤدى وظائفه بشكل مناسب ومتوافق، ففى الجسم البشرى - على سبيل المثال - تتوافق الأعضاء كلها مع بعضها البعض فالمخ البشرى يعتمد على الوظائف التى تقوم بها الرئتان وهى تعتمد بدورها على القلب وهكذا باقى الأعضاء، بالإضافة لذلك فإن

لكل عضو وظيفته الفريده التى لا يستطيع أى عضو آخر القيام بها. فالقلب مثلاً يقوم بإشباع الحاجة للدم باستمرار كذلك الكليتين تقوما بتنقية الشوائب باستمرار من الجسم، وكذلك الكبد الذى يقوم بتصفية الدم الذى يضخه القلب.. وهكذا. وبمعنى آخرفإن وجود كل عضو من أعضاء الجسم البشرى يوجد بشكل مستقر حيث يؤدى وظائف معينة للنظام ككل، كما أن هذه الأعضاء لابد أن تقوم بوظائفها بشكل متناسق مع بعضها فذلك يؤدى فى النهاية لأن يقوم الجسم البشرى بوظائفه بشكل متكامل. إن الفرق بين الرجوع للكليات المتكاملة المندمجة كأنظمة أفضل من كونها بنيات يمكن فهمه بشكل بسيط من خلال الفرق بين الصورة الثابتة للنظام الكلى كبنية أساسية وما يمكن أن يبدو عليه هذا النظام عند عمله وقيامه بوظائفه المختلفة كنظام متوافق. ففى علم الاجتماع فإن المصطلحات غالباً ما تستخدم بالترابط مع بعضها الآخر. ومن ثم فان المجتمع يكون له بنيه وعمل كنظام.وقد أكد دوركايم بان النسق الاجتماعى يعمل كنسق عضوى، وتنشا المجتمعات من مجموعة البناءات الخاصه با لقواعد الثقافيه والتى تشكل المعتقدات والممارسات والتى تحت ظلالها يلتزم افراد المجتمع بهذه المعتقدات والممارسات، ويقوم علماء الاجتماع بوصف أى طريقة مؤسسة للتفكير أو العمل فى أى مجتمع، حيث يتم تجميع أعضاء هذا المجتمع كأنهم أعضاء مؤسسة أو مصلحة ما فى هذا المجتمع. وبالنسبة للوظيفيين فإن مؤسسات ومنظمات المجتمع مثل النظام الأسرى والسياسى والتربوى والدينى، كلها تماثل أجزاء الكائن الحى وأعضائه وتتكون المجتمعات من مجموعة من الأعضاء المترابطة المتداخلة، فكما هو الحال مع أعضاء الكائن البشرى فإن سبب وجود أى شكل لطريقة التفكير أو العمل المؤسساتية فى المجتمع هو أنها تلعب دوراً حيوياً فريداً أو باستخدام عبارة وظيفية تمثل وظيفة حيوية فى الصيانة والحفاظ على المجتمع فى وضع مستقر ثابت. كذلك فإن الوضع بالنسبة للجسم البشرى إذا فشل أى عضو فى القيام بوظيفته فغالباً ما تكون النتيجة هى سوء الصحة أو المرض أو حتى الموت فى النهاية. وبالنسبة لدوركايم فإن الفشل الوظيفى فى منظمة ما أو الخلل الوظيفى بها يقود ويؤدى لحالة مماثلة بالنظام الاجتماعى ككل. وللوظيفيين عبارات كثيرة من خلالها يستطيعون وصف هذه الحالة: "فقدان الترابط الاجتماعى" "نقص الترابط والتكامل" "فقدان التوازن" وهذه المصطلحات هى الأفضل عندهم للتعبيرعن هذه الحالة من الضعف.

وبشكل حيوى فإن هذا الكم من الأصول والأعمال الخاصة بالمجتمعات تعنى أن وجود المؤسسة المجتمعية كجزء من الكيان أو البنية المجتمعية ليست نتيجة استعداد افراد المجتمع وإقرارهم بالتصرف أو التفكير بمثل هذه الطريقة. نتيجة كل ذلك فإنه ليس من المتاح للأفراد حرية الاختيار فى أن يكون لهم أعضاء حيوية دون أخرى. فالأنسان لم يختار أن يكون له كبد أو زوج من الكلى إن هذه الأعضاء تتواجد بسبب أن الجسم يحتاج إليها للقيام بوظائفه وبمثل هذه الطريقة و وفقاً للنظرية الوظيفية فإن التنظيمات المؤسسية الخاصة بالمجتمع تتواجد كذلك ليس فقط بسبب أى اختيار أو حرية من طرف الأفراد الذين يعيشون فى هذا المجتمع وينتمون لهذ المؤسسات، إلا أنها تتواجد نتيجة أنها تمثل وتقوم بوظائف محددة مطلوبة للمجتمع داخل البنية المجتمعية ككل. ونتيجة لذلك فقد أوضح كل من أميل دور كايم وزملاؤه الوظيفيين أنه يجب توضيح وجود التنظيمات المجتمعية من خلال البحث عن الوظيفة التى يتم أداءها بواسطة هذه التنظيمات أو المؤسسات المجتمعية من أجل اشباع حاجات ومتطلبات المجتمع كوحدة كلية.

ان استخدام مثل هذا التشبيه يوضح أهداف هذه النظرية والمتمثلة فى تحديد وتوضيح أهمية رؤية المجتمع السليم كوحدة مترابطة متكاملة ومستقرة ومثال ذلك أن الكائنات الحية تمرض اذا تناقضت أعضائها المكونة لها أو اذا استمرت تفترس بعضها البعض. لذلك فوحدة الهدف ضرورية للكائنات العضوية للحفاظ على سلامتها، وبالتالى فالحال فى المجتمع وأنظمته كما هو فى الكائنات الحية.

ومن ثم فإن دور علم الاجتماع يجب أن يرتبط باستخدام العلم للكشف عن القوانين الحاكمة للبنى والمنظمات الاجتماعية وتوضح هذه القوانين أن وظيفة هذه المؤسسات هى خدمة و اشباع احتياجات النظام الاجتماعى وهو ما يطلق عليه: وظائف مؤسسات الآداء أو المؤسسات الخادمة لاحتياجات النظام الاجتماعى. وهذا هو مبدأ الوظيفية للأفراد الذين يحبون أن يعيشوا فى مجتمعهم بشكل صحيح سليم والتى من خلالها يستفيد المجتمع ككل والتأكيد على الوظائف التى تقوم بها هذه المؤسسات يعنى أن الأفراد يوافقون على كيفية تصرفهم ومن ثم فإن التنشئة الاجتماعية هى المفتاح الرئيسى للقواعد الصحيحة وتعد نتيجة كل هذه المراحل والظروف حيث يوافق كل فردعلى كيفية العيش داخل المجتمع وقيام المؤسسات المجتماعية المختلفة بوظائفها المتنوعة وكذلك القيام بعملية اشباع حاجات النظام الاجتماعى ومن ثم يصبح المجتمع متوافق ومترابط.

وجملة القول أنه إذا عانى المجتمع من خلل ما فسيكون من السهل ملاحظة ذلك الخلل حيث سيعانى المجتمع من عدم نظام داخله ويلى هذا صراع وانقسام وعدم توافق، ويرجع ذلك للخلل والعيب الذى يصيب العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع وفى ظل هذه الظروف فإن الحركة السياسية لها أهميتها فى ضوء وجود الدليل العلمى الاجتماعى لضمان الصفات الثقافية الصحيحة وإعادة تأسيسها بشكل سليم وتكون نهاية ذلك الوصول لمجتمع صحى سليم مترابط يسود الود بين أفراده ويتم تحديد دور كل منهم داخله.

نظرية دوركايم الوظيفية فى الدين:

Durkheims Functional Theory of Religion

يعد المثال التالى تطبيق للنظرية الوظيفية مأخوذ أساساً من أعمال دوركايم الخاصة ويسمى "الأشكال الأساسية للحياة الدينية ١٩٧٦" **The Elmentary Forms Religious Life** ففى استراليا توجد سلالة من شعب الأبوريجين تدعى "أورنتا" وهى تنقسم إلى قسمين: الأول هى السلالة المحلية وتسمى "اللباندس" وهؤلاء يعيشون معاً مجتمعين يوماً بيوم ويدبرون أمور معيشتهم وبقائهم من خلال الصيد وجمع الثمار من الأشجار كذلك فإن الأورنتا قد ينتمون لمجموعات أكبرتسمى فى هذه الحالة عشيرة **Clans** مثلهم مثل سلالات العشائرالتى تعيش باسكتلندا حيث كانت لهم أهميتهم الكبيرة منذ زمن بعيد وكل قبيلة أورنتا كلانز تتكون من مجموعة من الأشخاص الذين يؤمنون ويصدقون أنفسهم أنهم انحدروا من سلالة بعيدة شائعة ومن ثم يؤمنون بوجود صلة قرابة بينهم، ولكل " عشيرة " يوجد طوطم **Totem**وهو عنصرموجود بالبيئة الطبيعية يؤمن كل فرد أو أفراد هذه القبيلة بأن له أهمية خاصة له. ويعد الطوطم ذو أهمية خاصة فوفقاً لدوركايم فإنهم يضفون نوعاً من القداسة على هذا الطوطم من خلال الأهمية الدينية، ومن النادر لكنها مناسبات مهمة أن كل أفراد العشيرة المنتمون لفرق مختلفة يجتمعون ليعبدوا هذا الطوطم كما أنهم فى حياتهم اليومية حينما يمرون بطوطم خاص بهم يعاملونه بشكل من أشكال الاحترام والتبجيل لأنه يمثل شيء مقدس عندهم وعنصر طاهر لديهم.

كيفية تفسير ذلك؟ إن توظيف افتراضات النظرية الوظيفية، فإن دوركايم ليس مهتما بأى شكل فى نوايا أى فرد للأرونتا ليكون عندهم طوطم فى مجتمعهم، فمجمل القول أن هذا الطوطم كان موجود بالفعل بينهم قبل مولدهم وسيستمر فى

الوجود حتى بعد وفاتهم ولكنه يحتاج بدلاً من ذلك لتعريف وظيفة الطوطم ودوره الذى يقوم به لشعوب الأرونتا والاجابة على هذا التساؤل يراها فى ان العيش فى مثل هذه الظروف غير الثابتة وغير المستقرة فإن هذه الشعوب يحتاج كل منهم الآخر من أجل البقاء. ان المجموعات التى تنتمى إليها الأورنتا هى سلالة أجدادهم من قبل والالتزامات التى يشعر بها الآخرون لمساعدتهم عندما يحتاجونها هى أملهم الوحيد فى النجاة والعيش وفى ظل كل هذه الظروف أوضح دوركايم أن المطلوب هو تأمين بعض وسائل بقاء المجموعة اضافة إلى ذلك فإن معرفة هذه الالتزامات يجب أن تمتد لما هو وراء مجموعة الأعضاء منفردة واذا لم يحدث كل هذا "كما هو الحال مع الأفراد الذين لا يشعرون بأى نوع من الالتزام تجاه بعضهم البعض" فإن المجموعات أو الفرق ستتنافس وتتقاتل تجاه المصادر المحدودة المتاحة فى المجتمع الذى يعشن فيه ومن ثم سيقومون بسحق كل منهم الآخر.

وفى حياة شعوب الأورنتا الاجتماعية فإن الاجابة على هذه المشكلة المتعلقة بترابط المجموعات المنفردة هى ما يسمى بالتوتوميزم. ان التوتم كما أوضحه دوركايم هو شعار العشيرة فهو رمز لهذه الشعوب داخل مجتمعهم والذين لا يعيش معه أفراد هذه الشعوب ولكنهم يحسون بالانتماء كأقربائهم فهم أفراد يتوجب مساعدتهم ودعمهم عند الضرورية، ومن خلال الطوطم الذى يمثل رمز المجموعة فإن أفراد المجموعة يشعرون دائما بالانتماء تجاه بعضهم كما يشعرون بوجودهم، ففى المناسبات الاحتفالية عندما تجتمع القبيلة لعبادة الطوطم فإنه يعاد التذكير بأهمية رمز الطوطم لهم كما أوضح دوركايم أنه من خلال عبادة الطوطم فإن شعوب الأورنتا يعبدون ويقدسون الجماعة.

ومن ثم فإن وظيفة الطوطم هى توحيد للأفراد داخل النظام الاجتماعى بالأورنتا وذلك من خلال توحيد أجزائه معاً وتحديدها والحفاظ عليه كوحدة واحدة.

فقد أوضح دوركايم ذلك بعبارته أن الطوطم هو وسيلة التضامن الاجتماعى وتماسكه، ومن ثم فقد أصبح الطوطم هنا غير مفسر كلفظ فى حد ذاته أو حتى العقيدة التى يعبر عنها من خلال محتواه ولكنه أصبح مفسر وموضح ومعترف به ومقدس من خلال ما يقوم بفعله لهم وهذا من خلال الوظيفة التى يقوم بها للنظام الاجتماعى ومن ثم فقد استفاد كل الوظيفيين بمحاولة تطبيق دوركايم هذا على كل الأديان، فبالنسبة لهم كوظيفيين يتواجد الدين باستمرار حيث تحتاج كل الأنظمة الاجتماعية للترابط والتوحد، كذلك فقد أوضح الوظيفيون ان ما هو ممتع وشيق ليس ما هو شاذ ومختلف عن المراسم الدينية والمعتقدات والطقوس التى تعتبر خاصية للتوتم وحتى البوذية أو الهندوسية وكذلك اليهودية والمسيحية. فبالنسبة لهم ما هو

شيق وممتع يتمثل فى كل ماهو متشابه مع ما يقومون به حول الوظائف المتداخلة المتوحدة التى تقوم بها كل هذه الأديان لنظامهم الاجتماعية المختلفة.

وفى الوقت الحالى المعاصر تمت مواجهة الوظيفيين بالمشكلة الكبيرة لشرح كيفية أن الدين والذى يمثل عندهم المحور الأساسى لتوحيد المجتمع واستمراره قد أصبح عديم القيمة فى كثير من مجتمعاتهم وبشكل لا يمكن منعه اوحجبه فإن البعض قد جادل حول مدى ما خسره الدين من أهمية فى عديد من االمجتمعات وهو ما يسمى "العلمانية" **Secularisation** فإن وظيفة الترابط استمرت ليتم ادائها بمتغيرات اخرى وظيفية معاصرة بديلة للدين، وقد أوضح البعض أن هذا ما يحدث حتى فى بعض المجتمعات غير المتدينة ومنها الشعوب أو المجتمعات الاشتراكية لشرق أوروبا. ان اعتناق الأفكار الاشتراكية والالتزام بطقوسهم مثل الاحتفال بعيد العمال بالاتحاد السوفيتى السابق تم تمثيله على أنه متشابه مع الاحتفالات والأفكار الدينية حيث تم الاعتراف بها على أنها تشبع وتواجه الحاجة لمشاركة مجموعة من القيم والطقوس الجمعية الموجودة بالعديد من معتقدات الديانة الأرثوذكسية وكذلك ممارستها بالعديد من المجتمعات الأخرى حتى فى أكبر وأعلى المجتمعات العلمانية بأروبا الغربية، فقد رأى بعض الوظيفيين أن وجود نوع من الديانة تؤدى بعض الوظائف القديمة. وقد أوضح روبرت بيلاه **Robert Bellah** ان وجود الدين المدنى بالولايات المتحدة والذى يستحدم فيه كل من التاريخ الأمريكى والمؤسسات الأمريكية لضمان التأكيد على مجموعة القيم الأمريكية الحيوية، وهذا هو ما صاغه روى والاس **Roy Wallis**١٩٨٣ " أوجد بيلاه الدليل على وجود الدين المدنى فى مثل هذه الاحداث المرتبطة بالافتتاحيات الرئيسية. إن الخطابات الافتتاحية تهدف إلى:

أن يتم صياغتها فى مصطلح دينى من خلال الاشارة الى الرب فى مصطلحات عامة. وهذا الأسلوب البلاغى تم اقتباسه ليتم التعبير به عن الالتزام الحقيقى من جانب المشاركين بالقيم والرموز التى توحد المجتمع وتوفر له قدسية الشرعية للقيام بأعمال المختلفة والعديد من الاحتفالات الدينية الأخرى كعيد الشكر ويوم الشهداء التذكارى تستخدم كمثل لتوحيد الأسر المختلفة داخل الدين الاجتماعى أو حتى توحيد المجتمع حول قيمه الخاصة

وما هو واضح للجميع الاهتمام بتأثيرات الدين أكثر من الاهتمام بمعتقداتها الثابتة. أولاً ان العديد من أنواع الأنظمة القائمة على المعتقدات الدينية يتم جمعها معاً

وذلك بسبب الوظيفة المتداخلة الموحدة التى تقوم كل منها بآدائها. ثانياً: ان العديد من الأنظمة العقائدية المختلفة وبدون أى مرجعية الى وجود الآلهة أو الأرواح او حتى الحياة بعد الموت هى متكافئة ومماثلة للدين. وهذا هو ما يعتقده البعض وقد يعزو هذا لسبب هو نفس الوظيفة التى يقومون جميعاً بآدائها وهذا يوجه انتباهنا الى ملمح مهم للتفسير الوظيفى. وبشكل واضح فإن سكان الهند وأيرلندا أو إسرائيل قد يجادلون بأن دينهم ليس متشابه مع بعضهم البعض منذ أن كان تركيزهم الأساسى على المعتقدات نفسها وليس على التأثيرات المصاحبة او التابعة لهذه المعتقدات. وبالنسبة للوظيفى بالرغم من أن شرح المعتقدات أو شكل السلوك الملاحظ فى المجتمع والذى يتم اعتناقه بواسطة أفراد المجتمع ليس غالباً ما ينظر إليه على أنه مرتبط وبالنسبة لهم فإن العواقب أو التوابع غيرالمقصودة لحركات الناس ومعتقداتهم يجب تعريفها، ومثل هذه العواقب أو التوابع والتى ليس بالضرورة أن تكون واضحة للأشخاص المعنيين، فالرغم من ذلك فإن لها تأثيروظيفى حيوى واضح للنظام الاجتماعى وللتمييز بين هذين المستويين من التحليل فإن الوظيفين بشكل هام يشيرون للوظيفة الظاهرة **manifest function** للمؤسسات وخاصة تلك التى يتميز أفرادها بأنهم واعيين ومدركين، وكذلك الوظائف الكامنة **latent function** المرتبطة بالأفراد غير الواعيين. ان مثل هذه الوظائف الكامنة هى أكثر أهمية للتعريف بهدف فهم الوظيفة والثبات لهذه الأنظمة الاجتماعية.

والملامح التالية هى خصائص التحليل الوظيفى كما يلى:

١) الاهتمام بتأثير نشاط ما أو معتقد ما، فضلاً عن مكوناته الثابته المستقرة أو ما تقوم بفعله والقيام به، فضلاعن ماهيتها.

٢) التركيز على الحاجة الى الاهتمام بما هو وراء شرح الأفراد وتفسيرهم للأنشطة بهدفالكشف عن الأهمية الوظيفية الحقيقية للسلوك المؤسسى أو حتى المعتقد المرتبط بالمؤسسات.

وبالنظر الى مثال مشهور من الأنثروبولوجيا الوظيفية ستكون عندنا القدرة على رؤية ملامح وتوابع هذه الاهتمامات الوظيفية المحورية.

الكولا The Kula

كان مالينوفسكى أول عالم أنثروبولوجى يهتم بمجال الدراسة طويلة المدى فى البحث الميدانى **Research Field** خلال أربعة اعوام ما بين ١٩١٥ ١٩١٨ عاش بين أفراد جزيرة تروبياند والتى تتكون من سلسلة من الجزر الصغيرة على

ساحل غينيا الجديدة، وقام بنشرمجموعة من الكتب واصفاً وشارحاً ملامح مختلفة للحياة على هذه الجزيرة والتى كان أشهرها ما يسمى بالكولا فى كتابه مغامرون فى غرب المحيط الهادى **Argonauts of the Western Pacitifc** والتى يتم تنفيذها من خلال سكان جزر التروبياند وأعضاء المجتمعات القبلية الأخرى والذين يعشون محاطون بهذه الجزر. وقد وصف مالينوفسكي: الكولا كما يلي: ١٩٢٢ " تعد الكولا نوعاً من أنواع التبادل وهى ملمح قبلى إلى حد بعيد ويتم تنفيذ مثل هذه العادة من قبل المجتمعات القاطنة فى مساحة كبيرة من الجزر التى تشكل دائرة مع بعضها البعض. وعلى مدى هذا الطريق فإن هناك نوعان من العقود، وهاذان النوعان فقط هما المتجهان فى طريقين متناقضين فى اتجاهات عقارب الساعة وهذا هو المبدأ المحرك لأحد هذان النوعان بشكل مستقر وثابت ومن ملامحها عقود طويلة من الصدف الأحمرتنتقل فى اتجاه عقاب الساعة فى حين نجد أن الأساور اليدوية المصنوعة من الصدف الأبيض تنتقل فى اتجاه عكس عقارب الساعة وتسمى "ماولاى" وكل من هاتين العقود تتجه فى اتجاهها الخاص فى هذه الدوائر المغلقة وتتقابل فى طريقها عقود الطبقة الأخرى وتتبادل معها باستمرار، وكل حركة لتقاليد الكولا وعقودها وكل تفاصيل خاصة بالتعاملات بها ثابتة ومنظمة بواسطة مجموعة من القواعد المكونة من التقاليد والعادات والاعراف بالاضافة إلى مجموعة من الأحداث الخاصة بالكولا، تصاحب بالعديد من الطقوس السحرية والاحتفالات العامة.

وفى كل جزيرة وقرية يوجد عدد قليل أو كبير يشاركون فى الكولا ومن ثم يمكن القول أنهم يقومون بجمع واستقبال البضائع ويحجزونها لمدة زمنية قصيرة، ومن ثم يقومون بتوزيعها ومرورها، وبعد ذلك فإن كل فرد من الأفراد المشاركون فى الكولا بشكل مؤقت وليس منتظم يقومون باستقبال العديد من "الموالى" **(Mwali)** وهي أصداف الزراع أو عقود السولوفا أوهى العقود المصنوعة من مقاعد الصدف الأحمر ثم يقوم بتسليمها لشريك آخر مرتبط به والذى يقوم بأخذه منه فى مقابل النوع المعاكس من البضائع بالتبادل، ومن ثم لا يقوم أى فرد بالاحتفاظ بأى نوع من أنواع البضائع لمدة طويلة زمنياً ملكاً خاصاً له، والقيام بعملية تبادل واحدة لا تنهى علاقات الكولا، بل إن القاعدة الشائعة فى الكولا هي دائماً ما تكون فى الكولا، وعلاقة المشاركة بين فردين هى علاقة دائمة ومستمرة فى أى موالى أو سولوفا قد توجدفى طريقها للسفر من يد الى يد أخرى من خلال التبادل المستمر، ولا يوجد أى مكان لكونها مستقرة وثابتة فى مكان واحد، ومن ثم فإن المبدأ الواحد فى الكولا دائما يتم تطبيقه بالمتغيرات نفسها.

كيف يتم تفسير مثل هذا النظام؟ أوضح مالينوفسكى أن وجهة نظر هؤلاء تتضمن أن حلقة الكولا وسيلة مهمة لاكتساب احترام الآخرين، ففى المجتمع الصناعى تستخدم الاشياء والمواد الخام المتعددة بهدف اكتساب الاحترام الاجتماعى، حيث صاغ ثورشتين فيبلن **Thorstein Veblen** المفهوم المشهور الاستهلاك المظهرى **Conspicuous Consumption** " ليصف الاسلوب الذى لا يمتلك به الأفراد فى المجتمعات الغربية للأشياء من أجل الاستخدامات العملية فقط ولكن لقيمتها المستفادة من هذه الأشياء كما أوضح كيفية بحث الأفراد عن الأشياء لامتلاكها للقيمة التى قدتعنيها بالنسبة لنا كرموز لكيفية حبنا للآخرين، وكيفية الطريقة التى يفكرون بها نحونا. وبالرغم من أنه قد يوجد استفادة معيشية لمالك سيارة " الروزرويس **Rolls Royce** بهدف ليس فقط الرفاهية الفاخرة التى توفرها مثل هذه السيارة ولكن ايضاً تظهر أهميتها من خلال قيمتها الرمزية التى تضفيها لمالكها، فهى تعبرعن الممتلكات أو ما تتضمن من أهمية لمالكها. ونفس الاعتبارات يمكن الاهتمام بها عند امتلاك معاطف المنك او الألماس **Mink Cook** أو حتى امتلاك العديد من المنازل وبخاصة فى الأماكن المؤهولة بالسكان.... وهكذا.

ان قيم الكولا تمكن كذلك وبشكل مماثل سكان التروبرياند وجيرانهم لاكتساب الاحترام الخارجي من الآخرين ولكنها تفعل ذلك بشكل مختلف تماماً، ففى الكولا لا توجد مزايا أو فوائد أو حتى احترام خارجى مرغوب للحفاظ على قيمة ما ولكنك تنال إعجاب الآخرين لسببين أسايين، الأول هو أنك تم اختيارك من قبل زميلك أو شريكك لتصبح مستقبل للعقود القيمة دون الاهتمام بأى شريك آخر، والسبب الثانى يتمثل فى أنك تستطيع أن تظهر نفسك كشخص كريم بالتنازل عنها بعد ذلك فى المقابل وهذا هو ما أوضحه مالينوفسكى ١٩٢٢م.

"ان الملكية فى الكولا هى عبارة عن علاقة اقتصادية خاصة، فالشخص بالكولا لا يحتفظ بأى عقد لمدة أطول زمناً أكثر من عام أو اثنين حتى أن هذا قد يجعله يتصف بالبخل من قبل الآخرين، وعلى الطرف الآخر فإن كل فرد يمتلك كم متنوع من العقود التى تمر خلال يديه فى تبادل مستمر عبر حياته الطويلة والتى من خلالها يستمتع بنوع مؤقت من حب التملك والتى قد يحتفظ بها بثقة لمدة زمنية محددة وامتلاكه لهذه العقود يجعل من الشاق عليه استخدام هذه العقود ويظل تحت وطأة والزام عودتها وارجاعها مرة أخرى لأيدى الآخرين من شركائه، إلا أن الملكية المؤقته لهذه الأشياء تجعله يكتسب شهرة واسعة ليعرض سلعه وبضائعه

وكيفية اخبار الآخرين بالطريقة التى حصل عليها بها وكذلك التخطيط لعملية إعادة هذه البضائع للآخرين وخاصة الشخص الذى يقرر أن يعطيها له فيما بعد.

وهنا يجب ملاحظة أن السمعة الاجتماعية غير مرتبطة بامتلاك هذه البضائع بهدف الملكية فى حد ذاتها إلا أن أن الهدف من الرغبة فى محاولة تملك البائع ليس لامتلاكها ولكن من أجل إعطائها للآخرين فيما بعد. وقد صاغ مالينوفسكي ذلك بكلامه من خلال " ان الفرد الذى يمتلك شيء ما هو بطبيعة الحال سيقوم بمشاركته كما هو متوقع له وسيقوم بتوزيعه ومن ثم يصبح مصدر الثقة لهذا الشيء وكذلك موزعه. ان الغرض الأساسى أو الملمح الواضح لتصبح ذو قوة هو أن تصبح ثرى، ومن ثم بعد الحصول على الثروة لتصبح كريم وكلما زادت أهمية هذا الفرد كلما زادت رغبته ليلمع كشخص كريم.

ومن ثم يمكن توضيح ذلك بأننا نمتلك الاجابة عن الكولا فهى نظام للكرم المظهرى. وبالنسبة لبارودى فبلن **Parody Veblen** فهى طريقة للسماح للآخرين لاكتساب أهمية معينة ومن ثم يتم رؤيتها كأشخاص مهمين ولكن البحث عن المكانة ليس إلا امتياز للمادية الغربية والتروبرياندیون يرون أن اعتقاد الآخرين فيهم بأنهم مهمون وذوى نفوذ هو مجمل القصة. وبعد ذلك كله فإنهم يتعلمون الكولا وهى موجودة قبل وجودهم فهم لم يقوموا بابتكارها. وفى هذه الحالة هل يمكن الاعتماد على آرائهم حول هذا الموضوع؟ ان الجانب الوظيفى عند مالينوفسكي لا يسمح له بالتوقف عند ذلك فقط فهو يحتاج للمعرفة أن الكولا حلقة مهمة للنظام الاجتماعى التروبرياندى ككل فهو يحتاج لمعرفة وظيفة الكولا وما تقوم به.

ان الاجابة أن مالينوفسكي والمحللين الوظيفيين لمادته التعليمية يهتمون بهذه الخطوط لأن العديد من تبادلات أفراد الكولا تحدث بين الشركاء الذين يعيشون على الجزر البعيدة عن بعضها البعض أميالاً عديدة فوجودها يسمح بالعلاقات الاقتصادية والسياسية بين الأفراد الذين قد لا يتقابلون تحت وطأة أى ظروف أخرى، وتعد النتيجة هى ظهور نوع من التداخل الاقتصادى والسياسى لكل الافراد الذين ينتمون للمجتمع التروبرياندى والمجتمعات الأخرى على الطرف الآخر.

الوظيفة الاقتصادية للكولا

The Economic Function of The Kula

بالرغم من أن شركاء الكولا غير مسموح لهم ان يقوموا بأى نوع من التجارة العادية مع بعضهم، فإن الأفراد غير الشركاء مسموح لهم بذلك، ومن ثم

فإن قطاع عريض من أفراد جزيرة واحدة فى حالة قيامهم بالتبادل مع أفراد جزيرة أخرى لا يعتبرتطبيقاً للكولا وتبادلاتها، وبين الأعضاء الذين لا يعتبرون أعضاء للكولا فإن التبادل والبيع لبضائع وسلع الكولا يعتبرأمراً عادى. ووفقا لمالينوفسكى ١٩٢٢ تعد مثل هذه وظيفة كامنة **Latent Function** للكولا فهى تجعل علاقات التجارة متاحة بين الأفراد الذين قد لا يتقابلون فى تفاعلات وتبادلات فيما بينهم.

"وجنبا بجنب مع التبادل الطقوسى والشعائرى فإن السكان الأصليين يقومون بالتجارة العادية" من العقود والاسوار بالانتقال والترحال من جزيرة لأخرى، ومن ثم ينقلون معهم البضائع والسلع المفيدة وغالبا لا يمكن الحصول على مثل هذه السلع فى المناطق التى يتم استيرادها اليها.

ومن ثم فقد أصبح هناك وظيفة اقتصادية للكولا قد لا يدركها الأفراد ويعدونها ذات أهمية ثانوية لتبادلات الكولا. وعلى النقيض بالنسبة للوظيفيين فهى نتيجة تابعة أوغيرمقصودة لأنشطة الشعوب. والتى يكون لها اهمية عظيمة لتحقيق هويتها.

الوظيفة السياسية للكولا

The Political Function of the Kula

من الأمر الواقعى أن الكولا تتيح نوعا من التفاعل الاجتماعى بعيد المدىبين كل أفراد مجتمع التروبرياند ومن ثم تقوم بربط ودمج هذه المجتمعات مع غيرها بعيدة المسافات، ومن ثم فإن الوظيفيين ينقدونها من جذورها. وقد أوضح خبير من مغامرين عبر فى المحيط الهادى ان رأيهما حول الوظيفة السياسية للكولا والتى تم توضيحها من قبل مالينوفسكى نفسه كما يلى:

أن الشخص المتوسط لديه القليل من الشركاء، فهو يكون علاقات حميمة والشريك الغريب فى المناطق الخارجية على الطرف الآخر يكون ضيفاً وحليفاً فى حالات الخطر وعدم الامان، ومن ثم تصبح الكولا مؤسسة كبيرة ومعقدة وهى بذلك تقوم بدمج ونسج عدد كبير من القبائل معاً وتقوم بأداء وممارسة مجموعة متنوعة من الأنشطة المتداخلة، ومن ثم فالكثير من الجهد يبذل بهدف دمج الكل فى وحدة واحدة متكاملة.

وفى دراسة متأخرة لبيانات مالينوفسكى أوضح أوبيريو **Uberio** ١٩٦٢ ان الوظيفة المتكاملة للكولا هى أكثر استقراراوتأسيساً مما اعترف به مالينوفسكى واشتملت نظريته على أن بضائع وأغراض الكولا الثمينة تمتلك من قبل الأفراد

وليس من قبل الجماعات نفسها،ويلاحظ أنه في الكولا يندمج الأفراد فى علاقات كأفراد فضلا عن كونهم ممثلين للجماعات كما يظهر فى الكولا الاهتمام بالذات بشكل واضح أكثر من الجماعة وتعد هذه القوة المحركة لها، وهنا يطرح سؤالاً هاماً: كيف يكون هذا التقليل من اهمية علاقات القرابة فى حلقة الكولا مما يجعلها قادرة على تحقيق التكامل السياسى فى المجتمع المحلى ككل؟

وهنا اوضح أوبريو أنه بسبب أن الكولا تمكن الافراد من التحرر من الالتزام لجماعة القرباء فإنهم يصبحون قادرين بشكل كبير على ادراك المجتمع التروبريندى على أنه وحدة واسعة وهذا بالأحرى ما يوضحه الطوطم فى مجتمع الأرونتا فى المجتمع الأكبر. ان الكولا تشجع التروبرياند على التفكير فى مجتمعهم كوحدة وككل متكامل دون مجموعة من جماعات الأقرباء المتنافسة المتصارعة وهذا ما أوضحه أوبريو ١٩٦٢ أن: الكولا تمتد بالمجتمع السياسى فيما وراء المقاطعة التى يوجد بها الأفراد من خلال تخفيض الروابط بشكل مؤقت و التى تربط الفرد بالآخرين داخل سلالته أو منطقته.وكذلك التأكيد على الالتزام تجاه شريك الكولا المرتبط به الذى ينتمى لمقاطعة مضادة لمقاطعته، ويعد هذا تحليل وظيفى نموذجى.

إن حسابات الأنشطة التى يتم أدائها بواسطة الأفراد يتم نسيانها إلا أن الاهتمام هو ما يكون مرتبط بالفائدة التى يحققها نشاط نظام ما أو حتى قام بتحقيقها من أجل المجتمع كوحدة متكاملة ويعد الافتراض أن النظام لا يمكن أن يوجد الا اذا كان هذا ضرورى لها.

التغير الاجتماعي Social Change

وهنا نحن لا نستطيع تفسير مصدر سعادة الافراد وصحة المجتمع، ومع هذا فمشكلة التغير الاجتماعى يجب ان تكون محددة على النحو التالى:

أ- لا يقوم كل الوظيفيين فقط بالاهتمام بالحقيقة التى تقول بأن التغير لابد أن يحدث فى المجتمعات ولكن أيضاً.

ب- بفكرة التحديث **Modernity** النموذج الحديث التى تفترض أن المعرفة توفر للبشرية الفرصة لخلق مجتمع جيد ويستطيع هذا التغير إحداث نوع من التقدم الذى يعد شيء جيد ومن ثم فإن الباحث الوظيفى يواجه مشكلة ما هنا. ان النموذج الوظيفى للفرد قائم على

نموذج الاتفاق البنائي والذى يتم صنع اختياراته لأجله من خلال التنشئة الاجتماعية لتصبح حديثا وفق التقدم والتطور وللسماح بهذا التغير الاجتماعي وتحقيقه من قبل الفاعلين الاجتماعيين وهم هؤلاء الأفراد الذين يقومون ببناء المجتمع ونشأته ويقلبون العلاقات الاجتماعية رأسا على عقب. ويدور الوظيفي حول هذا بهدف استخدام التماثل العضوى مرة أخرى، ويقول أن التقدم الاجتماعى يحدث كما هو الحال مع الكائنات الحية على أساس أنه "تغير تطورى" **Evolutionary Change** ويأخذ التغير شكل الاختلاف البنائي. كما أوضح ميلتونوأخرون ١٩٨٧ أنه كما يحدث فى تطور الحيوانات التى تقوم بخلق نوع من الأعضاء المعقدة المتخصصة بهدف القيام بوظائف محددة للكائن الحي.

ومن ثم فان الاختلاف يعنى أن يقوم المجتمع بتطوير مجموعة من النظم المميزة التى تتعامل وتتفاعل مع مجموعة من احتياجات المجتمع ككل.

.....ان الاختلاف هو شكل أو نمط للتقسيم أو الفصل داخل الوحدة المرتبطة غير المنقسمة كما أن الوحدات الجديدة التى تنشأ من هذا الفصل أو التقسيم تختلف عن الوحدة الكلية السابقة لكونها أكثر تخصصاً فى الوظائف التى تقوم بها. وتختلف الوحدتان الجديدتان مثلاعن بعضهما منذ أن تمت نشأتهما فى شكل معين يقوم فيه كل منهما بوظائف فريدة خاصة به والتى لا تستطيع الوحدة الأخرى القيام بها.

وهذا يؤكد على أن الاختلاف يعد واضحا فى أتجاه تالكوت بارسونز **Talcott Parsons** للقرن العشرين والخاص بالتغير الاجتماعي. وقد أثبتت نشأة الثورة الصناعية فى المجتمعات الحديثة المتقدمة الدافع الرئيس للتغير الأسرى وذلك لأن الاقتصاد الصناعي الحديث يتطلب شكل جديد من الأسرة للقيام بالوظائف المتخصصة الجديدة، وقد قوبلت هذه الحاجة بنوع من الاختلاف ومن ثم فقد تم التأكيد على ضرورة حدوث التطور والتقدم وقد أوضح بارسونز ذلك عام ١٩٦٦ بكلماته الخاصة كما يلى: " ان العلاقات الحميمية المنظمة داخل المنزل الموجودة فى المجتمع التقليدى غير الصناعى هى وحدة الاستقرار والوحدة الأولية فى الانتاج الزراعى بينما فى المجتمعات الصناعية بالرغم من ذلك فإن العمل الانتاجى يتم آداؤه بواسطة مجموعة من الوحدات الخاصة المتخصصة ومنها

ورش العمل **Work Shops** والمصانع والمكاتب والتى تدار بواسطة مجموعة من الأفراد الذين هم أيضاً أفراد فى أسرعائلية، ومن ثم هناك مجموعتان من القواعد والتجمعات المختلفة ولكل منها وظائفها المستقلة، ويعد هذا التقسيم للأسرة النووية عن الانتاج لا يعنى أن الأسرة قد فقدت أهميتها ففى النهاية فإن هذه العملية عملية رقى وتقدم وتحسين. إن فقدان الوظيفة الاقتصادية لأماكن العمل المتخصصة يعنى أن الأسرة الجديد غير منتجة و تركزعلى آداء الوظائف غير الاقتصادية أكبر من الاهتمام بكلا الدورين من خلال ما تقوم به الاسرة الريفية فى الفلاحة. إن ازالة النشاط الاقتصادى من المنزل يعنى أن أفراد الاسرة يوفرون وقتاأطول ومزيداً من الانتباه لكل منهم للآخر ومن ثم فإن الخصائص العاطفية والحميمة للعلاقات الاسرية وخاصة بين البالغين تصبح أكثر اتثاقاً وترابطاً والمزيد من الجهد يتم ادخاره لتنشئة الأطفال الاجتماعية وقد أوضح بارسونز ١٩٧٢ الفوائد التى تعود على النظام الاجتماعى من خلال أن هذه الأشكال من التطورات تزيد من أهمية الاسرة كمصدر للقاعدة العاطفية الآمنة لمشاركة الأفراد فى المجتمع، وفى نفس الوقت فإن هذا الانتاج يحدث فى المواقع المخصصة بشكل محدد لهذه المهام فقط منفردة ويعد آداء هذه الوظيفة الاقتصادية مطلب حيوى له قيمته، كذلك فإن من فوائد النظام الاجتماعى من خلال عملية الرقى والتطور فإن العديد من المجتمعات الحديثة تتقدم بشكل واضح وملموس، ومن ثم فإنه كما ان للبناءات الاجتماعية شخصيتها وخصائصها المميزة لها ليس بسبب النوايا المقصودة والغرضية للأفراد ولكن بسبب احتياجات النظام، ومن ثم فإن التغير الاجتماعى يحدث نتيجة لذلك وبناءاعلى ذلك فإن التشبيه بالكائنات الحية يشرح كل من البنية الاجتماعية والتغير الاجتماعى كذلك، وعلى هذا فإن الوظيفية قد تصبح نظرية تمجيد لقيم الحداثة ولكنها ما زالت ترى الفرد على أنه مخلوق اجتماعى. **as asocial creation**

وقد كان للوظيفية تأثير كبير على علم الاجتماع فكما تم ملاحظته فى بداية هذا الفصل فإنه من خلال النصف الأول من هذا القرن فقد احتلت مكانة نظرية مرموقة وغير قابلة للتحدى فى هذا المجال، وبالرغم من أهمية تأثير الأنثروبولوجيا فى بريطانيا ولكل من تالكوت بارسونز وأعوانه بأمريكا، إلا أن منتصف هذا القرن شهد كون علم الاجتماع أصبح أكثر أو أقل من مجرد مرادف لعلم الاجتماع الوظيفى، كما تم الاحتفاظ بخلفياتها النظرية فى النظريات الاخرى،

وقد أصبح المشروع الاجتماعى بناءً لذلك يُرى أساساً بوصفه مختص بالبحث من أجل الأهمية الواقعية للنظم الاجتماعية وخاصة المساهمة والمشاركة التى تقوم بها بالحفاظ على الأنساق الاجتماعية **Social System** والتى وجدت فيها، مثل هذه المشاريع وبنسب أن تأثيرها بدأ يتضاءل ويضمحل فى عصرنا الحالى فمن السهل نقد وجهة نظر ورؤية الوظيفية الضيقة وخاصة من قبل وجهة نظرمؤيدها. كذلك لابد للنظر للأفراد ليس على أنهم يتعلمون فقط بشكل طوعى سلسلة من القواعد الثقافية الخاصة بالفعل، ومن ثم فإن أنظمتهم الاجتماعية يجب الإصرار عليها والتمسك بها، ولعله من الواضح فى عصرنا الحالى أن علم الا جتماع يجب أن يضع فى الحسبان القدرات التفسيرية للأفراد بهدف فهم أفعالهم المختلفة وخلال تعطشنا للسيطرة على الأخطاء والمساوئ الموجودة فى النظرية الوظيفية أو نظرية التوافق البنائى، فيجب عدم نسيان الاقرار بمساهمة ومشاركة هذا النوع من النظريات فى علم الاجتماع. ان النتائج الاجتماعية العفوية وغيرالمقصودة الخاصة بمعتقدات الأفراد وأفعهالهم لها أهميتها فى التعرف على ملامح هذه النظرية ولعلم الاجتماع واجب أو مهمة إلهامية مهمة أو واضحة وحيوية وهى مهمته فى بعض الأحيان لمعرفة ما هو وراء شرح وتفسير الناس لأفعالهم بهدف فهم السلوك الاجتماعى، وتعد هذه المهمة من ضمن مشاركة ومساهمة الوظيفية، كذلك فمن الخطأ إغفال وانكار نقاط ضعف الوظيفية ولعل أوضحها الأربع نقاط التالية والتى تعد واضحة غالباً فى التعرف عليها وهى توضح أن الوظيفية:

١- لها اتجاه غير واضح لتغيير المجتمع
٢- غير قادرة على شرح وتوضيح التغير الاجتماعى بشكل مناسب.
٣- مبنية على وجهة نظر فوق اجتماعية للكائنات البشرية.
٤- لا تأخذ فى الحسبان القوة والصراع داخل المجتمع.

الوظيفية والتحول فى المجتمع.

Functionalism and the Reification on Society

أوضح الوظيفيون وشرحوا وجود الأشكال والأنماط المؤسساتية للسلوك والاعتقاد بمعنى أو بلغة التأثيرات الجديدة المرتبطة بالنظام الاجتماعى الذى تواجدو فيه ولا تعدا لنظم هى ناتج عملية القرارات التى يتم أخذها من قبل الأفراد، وذلك

لأن مثل هذه النظم وجدت قبل تواجد الأفراد ذاتهم. ان مشكلة النظام الاجتماعى ليست كيفية جعل الأفراد يخلقون مجتمعاً منظماً، إلا أنها مرتبطة بكيفية قيام النظام الاجتماعى بخلق كائنات اجتماعية تترابط من خلال الامتثال لقواعد السلوك اللازم لتواجدهم، ويعد الإصرار على أن المجتمعات تكتسب خصائصها وملامحها الوظيفية قبل وجود أفراد هذا المجتمع، وإذا لم يقرر الأفراد ما هو وظيفى بالنسبة لمجتمعهم فمن سيقرر ذلك، وبناء عليه فالوظيفى يهتم بمسألة مطروحة وهى أن النظام الاجتماعى نفسه يحدد ما هو مناسب وملائم له. وتعانى هذه المسألة غموضاً واضحاً حاليا فالمجتمعات لاتستطيع أن تفكر ولكن الأفراد يستطيعون، فالوظيفيون يحولون المجتمع إلى شئ مادى من خلال دمجة بالقدرة على التفكير والعمل أو التمثيل بشكل مقصود، وهذه الوظيفة لا يقوم بها سوى البشر فقط.

الوظيفية والتغير الاجتماعى.

Functionalism and Social Change

تقوم الوظيفية بدور المحفز لتحقيق صورة المحافظة والثبات داخل المجتمع، وتعد الوظيفية فى قيام المؤسسات بالاستمرار فى التواجد بسبب كونها وظيفية الدور فهى تقوم بدور إشباع وسد الحاجة المرتبطة بالنظام الاجتماعى، وتتمثل وظيفة عالم الاجتماع فى محاولة كشف الاثار الايجابية أو الجيدة والتأثيرات الايجابية المرتبطة بنظام ما وترتبط هذه الوظيفة بالتبريرالتلقائى للوضع الراهن المستمره فى مجتمع ما وهذا يوضح أن كل الترتيبات الاجتماعية فى مجتمع ما لابد أن يكون لها فائدة معينة وإلا لايجب أن تستمر فى التواجد. وعندما يتم مواجهة التغير الاجتماعى فيتم النظر اليه على أنه حركه تطورية وتعديلية بإلاضافة الى أنها عملية بطيئة وذلك أن النظام الاجتماعى يقوم بعملية تعديل الظروف الجديدة. وهذا يترك النظرية غير قادرة على الشرح بشكل سريع لعملية التغير المفاجئ المعرقل والذى يقوم بوظيفة الالهام للتجديد والتحديث، ومن ثم القيام بعملية الانقلاب للبنى المتواحدة، ويمكن النظر الى الأحداث التى وقعت بأوربا الشرقية فى ١٩٨٩، ١٩٩٠، ١٩٩١ على أنها يصعب شرحها على أنها ملاحظة وظيفية للتغير كنوع من التوافق العضوى كما يحدث فى الكائنات الحية فى عملية التطور.

الوظيفية والتنشئة الاجتماعية

Functionlism and Socialisation

كما تم ملاحظته فى الفصل الاول فإن لنظريات الفعل اعتراضات واضحة وجوهرية لنموذج التوافق الوظيفى البنائى وبالنسبة لهم فان النقد الواقعى للوظيفية يتمثل فى تاكيدها المتزايد على التنشئة الاجتماعية كتفسير للسلوك الاجتماعى ويعد التاكيد التفسيرى لنظرية الفعل متمثل فى ان الافراد ليسو متلقين سلبين للواصفات الثقافية الخاصة بالحركة الاجتماعية ومن بين كل الكائنات الحية فان البشر فقط هم القادرون على الاختيار بما سيقومون به، وبعيدا عن كونه مجرد انعكاس بسيط للقواعد الثقافية فان مثل هذه الاختيارات تتم فى ضوء الشكل الذى يرى به مثل هؤلاء الافراد المجتمع والعالم من حولهم، وخاصة فيما يرتبط بكيفية تفسير الاحداث التى يقوم بها الاخرون وتعد الافعال الاجتماعية، لذلك أفعال تطوعية حيث يتم اختيارها فى ضوء تفسير القائم بها للواقع والوجود الحقيقى.

الوظيفية والقوة والصراع.

Functionalism Power and Conflict

كما تم ملاحظتة كذلك فى الفصل الاول فإن نقد نظرية الصراع البنائى جعلت لمدخل او اتجاه التوافق الوظيفى عنصرين أساسين: الاول يتمثل فى ان الوظيفية تفشل فى الاهتمام بالتاثير على سلوك البنى الاجتماعية الخاصة بعدم التوافق والتكافؤ، وتعد نقطة الجدل هنا هى عدم تاثر الافراد فقط بالمعايير والقيم الخاصة بالثقافة التى تجمعهم بل تتاثر حياتهم الاجتماعية كذلك وبشكل واضح بالمزايا والامتيازات التى يمتلكونها كما انه توجد مجموعة من العوائق العملية والمعيارية على السلوك تؤدى الى خلق نوع من الصراع بين كل من المزايا والمساوئ. ثانيا بالنسبة لاصحاب نظرية الصراع فان الوظيفية مبنية على الفكرة الاساسية لدور التنشئة الاجتماعية فى تشكيل القواعد الاجتماعية، وعند الصراع فان المعاييروالقيم فقط لها شخصيتها وملامحها التى يقوم بها افرادها بسبب ان دورها يكون غالباً بالاضافة الى جعل الوقائع الخاصة بعدم التكافؤ لها شرعيتها داخل المجتمع بعيداً عن التنشئة الاجتماعية وكونها اداة النظام الاجتماعى والتماسك الاجتماعى فانها كذلك الية القوة والتحكم داخل المجتمع.

خاتمة: Conclusion

منذ الستينيات تسبب هذا النقد لان تفقد الوظيفية تاثيرها ومن ثم فقد بدا الاهتمام بمجموعة من الاساليب النظرية البديلة على انها اكثر جاذبية واقوى فى التاثير، وتفوق الوظيفية وكان هذا فى الوقت الذى تغيرت فية خبرات الافراد وأدى الى تحويل ادراكات الناس للمجتمع الحديث ومن ثم لايمكن استثناء علماء الاجتماع وقد اصبح هذا العقد هو عقد إعادة التقييم الاجتماعى.ان الاعجاب الذاتى بالثورة الصناعية قد شجع الرفاهية الاقتصادية خلال الخمسينيات من هذا القرن عندما صرح رئيس الوزراء هارولد ماك ميلان **Harold Macmillan**

ان اعضاء المجلس التشريعى البريطانى قد تبنوا فكرة عدم امتلاك شئ جيد والتى تم احلالها فى السيتنيات بالاهتمام البارز للعدالة الاجتماعية وكذلك الوعى الحقيقى لعدم التكافؤ والحرمان ومن ثم فقد اكتشف الفقر مرة اخرى بكل من بريطانيا وامريكا.

وقد بدأت حركة الحقوق المدنية بأمريكا بالمطالبة بالمساواة والتكافؤ للسود، وقد بدأت الحركة النسائية بالمطالبة بالمساواة من أجل المرأة كما ظهرت الحركة التحريرية بالولايات المتحدة، وخاصة فى فيتنام والتى ظهرت كذلك فى العديد من المجتمعات الغربية، وخلال هذا السياق حيث تم المطالبة بالتغير الاجتماعى وكذلك الصراع بين طبقات المجتمع المختلفة وقد كانت هذه الحركات بعيدة عن العالم الحقيقى تماماً كالنظرية التى تم وضعها بهدف شرح الانظمة الخاصة بالمؤسسات الاجتماعية بهدف كشف الاليات التى من خلالها يحقق النظام الاجتماعى او الانظمة الاجتماعية ترابطها وتوحدها، وكذلك توضيح كيفية اصرارها والتى تصبح غير مرتبطة اوحتى متكافئة مع مجتمع يسوده التباين والمساوئ المختلفة حيث انتشرت صور الصراع ونقص التماسك الاجتماعى ومن ثم فقد أصبح التغير الاجتماعي ضرورة فى مثل هذه المجتمعات، وفي مثل هذه الظروف ليس من المدهش نشأة البدائل المفسرة للوظيفية فقد ظهرت نظرية اخرى بديلة تشرح هذا الصراع وتوجه التغير وتحاول توقع المستقبل محاولة ان تثبت انها حيوية وملحة بشكل عقلانى لعدد كبير وسيتم الاهتمام بمثل هذه النظرية فى الفصل التالى.

الفصل الثالث

ماركس والماركسية

مدخل

تماماً مثل الوظيفية فإن الماركسية هى عبارة عن نظرية وضعت أساسا للارتقاء بالمجتمع بشكل جيد كذلك فانها مثل الوظيفية عبارة عن استجابة للمدنية والتقدم وهى ايضاً جزءاً من المدنية **Modernity** والتطور فى حد ذاتها فهى جزأ من الاعتقاد التقدمي المتمدن بأن المجتماعات تستطيع أن تتحول الى ما هو افضل، وهذا التقدم يمكن تحقيقة فى المنظمة الاجتماعية خلال تطبيق المعرفه البشرية وتماما مثل الوظيفية فان الماركسية اهتمت بوضع الاعتقاد الخاص بأن الوضع الخاص بتحقيق الفرد وانجازه لذاتة وحريته مرتبط بشكل لا ينفصل بوضع التقدم فى المنظمة الاجتماعية وكذلك ببنية المجتمع وهنا ينتهى التشبيه.

فوفقا لماركس فإن الوضع الراهن لانجاز الفرد مرتبط بالنشاط الانتاجى والاقتصادى الخاص بالمجتمع، وبشكل خاص الفرصة للتحرر فى المجتمع الحديث التى تكون فقط متاحة عندما تكون خصائص النظام الانتاجى المبنى على الطبقات المهملة فى ظل النظام الرأسمالى **Capitalism**.

هل يمكن تحقيق مثل هذا الانجاز والتقدم؟ وتعد الحاجة الممثلة فى مساعدة الافراد على استخلاص الحقيقة فى النظام الماركسى او اطلاق الحرية اعتمادا على تحطيم الرأسمالية، فبمجرد معرفة المفتاح للحرية اين يكمن فيمكن استخدامها لفتح الباب او استخدام النشاط السياسى بهدف تدمير الطبقات ودمجها.

ولكن كيف يتم معرفة هذة الحقيقة وأخذ التدابير؟

وتعد هذه مشكلة أساسية ذلك أن عملية التفكيرهى فى الحقيقة فى معرفة كيف يسير العالم الخارجى فى النظام الرأسمالى كما هو الحال فى طبقات المجتمع فان المعتقدات الشائعة ترفض الحقيقة بان الانتاج القائم على

منع الحرية من خلال:

أ- اتاحة شرعية انظمة الانتاج وتوابعها.

ب- منع الافراد من معرفة الدليل على نقص الحرية. وبالرغم من ذلك فانه وفقا لماركس فان الرأسمالية تشتمل داخلها على بذور فنائها. ان نشاط انتاج السلع المختلفة بالنظام سيقوم مع مرور الزمن بإنتاج سلسلة من التوابع التى قد تسبب المزيد من البؤس، وبالتالى يتم اعتناق المزيد من المعتقدات الخاطئة وسيقوم الناس بادراك حقيقة

ووقائع النظرية الماركسيةو الحقائق المرتبطة بتوابعها الاجتماعية ومن خلال التحصن بالحقيقة سيتم للأفراد تغيير المجتمع والشعور بالحرية تبعاً لذلك.

ماركس والمادية التاريخية

Marx and Historical Materialism

يعد أشهر نشاط يقوم به الانسان فى النظرية الماركسية هو النشاط الاقتصادى أو عملية انتاج السلع المختلفة وفى خطبة لماركس أوضح انجلز أن الجنس البشرى يجب أن يأكل ويشرب ويحصل على المأوى والملبس قبل أن يمارس السياسة والعلم والفن والدين ١٩٧٦م.

ووفقاً لماركس ١٩٧٦ فإن فهم الطريقة التى يقوم بها المجتمع فى تنظيم انتاجه هى المفتاح لفهم البنية الاجتماعية للمجتمع ككل، فالانتاج هو وسيلة العيش والحصول على القوت، ولذلك فهو الأساس الذى يتم الاعتماد عليه فى نشأة مؤسسات الدولة والمفاهيم والمعتقدات والفن والدين.

ويرى ماركس أن البناءات الاجتماعية لا توجد أو تنشأ بشكل عشوائى فقد أوضح أنه يوجد شكل أو نموذج محدد معروف للطريقة التى يتم بها تنظيم الإنتاج للسلع المختلفة أو عملية الانتاج بشكل عام من قبل المناطق المختلفة بالعالم وفى أوقات مختلفة من التاريخ. وتسمى هذه النظرية المرتبطة بالتاريخ والمجتمع بالمادية التاريخية[1] ويمكن تعريف عناصرها المختلفة من أجل الدراسة:-

<u>أولاً</u> : كل المجتمعات التى وجدت أو حتى الموجودة اليوم تقوم بعرض شكل أو نموذج من خمس طرق أو نماذج لتنظيم الانتاج وهذه الأشكال المختلفة لتنظيم الانتاج تسمى نماذج الانتاج وهى على التوالى: المشاعية البدائية والنظام القديم والإقطاع، والرأسمالية، والاشتراكية والشيوعية.

1 يرى ماركس ان اختزال الافكار إلى مجرد انها انعكاساً للأوضاع المادية هو ببساطة خطأ منطقى، فالتفكير والوجود المادى متميزان يقيناً ولكنهما فى نفس الوقت داخلان فى وحدة كل مع الأخر، ومن الواضح اننا لا يمكن أن نخلق تصوراً مثالياً ما لم نكن قد تصورنا أيضاً مجالاً "مادياً" فقطبا التضاد يخلق كل منهما الأخر ويحدده. إنظر ديفيد هوكس، الأيديولوجية، ترجمة إبراهيم فتحى، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٧٤.

ثانياً : بغض النظرعن النموذجين الأول والأخير الخاصيين بالانتاج وهما المشاعية والاشتراكية فقد كان لكل نموذج خاصية مميزة له على العموم فلكل منهما نمط فى الانتاج للسلع يعتمد على الطبقات، وبالرغم من أن كلمة طبقة تستخدم فى مواطن أخرى بعلم الاجتماع وكل أنواع الاستخدام فى الحديث العادى، إلا أن استخدام الماركسية لهذا المصطلح استخدام مميز فتبعا لماركس.فى كل المجتمعات غير الاشتراكية وقديما فى النموذج الاقطاعى والرأسمالى توجد فقط طبقتين معنيتين بالدراسة: الطبقة التى تملك وسائل الانتاج ملكية خاصة والطبقة التى لا تملك.

وفى أنظمة الانتاج المعتمدة على الطبقات فإن انتاج السلع والخدمات المختلفة يتم خلال شكل محدد فغالبية الأفراد الذين لا يمتلكون وسائل الانتاج يؤدون العمل الانتاجى لصالح هؤلاء القلة التى تمتلك وسائل الانتاج المختلفة، وتلك هى الخاصية المميزة للمجتمعات غيرالاشتراكية فى أى زمن عبرالتاريخ وفقا للنظرية الماركسية. ان انتاج السلع المادية وهو أكثر نشاط ذو أهمية – فأن هذا غالباما يقع من خلال وسائل استغلال عمل الأغلبية وهم يمثلون الطبقة التى لا تمتلك وسائل الانتاج حيث تمتلكها طبقة الأقلية التى لا تعمل وعلى ذلك تكون العلاقة بينهما علاقة صراع **Conflict Relationship**.

فلا توجد طبقات فى النموذجين الاشتراكيين ففى النموذج الاشتراكى البدائى لا يقوم الافراد بإنتاج القيمة الزائدة وهى الفرق بين قيمة العمل أو السلعة وبين الأجور المدفوعة وغالبا ما يحدث هذا نتيجة بيئة عدم الرفاهية والفقر او نقص المعرفة التقنية الحديثة أو مزيج بينهما ومن ثم فإن هؤلاء الأفراد ينتجون فقط الكافى للسماح لهم بالعيش على مستوى الحد الأدنى للمعيشة ومن ثم يجب علىالجميع أن يعمل مع ملاحظة أنه لا توجد ملكية فائضة وبذلك لا توجد أى إمكانية لحدوث استغلال بين هذه الطبقات. وفى النظام الاشتراكى لا توجد طبقات نتيجة محو واختفاء الملكية الخاصة حيث لا يستطيع الافراد امتلاك وسائل الانتاج

وبسبب قيام الانتاج فى أى نموذج سلعى قائم على الطبقات على هذا الاساس السابق فقد خاطب ماركس مالكى وسائل الانتاج على أنهم الطبقة المسيطرة أو المهيمنة بينما الطبقة غير المالكة أو العاملة التى تقوم بمهام العمل الانتاجى اسماها الطبقة المعاونة أو المساعدة. **Subordinate Class**

وتاريخ المجتمع البشرى عند ماركس هو تاريخ الأنواع المختلفة للأنظمة الاجتماعية المبنية على الاستغلال الطبقى فقد أوضح أننا نستطيع أن نقسم التاريخ الخاص بأى مجتمع الى مجموعة مختلفة من الحقب الزمنية وكل طبقة منها تمت السيطرة فيها لنموذج معين من الأنظمة السابقة للانتاج وتسوده العلاقات الطبقية الخاصة به. وكل المجتمعات ستمر بشكل حتمى بكل هذه المراحل من التاريخ وستصبح كلها اشتراكية بشكل حتمى كذلك. وبالرغم من ذلك فكل المجتمعات لم تتطور بنفس الشكل أو النمط لأنه خلال أى حقبة زمنية بالتاريخ ظهر أنواع أو نماذج متعددة للانتاج فى مجتمعات مختلفة وهى على مستوى مراحل مختلفة للنمو والتطور التاريخى.

ما الذى يميز النماذج أو الانماط المختلفة من الانتاج عن بعضها الآخر؟ أن كل النماذج غير الاشتراكية لها بشكل عام عملية انتاج السلع من خلال استخدام وسائل السيطرة والاستغلال لطبقة ما على أخرى.ان كل نموذج انتاج غير اشتراكى لديه طبقة مالكة ومسيطرة مختلفة وكذلك طبقة معاونة أو مساعدة مختلفة كذلك وهى المستغلة وغير مالك لوسائل الانتاج بالإضافة لهذا فإن كل نموذج ينبع من فناء وانتهاء النموذج السابق له.

النموذج القديم للإنتاج

The Ancient Mode of Production

ان أقدم شكل لانتاج الطبقة يسمى النظام القديم للانتاج وقد نشأ هذا النظام بعد انهيار النظام البدائى بسبب التحسينات والتطورات التكنولوجية، فمثلا فى عصر الحديد والفولاذ قام الأفراد بتنمية الأساليب الانتاجية والتى سمحت بالتخصص فى تربية الحيوانات بالمزارع وساعدت على استقرار الانتاج الزراعى، وهذا بطبيعة الحال قام بانتاج وإخراج القيمة الزائدة عند الماركسيةكما سمح بتقسيم أكثر تعقيدا للعمل أكثر مما كان متاحاً فى الاقتصاد المعيشى أوالبقاء. **Subsistence Econony**

وتعد أهم الملامح المميزة لهذا النظام أو النموذج الانتاجى أن الافراد يتم امتلاكهم مثل وسائل الانتاج من قبل أفراد آخرين اكثر نفوذا وقوة وهنا يقوم الانتاج على نظام العبودية وهنا توجد طبقة مهيمنة هى طبقة السادة أو النبلاء

وطبقة مساعدة هى طبقة العبيد ويتم الانتاج فى هذه الحالة عبر وسائل العمل الإجبارى للأفراد الذين تم امتلاكهم من قبل الآخرين.

وقد قدمت الحضارة الرومانية والإغريقية الأمثلة الطبقية للعبودية كنموذج للانتاج ففى كل من الامبراطوريات الإغريقية والرومانية كان ما يقرب من ثلث السكان تحت سلطة العبودية وقد دخل معظمهم تحت سجن العبودية من خلال كونهم سجناء حرب. ويعتبر ضعف وتآكل دور سلطة الدولة فى النشاط الاقتصادى من الأسباب التى أعاقت نموذج الانتاج القديم حيث أصبح الوضع صعب على هذه الدول والولايات فى الضبط والسيطرة على الأفراد والشعوب خاصة الافراد الذين يعيشون فى المناطق البعيدة عن امبراطورياتهم هكذا كان الوضع مع امكانية القمع والقضاء على العبودية كنموذج للانتاج.

النموذج الإقطاعى للإنتاج
The Feudal Mode of Production

نبع من النظام القديم فى الانتاج نظام أو نموذج جديد وكانت له ملامحه الخاصة به وهى ملامح أكثر محلية وسمى هذا النموذج بالإقطاع واعتمد الانتاج الاقطاعى على قدرة المحاربين أو النبلاء على التحكم فى المناطق أو المقاطعات الصغيرة بقوة الجيش أو السلاح بوجه عام بهدف استغلال قوة العمل الزراعى بها وفى النموذج الاقطاعى نجد أن الطبقة المسيطرة هى تلك المتحكمة فى الأرض وتقوم بإسكات الحكام وشراء رضاهم أما الطبقة التابعة فتتكون أساسا من الرقيق والعبيد وتتم هنا عملية الانتاج اعتمادا على وسائل العمل وإمكاناته المتاحة من قبل هؤلاء المفروض عليهم العمل من أجل البقاء خاصة وأن هؤلاء لا يملكون الأرض التى يعملون عليها ولكنهم فقط مستأجرين لها وقد كانوا ملزمين بالعمل بجد وتعب بهدف توفير أكبر مبلغ من الانتاج لسيدهم كايجار عن الأرض المستأجرة التى يعملون عليها ويتم هذا على شكل رسوم تسمى العشر تقدم لصاحب الأرض ورب العمل وسيطر الإقطاع على أوروبا منذ العصور المظلمة حتى بداية الفترات المتقدمة وتحكم فى انهيار هذا النظام والقضاء عليه عنصرين: أولهما تركز القوى السياسية بشكل واضح وقوى خيث تم إعادة تشكيلها فى أوروبا مرة أخرى ليس فى شكل امبراطوريات كبيرة غير همجية ولكن فى شكل سيطرة الكنائس. وقد سمح هذا الشكل بتحكم الدولة بشكل كافى على كل المقاطعات الوطنية فى الدول

الأوروبية وفقا لنظام شرعى ملائم ليسود ويتحكم بالآخرين، وهذا بطبيعة الحال وفر الفرصة للنشاط الاقتصادى ليمتد فيما وراء التخوم أو الحدود الفيدرالية المحلية لكل بلد بل ساعد على نشر التجارة من خلال التوحيد التدريجي للضريبة ونظام النقد الصرفى داخل المناطق التجارية الكبيرة وذلك وفقا لطرق التجارة الاساسية الطويلة ومنها "نهر الراين". ثانيا: كنتيجة للتغيرات التى وقعت وفقا للكفاءة الزراعية فقد نتج عن ذلك واحد من النتائج المهمة وهى الافعال المنغلقة حيث رفضت هذه الافعال بتحكم مجموعات قوة العمل الزراعى لحقوق الاحلال والاستبدال على الأراضى التى كانوا يقومون بالعمل فيها تحت اسمهم خلال النظام الاقطاعي وقد تم احلالها بواسطة الأغنام وكذلك الالات التى تقوم بالأعمال الزراعية المتنوعة والشاقة، ومن ثم فقد عانى هؤلاء العمال من ضياع الارض وأصبحوا بلا مأوى وقد وصف ماركس ١٩٧٦ هذا الوضع فى نظام الرأسمالية حيث "أكلت الأغنام الرجال" وألقت بهم خارج الأرض وبدون أى وسيلة للاستبدال أكثر من قوة العمل فإن العمال قد أجبروا على بيع عملهم لأصحاب الوظائف مقابل الاجور ومن ثم فقد نشأت سوق لبيع قوة العمل لأول مرة.

النظام الرأسمالى للإنتاج

Capitalist Mode of Production

اتخذ الانتاج فى هذه المرحلة شكل طبقى جديد حيث كانت قوة العمل لمجموعة من أو طبقة من العمال المشردين بلا مأوى أو أرض لهم أو طبقة البروليتاريا **Proletariate** كما وصفها ماركس والتى يمكن شراءها مقابل أجر ما من قبل مجموعة من الأفراد الممثليين لطبقة الملكية أو أصحاب الوظائف والأعمال التى أطلق عليها النظام الماركسى مصطلح البرجوازية **Bourgeoisie** وعلى هذا تطورت الرأسمالية ببريطانيا قبل الثورة الصناعية وقد تم انتاج السلع الزراعية لأول مرة بشكل رأسمالى ومؤخراً تم بناء المصانع الالات الصناعية تم تطويرها ومن ثم فإن الرأسمالية الصناعية تم تأسيسها، وبهذا نشأت طبقة البروليتاريا الحضرية، ففى المجتمع الرأسمالى أصبحت البرجوازية تمثل الطبقة المسيطرة مثل السادة فى مجتمعات العبيد أو الاقطاعيين فى المجتمعات الاقطاعية امتلكوا الثروة الانتاجية أو وسائل الانتاج بشكل عام:

وخلال مرحلة نمو الرأسمالية تم تغيرخاصية الملكية التى فيها يقوم أصحاب رؤوس الأموال باستثمار ثرواتهم، وفى المرحلة الأولى للرأسمالية اتخذت الملكية الانتاجية شكل امتلاك الارض بشكل أساسى وقيام طبقة البروليتاريا العاملة باكتساب أجورهم كعمال فى الأرض الزراعية أو عمال زراعيين بشكل عام ومؤخراً بدأ ينمو الانتاج الصناعى داخل الاستثمارالرأسمالى من خلال المصانع والالات مع قيام طبقة البروليتاريا باكتساب اجورهم من خلال العمل فى الصناعة اليدوية. كما اتخذت الرأسمالية مؤخرا شكل الرأسمالية الصناعية المعاصرة، وفى أيامنا هذه وبدلاً من امتلاك الانتاج الصناعى والتحكم فيه أخذت الملكية الانتاجية شكل الاستثمار الرأسمالى من خلال البورصات والأسهم المختلفة (مع ملاحظة انه ما زال موجود حتى وقتنا هذا أصحاب رؤوس أموال زراعية وخاصة الصغيرة منها).

وبالرغم من هذه التغيرات فى طبيعة الملكية الانتاجية فى المجتمع الرأسمالى فإن الخاصية الاساسية للعلاقات الطبقية بين الملاك وغير الملاك بالنسبة لماركس قد أصبحت كما كانت فى الماضى من خلال أنظمة ونماذج الانتاج القائمة على الطبقات، وعلى الرغم من عدم قيام طبقة البرجوازية بعملية انتاج السلع بأنفسهم فإنهم لم يمتلكوا وسائل الانتاج لهذا السبب وهم يقومون بالاستفادة من الفارق بين تكلفة العمل بالنسبة لهم من قبل طبقة البروليتاريا و كذلك لقيمة البضائع والسلع التى تم انتاجها من قبل طبقة البروليتاريا العاملة ويصبح من المهم هنا أن العمال سيتم الدفع لهم دائماً بتكلفة أو قيمة أقل من قيمة السلع التى يقومون بانتاجها وإذا لم يحدث مثل هذا فلا يمكن للنظام ان يستمر، فبدون الفائدة فلا يمكن للاستثمار واعادته أن يحدث فى القوة الانتاجية وبالتالى ستضمحل المؤسسات المختلفة فى مواجهة المنافسة والقيمة الفائضة هذه لا تكلف طبقة الرأسماليين أى شيء وتعد رمزاً ملموساً وواضحاً على استغلال الطبقة العاملة من مكتسبى الأجور مقابل عملهم كما أن العلاقات بين كل من طبقة الملاك الرأسماليين وطبقة العمال مكتسبى الأجور هى علاقات عبودية بين السادة والعبيد، وقد أوضح ماركس ١٩٧٦ بكلماته ان " تاريخ المجتمع ككل حتى يومنا هذا هو تاريخ الصراع الطبقى".

دور البناء الفوقى The Role of Superstructure

حتى الآن فإن رصيدنا من النظرية الماركسية قد تم تركيزه على عملية الانتاج وعلى العلاقات الاقتصادية، فما هو الحال بالنسبة لباقى ملامح الحياة

الاجتماعية؟ وتعد الخاصية المميزة للنظرية الماركسية فى علم الاجتماع هى وجهة النظر المرتبطة بالنشاط الاقتصادى حيث أنها تمثل المعمارى الذى يقوم برسم وتصميم الملامح الأخرى للحياة.

ومن أجل توضيح وشرح هذا فقد أسمى ماركس الطريقة التى يقوم بها المجتمع بتنظيم الانتاج باسم "قاعدة المجتمع"؟ أو البناء التحتى **Infrastructure** حيث يصبح النشاط الاقتصادى قاعدة كل شىء أخر فى هذا المجتمع. أما بالنسبة لباقى التنظيم الاجتماعى أو النشاط غير الاقتصادى الموجود فى المجتمع وأفكاره ومعتقداته ونظرياته المختلفة فقد أطلق عليها ماركس "البناء االفوقى" وقد أصبح استخدام مثل هذه المصطلحات ذا أهمية واضحة فهى تبين الطريقة التى بها يتم نشأة البناء الفوقى للمجتمع وفقا لقاعدته الاقتصادية. حيث يتم بناء مجموعة من الأنشطة معتمدة على قاعدتها ومجموعة أخرى من النشاط.

النظم: Institutions

أولا: على مستوى البناء الاجتماعى فإن النظم غير الاقتصادية فى أى مجال يتم تنظيمها بطريقة تسمح بالاستفادة منها فى نموذج الانتاج وتعد مهمة عالم الاجتماع هنا هى تحليل هذا كما هو الحال فى ظروف الأسرة والتعليم داخل المجتمع الرأسمالى. **(Bilton et al 1987)**

الأسرة. The Family

جذب معظم المحللون الماركسيون الانتباه نحو الطريقة التى يتم من خلالها قيام الأسرة بتشجيع واعادة انتاج علاقات المساواة المتدرجة أو القاعدة على التدرج الهرمى **Hierachical inegalitarian Relationships**وكمدعم لعملية الأمان داخل المجتمع، وكذلك كمزيل لعدم الرضا والحزن وبهذا فقد دعمت المضمون الثورى ومن خلال توفير مكان لإيواء واحتواء وتربية الاطفال فى جو من الأمان الأسرى، فقد وفرت الاسرة بهذا الشكل قوة عمل المستقبل، وفى نفس الوقت لعبت الاسرة دوراً أساسياً فى تشجيع واحتواء عمليات الترويح والاستجمام والراحة وبهذا ساعدت الاسرة فى تأمين أفراد المجتمع وضمنت لهم أن يعودون يوميا بعد انتهاء نوبات العمل وعندهم القدرة على العمل مجددا نتيجة تجديد حيويتهم واحساسهم بالراحة والاسترخاء بعد العناء الطويل من العمل وهذ يدل على أن الأسرة قامت بإعادة انتاج قوة العمل على المدى الطويل بتربية الأجيال

المختلفة وعلى المدى القصير باسترخاء وترفيه أعضاء العمل أو العمال يوميا بعد انتهاء نوبات عملهم.

التعليم. Education

أوضح كل من بولز وجينتز **Boules and Gintis** أن عملية التعليم يتم اتمامها من خلال نظام العمل المستمر**Long Shadow of Work** ومن ثم فإن نظام التعليم يعكس تنظيم عملية الانتاج فى النظام الرأسمالى وعلى سبيل المثال فإن تجزأ معظم عمليات العمل يتم عكسها فى ظل تقسيم وتجزئة المنهج أو المناهج الدراسية إلى مجموعة من المراحل الصغيرة حيث تنفصل كل مادة عن باقى المواد الأخرى، كما أن نقص الاشراف على عمليات العمل يكون له انعكاس على سلبية وضعف التلاميذ مقارنة بما يجب أن يتم تعلمه فى المدارس أو حتى كيفية تعلم هذا المحتوى، كما أن حتمية العمل من أجل الاجر عندما تبدو الوظائف صعبة التحقق، وهذا فى إطار أو تماشيا مع تأكيد المدارس على التعليم بهدف كسب مستويات أعلى بغض النظر عن التعليم من أجل التعليم نفسه، ومن ثم فقد أوضح هذين العالمين وجود نوع من التوافق بين طبيعة العمل فى المجتمعات الرأسمالية وطبيعة النظام التعليمى القائم بها. كما أن الفائدة فى تحليل الطرق التى من خلالها يتم افادة نظام الانتاج من قبل ملامح المؤسسات غير الاقتصادية فإن له دور توافقى متوازى مع الوظيفية حيث أنه مع الوظيفية فإن تحليل مؤسسة ما يأخذ شكل التعرف على دورها الايجابى فى النظام ككل، كما أن الحسابات والاعتبارات السابقة لفوائد الرأسمالية من قبل حياة الاسرة والتعليم يمكن أن يقال عنها بشكل شرعى واضح على أنها تحقيق للوظيفة التى تقوم بها المؤسسات المختلفة بهدف مواجهة احتياجات الرأسمالية. بالرغم من أن كلا منهما نظريات نظامية، إلا أنه يوجد فارق جوهرى مرتبط بالطريقة التى يتم بها وصف النظام، ومن يمتلك الحاجات التى يتم مواجهتها من قبل هذا النظام.

الايديولوجيات أو النظم الفكرية Ideologies

وعلى مستوى الأفكار فإن العلاقة بين القاعدة والبناء الفوقى توضح فى ضوء طريقة شيوع وتعميم المعتقدات فى أى مجال، كما أن مثل هذه المعتقدات تقوم بعملية تنظيم للانتاج وتظهر أهمية هذا الأمر فى المجتمعات حيث يشمل النشاط لانتاج السلع المختلفة على عملية استغلال لعامة الشعب، حيث يعيد إليهم ناتج عملية

الانتاج بشكل ظالم وغير متكافىء مع جهودهم وبينما كانت معاناة الطبقة المعاونة من الكادحين يمكن حمايتها من خلال القوى الجسدية ففى النظام الماركسى فإن أفضل طريقة مؤثرة يمكن إقناعهم بها تكون عبر الطريقة التى يفكرونه بها من خلال أفكارهم ومعتقداتهم ويعد الاهتمام بالطبيعة الفكرية للمعتقدات الشىء المميز تجاه الاسلوب الماركسى نحو عالم الأفكار فى المجتمع. وكما تم الحديث عنه مسبقا فإنه بالنسبة للماركسيين فإن الأفكار هى أنظمة للمعتقدات تقوم:

١- شرعية النظام الطبقى المبنى على الانتاج وذلك من خلال توضيحها بشكل صحيح وعادل.

٢- إغفال النتائج الواقعية لها عن عامة الشعب.

وفى هذه النقطة توجد تشابهات مع الوظيفية من خلال التوافق والتطابق مع الأفكار المشتركة فهى المصدر الوظيفى الأساسى للوحدة والارتباط وكذلك النظام، ومن ثم فقد كان وعى الماركسيين بالمجتمعات الطبقية مصمم عندهم وثابت بسبب اعتناق الافراد للمعتقدات الفكرية، وبالرغم من ذلك فإن التنشئة الاجتماعية تحدد ما يعتقده الناس لما فيه مصلحة الطبقة المالكة فقط وكذلك الحفاظ على النظام.

ووفقا للماركسية فإن الأفكار المسيطرة أو المهيمنة، وكذلك المعتقدات والقيم فى المجتمع الطبقى (والتى تتمثل فى مجموعة من الأفكار حول ما يوجد عليه اتفاق بشكل كبير وواسع) لم توجد اعتباطاً أو صدفة فهم يتصرفون وفقا للايديولوجيات، ويحاولون إيجاد بنية معينة بدون مثل هذا الدعم الفكرى ستتلاشى وتنتهى. كما أوضح الماركسيون أنه بالرغم من قيام الطبقات المهيمنة من وقت لاخر بالعودة للطبقات المسيطرة وتمتلك للقوة المجردة للحفاظ على سلتطها وقوتها فإن غياب مثل هذا الإجبار لا يمكن أن يؤخذ للاهتمام بغياب الاستغلال وعلى النقيض فقد اقترحوا جميعاغياب القمع أو الظلم المجرد والذى قديشير بشكل واضح الى نقص المعارضة ونقص أى حاجة لاستخدام القوة والقمع. وهذا لا يعنى أن السيطرة أو الهيمنة لا تحدث، إلا أنه فقط الاشخاص المسيطرون لايدركون بمثل هذا الوضع وذلك بسبب تأثير الأفكار المختلفة للايديوجيات التى يعتنقها الجميع.

ولكن يجب توضيح كيفية استفادة مثل هذه الأفكار واستحسان الجميع لها فكما هو الحال مع الوظفيين فقد أوضح الماركسيون وجود أفكار محددة تسود من خلال مجموعة محدة من المؤسسات المتنوعة الرئيسية للتنشئة الاجتماعية. وفى المجتمع المعاصر، على سبيل المثال فإن كلا من الماركسيين والوظيفيين يوضحون الدور المهم

الذى يتم لعبه من خلال المؤسسات المختلفة ومنها الأسرة، والنظام التعليمى السائد بالإضافة لوسائل الإعلام ويتمثل هذا الدور فى تشجيع اعتناق المعتقدات و القيم المكتسبة أما الاختلاف الواضح بين كل من الوظيفيين والماركسيين فيتركزحول تفسير دورعملية التنشئة الاجتماعية والتى تؤكد عليها مثل هذه المؤسسات، وبالنسبة للوظيفيين، فأن ذلك يتم من خلال الاسلوب الذى يتم به تعلم الافكار التى نحتاجها للمعرفة لكى نفكر ونتصرف فى ضوء ما نكتسبه من النظام الاجتماعى، وبالنسبة للماركسيين فإن ذلك يتم من خلال الطريقة التى يتم بها تعلم مثل هذه الأفكار والتى تساهم فى إخفاء أو حتى تبرير طبيعة طبقات المجتمع وملامحها الواقعية.

وبالنسبة لكلا النظريتين توجد ثقافة شائعة يتعلم منها الناس من خلال التنشئة الاجتماعية. وأن الاختلاف بين كل منهما يقوم على التركيز على الوظيفة التى تقوم بها الثقافة. فبالنسبة للوظيفيين نجدهم يؤكدون على الترابط والاندماج الاجتماعى أما الماركسيون فهم يؤكدون على الظلم الاجتماعى وعدم التكافؤ والهيمنة

وعلى ذلك يمكن ملاحظة بعض الأفكار السائدة فى النظام الرأسمالى البريطانى لمعرفة كيفية شرح الماركسية للأهمية الخاصة بالبنية الفوقية فمن وجهة نظر الماركسية فإن أى أفكار فى بريطانيا والتى على سبيل المثال:

١- تحول اهتمام الناس بعيدا عن حقيقة الظلم وعدم التكافؤ الاجتماعى
٢- إعادة انتاج طلب السلع من خلال تشجيع نظام الاستهلاك أو النزعة الاستهلاكية **Consumerism**.
٣- تشجع طبقة مكتسبى الأجور لقبول تبعيتها.
٤- تبريرالظلم وعدم التكافؤ بين الطبقات.

والتى تساعد جميعاً على استمرار النظام الرأسمالى فى المجتمع للابد وكيف يتم ذلك؟ كيف يتم انتشار مثل هذه الأفكار؟ ان المدخل الماركسى الخاص بالبناء الفوقى لبريطانيا المعاصرة قد يمكن شرحه كما يلى:

المؤسسات التضليلية Diversionary Institution.

يعد الانتاج الرأسمالى انتاجا استغلاليا من وجهة نظر الماركسيين والسبب الرئيسى فى استمرارمثل هذا النظام يتمثل فى وجود مؤسسات هدفها تحويل انتباه الطبقة المستغلة بعيدا عن حقيقة ظروفها. ولعل أهم الأدوات التى تساعد على ذلك صناعة الترفيه مثال المزيد من الموسيقى الشعبية مع التأكيد على الانجذاب نحو

الحب الرومانسى والارضاء الجنسى. ان الانتاج غير المنتهى للقصص البوليسية وكذلك قصص الحروب والخيال العلمى كان لها دورها فى ذلك مع ملاحظة أن الاحلال التدريجي للإرسال التليفزيونى وبرامج الراديو لعبت نفس الدور وكان لها نفس النتائج، ومن كوميديا الموقف الى ألعاب الأحجيات ومن اعلانات الصابون والرغوة الى الأفلام البوليسية فمثل هذه التسليات قامت بعرض نوع من تفاهة الواقع، والحقيقة كما أن برامج مثل تلك السابقة قامت بخلق عوالم الادعاء حيث تم تجاهل حقائق ووقائع الحياة داخل طبقات المجتمع. مع ملاحظة أن الأسرة قد تقوم بمثل هذه المهمة أو الوظيفة فالاعتقاد السائد فى المجتمع المعاصر يتمثل فى الرضا العاطفى الفردى الذى يوجد في الزواج وتربية الاطفال، وعلى الرغم أنه قد تتحقق هذه الأهداف أم لا فيجب علينا أن ندرك أن المساعى لمثل هذا الانجاز يعيد الرغبة فى التحقيق أو الإنجاز من خلال الأنشطة الأخرى مثل العمل، والنتيجة فى هذه الحالة تتمثل فى عمل استغلالى وليس له معنى مع ملاحظة أن الحياة هنا ترتبط بتحصيل الرضا الزواجى والأسرى عبر تربية الاطفال هدف التعويض عن مثل هذا الاستغلال فكما أخبر عامل سيارة فى شركات فورد ١٩٧٣ "اننى اغلق فقط عينى وأبدأ فى التفكير فى زوجتى وأولادى".

بالإضافة إلى أن العديد من وسائل الأخبار تؤدى دوراً تضليلياً فى المجتمع الرأسمالي كذلك فعى سبيل المثال: صحيفة شعبية واسعة الانتشار كالفن و" **star** " أو " **daily express** وغيرها تركز على الأخبار التافهة أكثر من اهتمامها بتقارير الأحداث المهمة الحرجة. ان مثل هذا القمع المتعمد و المقصود وتضليل الحقائق والواقع قد يشجع الأفراد الذين يعيشون فى المجتمع الرأسمالى على ابعاد تركيزهم عن الظلم وعدم المساواة والحرمان والاستغلال. ففى الواقع نحن نكتسب معظم معلوماتنا عن الواقع من خلال وسائل الاعلام والفشل فى توفير مثل هذه المعلومات والمعرفة ليس له دور تضليلى فقط ولكنه وسيلة لتوفير صورة عن المجتمع المخادع الكاذب الذى يريدون رسم صورة له أمامنا.

نزعة الاستهلاك: إعادة الانتاج حسب الطلب:

Consumerism: The Reproduction of dmand

يعتمد النظام الرأسمالى على إعادة انتاج الطلب أو حسب الطلب ففى أى نظام اجتماعى يقوم بتشجيع بضائع من خلال وسائل رأسمالية تكون الاعلانات هى

الطريقة الأساسية التى يتم من خلالها تشجيع الأفراد للاستهلاك سواء أكانت فى التليفزيون أو الراديو أو حتى السينما أو الجرائد والمجلات وهنا نلاحظ أن الاعلانات تشجع وتمجد ملكية البضائع والسلع المختلفة (قارن هذا مع القيم المكتسبة فى الكولا ومن ثم تنمى وتقوى اكتسابها).

وتساعد الأسرة على إعادة الانتاج حسب الطلب أيضا ففى المجتمع الغربى يعيش العديد من الأفراد فى أسر نووية وهى أصغر وحدة من الأسر أو البناء الأسرى فكل أسرة وحدة مستقلة اقتصاديا وخاصة فى شراء بضاءعها وسلعها الخاصة وهذا يؤكد على أن الطلب متزايد وفى متطلبات المنازل الكبيرة فإن الطلب على السلع سيقل.

قبول فئة مكتسبى الأجور لتبعيتها.

The acquiescence of wag-earners in their subordination

تعتمد الرأسمالية على القوى البشرية التى تم حشدها فى دعم دورها التابع ومرة أخرى فإن الاسرة تلعب دورا مهما ففى الأسرة نتعلم معنى السلطة لأول مرة وكذلك معنى الطاعة. ان الخضوع لأمال ورغبات وطموحات الوالدين يمدنا بالتدريب المناسب للتلائم مع كون الفرد مكتسب للأجر وانه كذلك تحت سلطة الموظف، كما أن التعليم يقوى ويشجع هذا التدريب.

تبرير عدم المساواة وعدم التكافؤ

The Justification of inequality

تعتمد الرأسمالية علىتوريث الظلم وعدم المساواة ويتم قبولها على أنها العدل نفسه، فهناك حتمية للظلم وعدم المساواة فهنا نحن نتعلم أن الأفراد لا يمتلكون فقط قدرات مختلفة وانما يمتلكون كذلك قدرات أفضل أو أسوأ. ان الاطفال المتفوقين ينجحون ويتم مكافئتهم من خلال الدرجات العالية ونتائج الامتحانات. أما الاطفال أو التلاميذ الأقل كفاءة فإنهم يستحقون درجات أقل من أقرانهم الأذكياء. ما هو أفضل تدريب فى الحياة الاجتماعيةحيث يتم الحكم على القدرات المختلفة كأفضل أو أقل قدرات ومن ثم الحكم عليها بعد ذلك؟ ان الخبرات فى المجتمع المدرسى قد تشجع الأفراد فقط ليؤمنوا بأن عدم المساواة فى المكافأة

هى عدل فى حدذاتها ومثل هذه المعتقدات يتم التعبير عنها بشكل عام من خلال اغتنام مجموعة من الأراء ومنها: بالطبع يجب الدفع للأطباء أكثر من المنظفين فى الشوارع أو عمال النظافة حيث أنهم كأطباء يقومون بوظيفة أكثر أهمية "ان التوزيع غير متساو للمكافآت بين الوظائف المختلفة يعكس أهمية هذه الوظائف أو بصيغة أخرى" أى فرد قد يصبح عامل نظافة أما الأفراد القادرون والأذكياء المهرة هم فقط من يصبحون أطباء " ان الانجاز داخل المجتمع غير المتساو هو فضيلة وبطريقة أساسية فإن التعليم مع تأكيده الداخلى على المنافسة والنجاح والفشل أو على الفضيلة والرزيلة خيث يتم تدريس عدم عدالة المساواة لأفراد المجتمع الرأسمالى وبشكل خاص مصطلحات "الأقل كفاءة" و "الفشل" وكذلك قبول وتوقع المكافآت الأقل فى الحياة

ويوضح الماركسيون أن مثل هذا التحليل للعلاقة بين البنية التحتية والبنية الفوقية يوضح لنا أن التناول الكبير حول السلطة أو القوة فى مجتمع الطبقات، فالطبقة الحاكمة أو المسيطرة هى التى تحكم ولكن ليس فقط هى اساسا مالكة لقوة العمل الفعلية والتى تقوم بصنع القرارات فهى تحكم بسبب مصالحها التى تعتبر منظومة فى كل ذلك فالملكية أو عدم الملكية سواء فاساليب التنشئة الاجتماعية تخضع لافكار الطبقة المهيمنة من قبل المؤسسات والوكالات الخاصة بالبنية الفوقية وفى النظام الماركسى ١٩٧٦ أوضح ماركس بكلماته أن الأفكار الخاصة بالطبقة الحاكمة فى كل عصر هى الأفكار الحاكمة. **The Ruling ideas**

ولمثل هذه الأسباب فإن الأفكار الخاصة بالوعى الزائف **False Consciousness** والوعى الطبقى تحتل أهمية كبيرة فى النظرية الماركسية وبسبب أن الطبقة التابعة للأفكار المهيمنة و التى تقوم بعملية تضليل الحقيقة الواقعية للمجتمع الطبقى وابعادها عن طبيعتها الواقعية، وكذلك صورتها الخاصة بالعالم ومكانتها فى العالم بصورة خاطئة كما أن وعيها بالحقيقة وعى مزيف ومضلل تأتى من خلال رؤيتها للواقع من خلال أوضاعها المستغله.

ويجب ملاحظة أن نظام الانتاج المبنى على الطبقات سوف تقوم بذكر الطبقة التابعة من خلال نبذ الصور والافكار الخاطئة الخاصة بالعالم وكذلك تقوم برؤية حقيقة وضعهم المستغل، وكما أوضح ماركس بكلماته فإنهم يقومون بتطوير الوعى الطبقى، كما أن رايهم أو وجهة نظرهم الذاتية الخاصة بطبيعتهم ووضعهم تقوم بالتطابق مع واقعهم وحقيقتهم الذاتية، كذلك وهنا يجب ملاحظة أن نشأة

الوعى الطبقى بالمجتمعات أو الطبقات التابعة والتى توضح نموذج الانتاج والطبقة المهيمنة به. كيف يحدث هذا؟ كيف يصبح الوعى الخاطئ أو المزيف هو الوعى الطبقى المنتشر؟ وهنا يجب ملاحظة أنه مع وجود الأفكار الخاطئة فإن الوعى الحقيقى لا يمكن اعتباره بأى صورة أو وضع مستقل عن الظروف الاقتصادية، ووفقا لماركس فإن بذرة الثورة لا تنبثق من فراغ ولا تنشأ من عدم أو حتى بشكل عشوائى غير مقصود. إن الافكار حول كيفية الوضع الذى يجب أن يتم بناء المجتمع عليه ونشأته لا تنشأ ولا تتطور إلا تحت ظروف معينة وبشكل خاطىء فإن الترتيبات الخاصة بالمؤسسات والتى نشأت لتدعيم نظام معين للانتاج لم تعد تناسب العلاقات الانتاجية وذلك بسبب أن التغيرات التى تحدث خلال الزمن أو الوقت فإن الضغوط لإحداث التغير تنشأ من هنا، ومن ثم فإن الطبقة المستغلة تندمج فى التنافس السياسى والذى صمم بهدف إحلال واستبدال الترتيبات الاجتماعية القديمة مع أخرى مناسبة للترتيبات الاقتصادية الجديدة.

التغير الاجتماعى Social Change

من الاقطاعية إلى الرأسمالية Feudlism to Capitalism

فى المجتمع الاقطاعى ان ملاك الاراضى الزراعية هم الممثلون للطبقة الحاكمة فى المجتمع الاقطاعى والمسيطرة حيث يمتلكون الوسائل المهيمنة والمسيطرة على الانتاج كما أن البناء الفوقى دعم هيمنتهم وسيطرتهم، كما أن أفكارهم عكست مصالحهم الطبقية و أصبحت هى الافكار المسيطرة وعلى سبيل المثال إن القانون الاقطاعى مزج القانون بالأرض كما أن السلطة أو القوة أصبحت فى أيدى ملاك الأرض والاقطاعيين مع ملاحظة أن الدين الاقطاعى أصبغ الشرعية على هذه الترتيبات، وهذا ما تم توضيحه فى الشعر الفيكتورى منذ ثلاثمائة سنة.

- الرجل الغنى فى قلعته. **The Rich Man at his Castle**
- الرجل الفقير عند بوابته. **The Poor Man at his Gate**
- الله هو الذى جعلهم فوق أو أسفل وأمر بنشأة وضعهم هذا.
- **God made them high or lowly and ordered their estate**

وبالنسبة للماركسين فلا يوجد شيء مدهش وعجيب فى التوافق والتناسب بين خصائص الانتاج وملامح شيوع وانتشار مثل هذه الأفكار المهيمنة، وبشكل

واضح اذا كان النظام الاقطاعى شرعى فإن الأفكار السياسية والدينية قد ركزت على شيء مختلف أخر، ومن ثم فإن الانتاج الاقطاعى لا يستطيع أن يستمر أكثر. ان التوافق أو التطابق بين العالم المادى وعالم الأفكار استمرفى احداث التغير الاقتصادى، كذلك فإن الرأسمالية حلت محل النظام الاقطاعى فإن أفكار البنية الفوقية تتغير بشكل ضرورى بالتتابع أو كنتيجة لما سببه وذلك بعهد تدعيم وتبرير الترتيبات الاقتصادية الجديدة نتيجة لذلك فإنهم يستطعون أن يعملوا ووفقا للنظام الماركسى، وهذا يفسر كيف حدث هذا، وكما يتطور النظام الاقطاعى فإن التقنيات والابتكارات التقنية بدأت تحول وتغير طبيعة الانتاج من الزراعة المعتمدة على قوة العمل إلى الزراعة المعتمدة على الالة، وبشكل تالى بعد ذلك الى الانتاج الصناعى، ومثل ما يتم فى الثورات الزراعية والصناعية فإن الطبقة الرأسمالية الجديدة تنشأ وتتبع على أنها مالكة لوسائل الانتاج الرأسمالى الجديد المتنامى ولمدة زمنية ما وبالرغم من أن البنية الفوقية قد ركنت خلف مثل هذه التغيرات السابقة فإن ملامحها ما زالت تعكس وتشرع للترتيبات الاقتصادية القديمة، وعلى سبيل المثال وبالرغم من أن الانتاج الرأسمالى تطلب قوة عمل متحركة وأرض متوفرة ومتاحة بشكل حر من أجل البيع والشراء فإن الترتيبات السياسية والقانونية منحت مثل هذه الاحداث من الوقوع.

وبشكل تدريجى فإن نسيج التناقض بين اهتمامات الطبقة البرجوازية الجديدة وسلطة ممارسة الطبقة المالكة للأرض القديمة قد أصبح كبيرا بشكل متناهى، بالرغم من ان السيطرة تمت هنا للطبقة المالكة للأرض والاقطاعية وبالرغم من حدوث هذا بشكل سريع ورهيب فى المجتمعات الأوروبية الأخرى فإن التغير بدأ سابقا ولكن بشكل تدريجى فى بريطانيا ومن خلال اساليب التغيرات السياسية المختلفة حدثت خلال مجموعة من القرون فإن طبقة ملاك الأرض قد شاركت فى السلطة السياسية أولا من خلال ملاك الأرض الرأسماليين وحديثا من خلال طبقة الصناعيين الجديدة وتحولت سيطرة طبقة صانعى القرارات السياسية إلى سلطة أصحاب رؤوس الأموال بالرغم من أن سلطة التأثير ما زالت تحت أيدى ملاك الأرض حتى وقتنا هذا.

من الرأسمالية إلى الاشتراكية.
Capitalism to Communism

وتنبأ ماركس بأن نفس النوع من العملية ستكون واضحة في التحول الثورى الخاص بالنظام الرأسمالى للأنتاج الى النظام الشيوعى، ومرة أخرى فإن أفكار وأفعال الأفراد ستكون المحرك الأساسى لهذا التغير وبالرغم من أن مثل هذه الأفكار الثورية قد تنتج من انبثاق الوعى الطبقى، فإن هذا يحدث فقط فى حالة تطور نظام النموذج الرأسمالى كنمط للانتاج. **Mode of Production** ووفقا لماركس ونظريته فإن تطور الرأسمالية يحدث فقط من خلال وسائل الاستغلال المستمرة للطبقة العاملة، ومن ثم فإنه بالرغم من أن الرأسمالية استمرت فقط من خلال استغلال الطبقة المكتسبة للأجور لحد كبير، فإن زيادة نسبة الاستغلال تتحول إلى الوعى الزائف داخل الوعى الطبقى، وكنتيجة لذلك فإن الخطوات التى يتم اعتبارها من أجل التأكيد على ضمان تقدم الرأسمالية كنظام انتاجى تتضمن فى نفس الوقت نشأة بذور دمارها الذاتى فى حد ذاته وهذا هو المفترض أن يحدث.

وكما تم الحديث عنه سابقا فقد نشأت الرأسمالية قبل النمو الصناعى إلا أنه فقط فى عهد الثورة الصناعية تم تطوير وتنمية النظام الرأسمالى ومن ثم أصبح هذا النظام واضح المعالم بالنسبة لأفراده داخل المجتمع.

وقد أدى الانتاج الصناعى إلى نشأة العديد من المستوطنات والمناطق الحضرية كبيرة الحجم التى استقر بها العمال وتعيش فى نفس المناطق المزدحمة بالسكان التى اتسمت بالفقر والعشوائية وكذلك العمل فى نفس مناطق المصانع وهنا بدأت طبقة العمالة الحضرية " البروليتاريا " إدراك واقعها المستغل.

بالإضافة لذلك فمع تطور الرأسمالية كنموذج للإنتاج تقدمت عملية الاستغلال ونمت، وهنا بدأ الوعى الطبقى السليم الواقعى يحل محل الوعى المزيف الذى كان منتشراً قبل ذلك

ويعتمد الانتاج الرأسمالى على التراكم الرأسمالى **Capital accumulation** حيث يقوم أصحاب رؤوس الأموال بتراكم رؤوس أموالهم من خلال زيادة عائد بيع السلع والمنتجات وفى نفس الوقت خفض أو تقليل التكلفة الانتاجية ولعل أحد طرق تقليل التكلفة هو محاولة اقتطاع العمل باستمرار من خلال إحلال الآلة وتقليل قوة العمل البشرية وينجم عن هذا نتيجتين: الأولى تمثلت فى أنه أصبح أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة أو غير القادرين على امتلاك

رأس المال الكافى للاستثمار فى المصانع الجديدة غير قادرين على المنافسةبشكل ناجح مع الآخرين وبالتالى فهم يهبطون إلى أسفل ويلتحقون بطبقة البروليتاريا.

ثانيا: زيادة نسبة البطالة بين طبقة العمال (البروليتاريا) ومنذ أن كان أصحاب طبقة مكتسبى الأجور من العمال هم أنفسهم المستهلكون فقد تزايد مستوى الفقر، ومن ثم نجم عن ذلك الطلب على بعض السلع المعروضة، ولمواجهة هذا النقص فى الطلب أصبح من واجب أصحاب رؤس الأموال تقليل التكلفة بهدف الحفاظ على مستويات الفائدة والربح ذاتة ومندمجة مع عملية الانتاج بشكل عام، ومن ثم تنفيذ هذا سواء من خلال تقليل قوة العمل اليدوية أو حتى الاستمرار فى تقليل الأجور للعاملين، ويمكن تنفيذ مثل هذه الاستراتيجية من خلال تقليل الأجور والتى قلت بشكل واقعى (حيث قامت ثورة وإضراب عام ١٩٦٦ عندما تناقصت أجور عمال المنجم، وكذلك يمكن زيادة الأجور ولكن بشكل متباطىء جداوغير متناسب مع مستوى التضخم الاقتصادى وكنتيجة لتلك الأساليب السابقة قل الطلب بشكل متزايد ومن ثم أثر هذا على العرض **Supply**.

وباستمرار هذه العملية فقد تزايدت الفجوة بين كل من طبقتى أصحاب رؤوس الأموال البرجوازيين وأصحاب قوة العمل منة (طبقة البروليتاريا) نتيجة لذلك تزايدت مستويات فقر طبقة العمال من البروليتاريا وهنا نشأت الظروف التى ساعدت على تنمية الوعى الطبقى الحقيقى بينهم غير المزيف وتحولت طبقة البروليتاريا العاملة من مجرد طبقة هامشية إلى طبقة فى الواقع ذاته لها أفكارها الخاصة بها أيضا وبهذا تحولت من مجرد طبقة فى حد ذاتها إلى طبقة لأجل ذاتها **it changes just aclass in itself to being aclass for itself**

وعندما يصل وعى هذه الطبقة إلى حده الأقصى سيقوم عمال االبروليتاريا بالانقلاب ويطيحوا بالرأسمالية ومن ثم سيقومون بالاشراف على وسائل الانتاج ويسيطروا عليها وكذلك على أجهزة الدولة كما فعل الرأسماليون قبلهم.

ووفقا لماركس فهذه الثورة تعتبر آخر ثورة فى المجتمع وهى ليست مثل غيرها من الثورات السابقة فلن توجد طبقة استغلالية فى المجتمع حيث سيتم سيادة القواعد والقوانين والأحكام من قبل الحكومة المشكلة من طبقة البروليتاريا أو طبقة العمال وهنا ينتهى ويمحى مجتمع الطبقة الذى يقوم على وجود طبقات مختلفة فى مستواها وتنتهى كل شرورها ومساوئها وبذلك يظهر شكل جديد للحرية البشرية فى المجتمع الشيوعى. **Communist Society**

وفى النهاية يصبح المجتمع مجتمعا شيوعيا اشتراكيا ذاخراً وملىء بالفوائد والمصالح ويصبح الجميع لديه حرية العيش والعمل بمرونة منتجا أشكالا ابتكارية لأجل مصلحتهم بدلاً من مصلحة الآخرين. وهنا يصبح للأفراد حق تقرير مصيرهم والتحكم به وصنع التاريخ الخاص بهم مع ملاحظة أن المساواة تخلق التحرر. كما يرى ماركس ١٩٧٦ أنه سيصبح من حق الفرد القيام بشيء ما اليوم والقيام بعمل آحر فى الغد أو على سبيل المثال القيام بالصيد فى الصباح وصيد الاسماك فى المساء وتربية قطاع الأبقار فى نهاية اليوم والقيام بالنقد فى الليل أو بعد تناول العشاء تماما كما هو الحال فى المقولة " ما دام عندى عقلا " **Just as have aMind** اصبح صياداً وقناصاً وراعياً وناقداً.

وهنا يظهر أنه فى المجتمع الشيوعى الاشتراكى فقط يستطيع الأفراد تحقيق وضعهم ومكانتهم الخاصة للابتكار والقيام بالأفعال الصالحة وفى أشكال المجتمعات الأخرى فإن انتاج الثروة المادية من خلال السيطرة على طبقة واحدة دون الاخرى فإن الباقيات تستتكر هذه الاقطاعية فى المجتمع الاشتراكى. وبغض النظرعن الطرق التى يتم بها مواجهة ومخاطبة أصحاب السلطة والنفوذ، فمن وجهة نظر النظام الماركسى فإن كل المجتمعات الطبقية القائمة على الطبقات تقوم بأغتراب **alienation** أعضائها وتجريدهم من آدميتهم وحرمانهم من فرصة تحقيق ذاتهم وكيانهم الخاص. أما بالنسبة لماركس فإن الكائن البشرى محروم من كونه كائن بشرى فى مجتمع الطبقات.

التناقضات داخل النظام الماركسى الشيوعى.

Controversies within Marxism

إن مدخل البنية التحتية والفوقية فى كل من المؤسسات والأفكار والمعتقدات وكذلك التغير الاجتماعى هو ما جعل علم الاجتماع الاشتراكى الماركسى متميزاً ومحدداً المعالم ووفقا لـ" لى ونيوباى (١٩٨٣) فإن هذا التمييز المبنى على البنية التحتية والفوقية يقع فى قلب علم الاجتماع عند ماركس. حيث أشارماركس نفسه لهذا التمييزبين البناء التحتى والبناء الفوقى على أنه " هو إرشاد الخيط والامساك بزمام الأمور من بدايتها فى دراساته، وقد أراد ماركس أن يوضح كيف أن الحياة غير الاقتصادية تؤثر بشكل مباشرعلى الانشطة الانتاجية وكيف أن التغيرات فى المجال الاقتصادى قد تمكن الأفراد من رؤية العالم بصورته الواقعية كما هو فعلا، ومن ثم

نتيجة لذلك توضيح كيفية إمكانية واتاحة التغير الاجتماعي فقط كنتيجة مترتبة لأشكال التقدم الاقتصادى، وبالرغم من أن الثورة تحدث بالحركة السياسية، فإن إدراك ضرورتها أصبح نتيجة للاثار الناجمة عن التغير الاقتصادى، ونتيجة لذلك تصبح الأفكار فى هذا المجتمع تابعة حتما للتغيرات والظروف الاقتصادية المحيطة وبشكل خاص فإن التغيرات فى الأفكار وخاصة تلك المتضمنة التحول من الادراك المزيف للوعى الطبقى ومن ثم الرغبة فى تغير المجتمع قد تحدث كنتيجة تابعة للتغير الاقتصادى وهذا هو ما أوضحه ماركس ١٩٧٦ بأن الافراد يصنعون تاريخهم الخاص بهم ولكن ليس تحت وطأة توابع اختيارهم.

ومنذ أن ظهرت هذه الأفكار فقد سببت العديد من صور التناقض ولعل من أهم الاتهامات وأشهرها أن نظرية ماركس الاشتراكية هى نظرية الحتمية الاقتصادية والتى توضح أن كل صور التنمية سواء الاجتماعية والسياسية والعقلية هى نتيجة التغيرات الاقتصادية ومن ثم فإن كل أفعال البشر وتصرفاتهم هى متحركة وفقا للدوافع الاقتصادية.

ومنذ أن كان مثل هذا الادعاء غير صحيح، فإن الماركسيين فى القرن العشرين أصروا على أن قراءة ماركس بهذا الشكل مشوشة ومزيفة وتؤدى لغموض ملامح الماركسية بالرغم من أنهم أقروا كما هو الحال مع ماركس نفسه أن بعض تابعى ماركس فى القرن التاسع عشر لم يرتكبوا مثل هذا الخطأ وبالعودة لمثل هذا العمل فقد اشتكى ماركس بأنه " أنا لست ماركسى شيوعى " ويوضح الماركسيون بشكل مؤكد أن ماركس لم يكن يعنى أنه فى أى وقت محدد يتم تحديد البنية الكلية للحياة الاجتماعية بشكل اقتصادى أو أن كل فرد مسير من قبل دوافعه الاقتصادية والمؤثرة فى تصرفاتهم. ووفقاً ل " لى ونيوباى " ١٩٨٣ أوضحا أنه بالنسبة لماركس فإن مثل هذا التقليص الاقتصادى ليس مادية تاريخية أو حتى أن الماركسية نظرية تجريد للبشرية من ملامحها الانسانية والتى قللت من حرية الأفراد وللتحول إلى الميكانيكية الاقتصادية وأنكرت أى حرية للإرادة فى الاختيار.

ولسوء الحظ عندما وافق الماركسيون على أن ماركس لم يكن يعنى ما يقصده فإنهم لم يوافقوا على ما كان يقصده ذاته، وقد سيطرت المناقشات والمناظرات حول علاقة البنية الفوقية بالبنية التحتية على علم الاجتماع الماركسى الشيوعى فى القرن العشرين. وتتمثل المشكلة فى أنه قلل من التأكيد الاقتصادى كمصدر مؤثر على الأفكار، هو تماما كما هو الحال عند حجب أو إلغاء صفة

الماركسي الشيوعي عن النظرية أو الماركسية الشيوعية، ومن ناحية أخرى فإن التأكيد على العامل الاقتصادى على أنه المحرك المؤثر على باقى نواحى الحياة الاجتماعية هو ما يجعل المرء ماركسى ولكنه يضعك أيضا على مستوليات الحتمية الاقتصادية. **Economic Determinism**

إن أهمية المناظرة للماركسيين الشيوعيين لا يمكن الزيادة فى التأكيد عليها وهذه نظرية حديثة لما وراء التميز فهى تضع قواعد للتصرفات السياسية وهنا يكمن سر نشأة المجتمع الصالح. ومن هنا فهى وسيلة لتحرير الانسان من خلال التقدم الاجتماعى.

وبالنسبة للماركسيين ليست المسألة فقط مجرد فهم العالم ولكن أيضا تغيير المجتمع كذلك، وليست المشكلة فقط مجرد الحصول على النظرية الصحيحة لشرح الرأسمالية وتوضيحها، إلا أن النظرية يجب أن تكون صحيحة وسليمة لانها وسيلة أو سلاح التحول والتغيرالاجتماعى والسياسى، والهدف من النظرية الماركسية يكمن فى تدمير الرأسمالية القائمة.

وبأخذ مثل هذه النقطة فى الاعتبار فإن شدة الجدل بين الشيوعيين الاشتراكيين فى القرن العشرين يمكن فهمها بسهولة ذلك أنها إذا كانت الماركسية صحيحة فإن من الممكن فى هذا الوقت التنبؤ والتوقع من بعض مجتمعات القرن العشرين أنها ستتحول تحت إطار قوى التقدم المحددة من قبل هذه النظرية، وفى الواقع فإن ماركس يوضح قائلاً أن "لا تقلق، سيقوم هذا المجتمع الشرير بتدمير نفسه تلقائيا بشكل حتمى فكن صبورا ربما بشكل بطىء نسبيا ولكن لا يمكن تجاهله حيث ستقوم الادارة الاقتصادية بتغيير وإحداث مثل هذا التدمير فى النهاية ومن ثم مساعدة طبقة العمال (البروليتاريا) من إدراك وفهم الحقيقة وبشكل تدريجى بعد ذلك سيقومون بالتصرف وفقا للوضع الجديد".

ولكن لابد من التساؤل حول ما هو الدليل؟ فكما أوضح " لى ونيوباى **Lee and Newby**" ١٩٨٣ فإن الماركسية الشيوعية الحديثة ستأتى بشكل إجبارى متزامن لحدوث الأحداث. لكن فى الواقع ليس هناك مجتمع رأسمالى متقدم حدث فيه ثورة عمالية ناجحة وقعت بالإضافة إلى أن أكبر دولة رأسمالية فى العالم متقدمة هى الولايات المتحدة الامريكية تشهد زيف وخطأ بعض التوقعات الماركسية ولا يقوم الغالبية العظمى من العمال الامريكان بزيادة مستوى معيشتهم فقط، وانما فليس هناك أية صلة واضحة ملموسة بالشيوعية الاشتراكية بين العمال

الأمريكان، بالإضافة إلى أنه لا توجد أى حركة ثورية واسعة النطاق تهدف إلى تدمير وقمع الرأسمالية. وفى أوروبا خلال الثلاثينيات فإن العديد من الظروف التى أدت بكتابات ماركس الى تصديق المرء لها فى انها ستساعد وتدعم نمو وعى الطبقة العاملة التى كانت حاضرة وموجودة بالفعل. والتى تمثلت فى وجود عدد كبير من بطالة العمال فى المجتمعات الرأسمالية ونتيجة الازمة الاقتصادية الشديدة التى حدثت فى الثلاثينيات فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة، ولا تعد النتيجة هى نمو الاشتراكية الثورية داخل طبقة العمال، ولكن بشكل مساو أدت إلى نمو الفاشية وقد فشلت طبقة البروليتاريا بشكل واضح فى التصرف على النحو الذى توقعه ماركس أو حتى رغب به.

ومع العيش مع مثل ظروف الرأسمالية والتى تمت مواجهتها من قبل طبقة العمال إلا أنها ليست متوافقة مع أفكار وظروف الشيوعيين الماركسيين فى القرن العشرين وهنا يصبح من المدهش ان الجهود التى قام بها معظمهم قدمت الدليل الملموس والواقعى على تحديث الماركسية أو لمحاولة بعث حياة اجتماعية أخرى داخل النظرية.

وهنا انبثقت مدرستان ماركسيتان هما:

١- **الماركسية الانسانية:humanist Marxism** ومثلها النموذج الايطالى لأنطونيو جرامشى ١٨٩١ ١٩٣٧ وأعضاء مدرسة فرانكفورت الالمانية والتى تم تأسيسها داخل معهد فرانكفورت للبحث الاجتماعى المؤسسى فى ١٩٢٨ والذى اختص معرفته بالنظرية النقدية **Critical Theory**

٢- **الماركسية البنائية:Structuralist Marxism** وارتبطت أساساً بالرجل الفرنسى لويس ألتوسير **Althasser (١٩١٨ ١٩٩٠)**

الماركسية الإنسانية Humanist Marxism

حول الماركسيون الانسانيون اهتماماتهم وتركيزهم على البناء الفوقى وأظهرت الاحداث السياسية التى شهدها القرن العشرين أنغلاق الايديولوجيات لعقول الطبقة العاملة والتى أصبحت آمنة جدا حيث أن الماركسية التقليدية القائمة على الانتظار حتى تقوم الأزمات الاقتصادية بإيقاظهم واشعال الوعى الطبقى عندهم وكذلك الحركات السياسية يجب أن يتم إعادة التفكير بها، وتصبح نقطة

الجدل هنا متمثلة فى بيان أن التغيرات فى القاعدة من قبل أنفسهم ليست كافية لحفزالتغيرات فى الأفكار، منذ أن كان النظام آمن على عقول أفراد الرأسمالية من خلال الفجوة فى الأفكار. وبشكل نظرى فهذا يعنى أنه يجب وضع كم كبير من الأهمية لدور البناء الفوقى فى الارتقاء بالأفكارالصحيحة السليمة من خلال تفسير استمرار سبب انتعاش وبقاء الرأسمالية وتلك الأفكار الصحيحة الخاصة بالنظرية الماركسية بهدف التنافس فى الفكر الايديولوجى العقائدى، وبالرغم من ذلك فإن مدرسة فرانكفورت وجرآمشى اختلفا حول فرص التغير فى البناء الفوقى ودرجة تأثيره، فبينما كان جرامشى متفائلاً فإن المنظرين النقديين فقدوا كل الايمان فى الوضع الثورى للطبقة العاملة.

جرامشى Gramsci

ويعد جرامشى مشهورا بفكرته الخاصة بالسيطرة والهيمنة **hegemony** وقد استخدم هذا المصطلح لتلخيص كل الطرق الاستهلاكية المتاحة التى تقوم الافكار فيها والايديولوجيات بتشويه أو تحريف وجهة نظرالأفراد حول العالم الخارجى الذى يعيشون فيه، وأكثر من مجرد النظر لسيطرة أفكار معينة والتى منها تستفيد الرأسمالية، فإن السيطرة والهيمنة تشير لعدم القدرة للمؤمنين حتى على المعرفة المرتبطة بمعتقداتهم والتى بشكل أساسى قادرة على كونها مختلفة وطبيعية ليتم الاهتمام بها وبكونها كذلك. ومن خلال وصف المعتقدات على أنها مسيطرة لذلك فهى تعنى انها مؤشراً بأن هؤلاء الخاضعون لها يأخذونها ويتقبلونها على أنها أمور مسلم بها غير قابلة للنقاش وتحتاج لمجهود مدروس من أجل توضيح وجودها وهذاالتغيير متروك فقط لعقول المؤمنين والمصدقين لها.

وبسبب هذه الرؤية النظرية لطبيعة الايمان والاعتقاد تحت ظل الرأسمالية فقد أدى هذا إلى أن أصر جرامشى على الاهمية السياسية للتحدى المباشر لسيطرة هذه الأفكار المهيمنة. وقد أوضح جرامشى أن ماركس كان صائبا فى قوله أن التغير الاجتماعى يعتمد ويتوقف على رؤية طبقة العمال البروليتاريا للعالم من حولهم كما هو فعلا. إلا أنه كان مخطئا فى قوله أن هذا سيحدث بدون حركة مقصودة عن التصرف نحو الحقيقة ومن ثم فإن حراس الحقيقة وهم الماركسيون ركزوا معرفتهم عن الحقيقة المرتبطة بالرأسمالية، ويجب أن يتمتعوا بصفة الاقناع والوعظ وكذلك التدريس وقبل أن يتم القيام بالحركة السياسية لتحويل

وتغيير النظام فإن معركة العقول الخاصة بالجنود يجب أن يتم كسبها ويجب السيطرةعلى هيمنة الطبقة البرجوازية والقضاء عليها وهزيمتها.

والفكرة أن هذه الايديولوجيات يجب نشرها وهى الخاصة بأن الوعى المزيف يجب استبداله بالوعى الطبقى وذلك قبل قيام الحركة السياسية التى لها أهميتها فى المجتمع الماركسى، لكن ما هو مختلف مع جرامشى هو حساب كيفية حدوث هذا. وقد أوضح أن هذا لم يحدث أوتوماتيكى تلقائى أو آلى من خلال التغير الا قتصادى وذلك بسبب المعتقدات المهيمنة بالقوة من ثم يجب ضمانه من قبل التعليم ومن خلال وسائل مضادة للتنشئة الاجتماعية.

النظرية االنقدية: مدرسة فرانكفورت.

The Frankfurt School Critical Theory (1898-1979)

يعد أكبر ثلاث مفكرين بمدرسة فرانكفورت هم: هربرت ماركوزه وتيودر أدورنو(١٩٠٣- ١٩٦٩) وماكس هوركهايمر(١٨٩٥-١٩٧٣) خلال فترة حرب هتلر للولايات المتحدة الامريكية فقد راقبوا نشأة وسقوط الدولة النازية، ومن ثم عملية سيطرة وتعزيز النظام الرأسمالى فيما بعد الحرب فى الحياة مع تزايد التحرر من الوهم، كما راقبوا عن قرب تحريرطبقة العمال المتوقع انهم فاقدى الأمل، وبشكل أساسى بسبب اعتقادهم وإيمانهم غير المحدود بقوى البناء الفوقى والتى رأوا دورها وهى تنتشر بشكل واضح وتسيطر على الحياة المتقدمة تحت ظل الرأسمالية وبالنسبة للعديد من المفكرين فى وقتنا الحالى فإن الوسائل الفكرية و العقلية التى تم استخدامها لشرح انتصار الرأسمالية من خلال هذه القوى ظل مرتبط بشكل قوى بعملية فهم الحياة المعاصرة.

وكما هو الحال مع جرامشى والذى كان مهتم بالتأكيد على تحكم الأفكار كمصدر رئيسى لسلطة الرأسمالية، ومن ثم فإن النظرية النقدية ركزت على أدوات ووسائل السيطرة العقلية الذهنية كمفتاح النجاح فى الرأسمالية وبالنسبة لها فإن (النظرية النقدية) توجه ثلاث ملامح لثقافة الرأسمالية فى وظيفة محددة لهذه الوسائل وهى:

١- طريقة التفكير تسمى السبب الأدائى أو الوسيلى والذى تم وصفه بواسطة جرايب ١٩٨٤ على أن طريقة النظر للعالم اللذى يبرر

سيطرة الأفراد على أحدهم الآخر وسيطرة النظام على تخدير (تغيب) الأفراد.

٢- دور الإعلام أوالثقافة الشعبية فى عمليات التفكير للافراد ومن ثم تحويلهم الى عدم القدرة على نقد المجتمع الذى يعيشون فيه.

٣- سيطرة وانتشار نمط معين من الشحصية الذى لا يقبل فقط السيطرة أو الهيمنة ولكنه كذلك يرغب بنشاط بها.

ويعد السبب أو السببية الادائية هى صدى أو انعكاس لتركيز فيبر **Weber** على العقلانية **Rationalisation** كملمح رئيسى للحياة المتقدمة (أنظر الفصل الرابع) والمقصود أن يتم توصيل وارسال السيطرة القبلية لرؤية الاشياء على أنها وسائل أدائية كما تعنى فى النهاية أكثر من كونها لها قيمة فى أنفسهم،فهى تركز على كيفية تحقق الاشياء للأهداف أكثرمن كون الاهداف تستحق ذلك أوما إذا كانت الوسائل يجب استخدامها لأسباب وأهداف محددة، وكما أوضح جريب (١٩٨٤) أن السبب الآدائى يفصل الحقيقة عن القيم فهو مهتم بكيفية القيام بفعل الأشياء المختلفة وليس بما يجب أن يتم تنفيذه.

ان محورية هذه السببية فى المجتمع المتقدم بطبيعتها نتيجة للنشاط الرأسمالى بصورعدة، وهنا يصبح الدور الرئيسى للعلم الوضعى فى الحياة المتقدمة المعاصرة متميزا بالبحث المستمر واللانهائى لاسباب التأثيرات للمعرفة التقنية بكيفية قيام انتاج اشياء بأنتاج أشياء أخرى، فهذا يعد من المسائل الملحة للدراسة، وفى الواقع فإن اعتراف ماركس بأن العلم هو طريق المعرفة أصبح فى حد ذاته مصدر نقد من قبل المنظرين الذين ينتمون لمدرسة فرانكفورت وبشكل مختصر، فالنظريات النقدية تهتم بجوهر الانسان البشرى الذى يسعى إلى القدرة على السببية حول المعنى والقيم والخير الأقصى، وهذا قد سيطرعليه الأدائى الذى أصبح وسيلة مهمة لنقد الأهداف والقيم المتجسدة فى النظام القائم والذى يتم منعه.

وتعد نشأة ثقافة الاعلام نظام أخر من الادوات الخاصة بالهيمنة والسيطرة العقيلة التى تم تحديدها من قبل كتاب فرانكفولات بالاصرار على أن اختبار وفحص دور الهيئات الثقافية والتى منها الموسيقى الشعبية والسينما والراديو (والتى يمكن توضيح أنه فى عصرنا الحالى اشتملت كذلك على كل من التلفاز والفيديو) لها أهميتها فى عدم رغبة البشر فى القيام بأى شىء سوى الاندماج بشكل سلبى فى مساعدتهم ومعاونتهم، ومن ثم فإن المنظرين النقديون اشتهروا بانعزالهم

وابتعادهم عن وسائل الترفيه الشعبية والعامة باعتبارها غير انسانية وعديمة القيمة. كما أنها ارتبطت بالتقليد العقلى الفكرى والنخبة المسيطرة ثقافياً إلا أن كتاب مدرسة فرانكفورت قد اقتنعوا باللفن ووظيفته الواضحة فى جعل الحقيقة الواقعية تافهة حيث أنه يمثل سبب جذرى لتوافق وتسكين شرور المجتمع الحديث وذلك على عاتق أعضائها (الثقافة الاعلامية)

وفى الواقع فإن مفهوم النظرية النقدية، ووصف هذه الافكارينبع من هذا الرأى حيث أهتم بالمفكرين والفنانين بها والتى لديهم ألفة به حيث تنتج العديد من المنتجات الثقافية الخطيرة التى تنشرفقراً وانحطاطاً من وسائل الترفيه الاعلامى. بالاضافة الى أنها تصبح عندها القدرة على وصف وعرض وجهة نظرنا عن المجتمع الحديث وذلك بهدف توضيح مدى نشأة مجتمع بديل صالح، وقد أدى هذا الوضع الى نقد تفكير مدرسة فرانكفورت منذ أن كان هناك فرصة لتطبيقها ليس فقط لتصبح قيم صحيحة بل أن الفرصة لتعريفها من خلال معرفة الجيد من الفاسد عند مجرد النظر اليها فضيلة تم السيطرة عليها من قبل المنظريين أنفسهم وتابعيهم وهنا لا يدعى هؤلاء أنهم القادرون وحدهم على معرفة الجيد من الردىء.

ويعد العنصر الأخير فى النظرية النقدية اهتمامها بنوع وخصائص وملامح الشخصية التى وجدت فى المجتمع الحديث وهربرت ماركوزه على وجه الخصوص هو من قام بتطوير هذا الوضع معتمدا على أفكار فرويد لتوضيح أن كل المجتمعات فى حاجة للارتقاء بعملية الكبح أو القمع وخاصة للميول الجنسية أو رغبات أفراد المجتمع بهدف منع انهيار النظام الاجتماعى، وأوضح أن أى تفسير للمجتمع الحديث يجب أن يشمل على فحص كيفية تحقق هذا الكبح فى مختلف نواحى الحياة والعالم

ووفقا لماركوزه **Marcuse** فإنه فى المراحل الاولى من الرأسمالية فإن درجة عالية من الكبت والقمع ضرورية بهدف التأكيد على أن يركز الافراد على العمل والانتاج، وفى المراحل الناضجة لها بالرغم من ذلك فإنه يوجد حاجة أقل لمثل هذاالتركيز الخاص، ومن ثم فإن استرجاع هذا القمع أو الكبت ذو أهمية واضحة لمتطلبات النظام، وفى مثل هذه الظروف فإن الاستمرار فى الإصرار على مثل هذا القمع أو الكبت من قبل الأفراد قد يؤدى لحالة من عدم الرضا، ومن ثم تبذل العديد من الضغوط النفسية من خلال ما أسماه عدم الانصياع أو عدم الخضوع للقمع وذلك بهدف السماح لنا بإدراك والتأكيد على رغباتنا، ولكن بطرق

أكثر فائدة للنظام ومن ثم فإن الروتين المستخدم بواسطة الصور المثيرة لبيع السلع المختلفة فى المجتمعات الرأسمالية من سيارات وسجائر وكحوليات وقهوة وملابس من خلال ربط السلع أو البضائع بالحالة الجنسية أو الظروف المحيطةأو حتى من خلال الرضاء واشباع الرغبات والتى قد تصبح حالة عدم ارضائها خطرة ومدمرة، وكما هو الحال مع باقى الأوضاع البشرية فأنه بالنسبة لماركوزه فإن استخدام الجنس بمثل هذه الطريقة هو فى حد ذاته له أهمية ودور حيوى فى تحقيق الوجود البشرى ومن ثم تحويله الى آداة ووسيلة للسيطرة والهيمنة.

وفى أيامنا هذه فإن أحد اتباع النظرية النقدية وهو جورجين هابرماس **Habermas** الذى بالرغم من أنه معروف على أنه واحد من أصحاب التأثير الرئيس على مؤلفى النظريات الاجتماعية المعاصرة فإنه قام بتحقيق التعديل بالنسبة لأفكاره، فإن هذا يتطلب مستوى من الانفتاح الذى لا يتوافق مع الأهداف التقديمية لهذا النص.

ألتوسير والماركسية البنائية

Althusser and Structuralism Marxism

أما بالنسبة للماركسيين البنائيين كألتوسير فإن الماركسية الانسانية هى نظرية خاطئة ومن ثم تكون خاطئة فى الممارسة وبالنسبة لجرامشى فإن الافراد قادرون على رؤية من هم الذين كانوا مجبرين على أن يكونوا من خلال الأيديولوجيات ومن ثم قد يختاروا ليخلصوا أنفسهم من هذه السلاسل المسيطرة عليهم، ومن ثم تصبح لديهم القدرة على أن يكونوا فعلا قادرون على عمل مثل مشجعى ومدعمى الأشكال الأخرى البنائية (انظر الفصل السابع فقد رفض التوسير بشكل تام فكرة أن الافراد قد يكونوا مجرد موضوعات أو عوامل ابتكارية بهذه الطريقة، ومن ثم يصبحون مسئولون عن كل من حياتهم وعالمهم الذى يعيشون فيه. وبالنسبة له، فإن الحياة البشرية هى دائما مبنية ومتغيرة والذى غالباً ما يأتى على مستوى البناء الاجتماعى تملك أعمالها أى شيء سوي المعرفة البشرية وكذلك الاختيار والهدف، ومن ثم فترى الماركسية الألتوسيرية نفسها على أنها الوريث للماركسية المتأخرة وللكتابات المنتجة المتجهه نحو الحياة النهائية لماركس حينما حاول بناء تحليل علمى لبنية الراسمالية ولكنه متناقض مع أعماله المبكرة، والذى تمثل ورثته فى الماركسيين الانسانيين ومنهم جرامشى والذى تعتبر بالنسبة له

الطريقة التى نعيشها هى نتاج الطريقة التى نفكر بها، بينما الماركسيون الانسانيون فإن التغير الاجتماعى فى االمجتمع الرأسمالى يحدث خلال التغيرات فى الهدف البشرى وكذلك الدافع الانسانى، وبالنسبة لألتوسير فإنه يحدث من خلال التغير فى العلاقات البنائية للرأسمالية، وبشكل نظرى فإن التوسير هو متناقض ومتضاد مع كل من الماركسية الاقتصادى والماركسية الانسانية والمركزة على القاعدة أو على التنظيم الاقتصادى، وباستثناء الملامح التركيبية البنائية الأخرى للبنية الفوقية، والتى بالنسبة له هى خاطئة مثل التركيز على الأفكار التى تم الايمان بها من قبل الطبقة العاملة، وقد أكد ألتوسيرعلى أن الماركسية العلمية فقط ملائمة لفهم البناء الرأسمالى المعقد الذى قد يقود لدمار هذه المجتمعات.

ووفقا لألتوسير فإنه توجد ثلاث مستويات لبنية وتركيب أى مجتمع طبقى الاقتصادية والسياسية والفكرية، وقد عرفهم التوسير بشكل متسع، ومن ثم فقد اشتملت على معظم ملامح الحياة البشرية، ويهتم المظهر الاقتصادى بكل ملامح الانتاج المادى بينما ارتبطت البنية السياسية بكل أشكال التنظيم، وكذلك ارتبطت البنية الفكرية بكل أنماط الأفكار والمعتقدات، مع ملاحظة أن كل من البنية الفكرية والسياسية ليس نتاج بسيط للبنية الاقتصادية، وبالرغم من أن المستوى الاقتصادى هو المحدد الحقيقى، وقد عرف التوسيرالمستويين السياسى والفكرى وفقا لاستقلالهما النسبى **Relative Autonomy** ومن ثم فهما مستقلان ومهمان فى حد ذاتهما، ومن ثم فإن العلاقة بين هذه المستويات الثلاث لبنيات المجتمع متداخلة ومتنوعة، وقد استخدم إيان كريب ١٩٨٤ **Ian Craib** رسماً معمارياً مناظراً لشرح هذه العلاقة كما يلى "يمكن النظر للعلاقة بين أرضيات لمجمع أو مبنى متجر متعدد الطوابق وملاحظة أنه من التافه قول أن كل من الطابقين الأول والثانى هما نتيجة للطابق الارضى، وذلك بالرغم من أنهم موضوعين عليه، أو تمت نشأتهما فوقه إلا أنه توجد علاقة من شكل ما بين كل هذه الطوابق، فكل منهم هو منفصل فى حد ذاته عن الطابق الذى فوقه وذلك الذى تحته، وأن كل ما يحدث فى كل طابق على حدة منفصل عن غيره، فالطابق الأول قد يكون محل أو متجر أما الثانى فقد يكون مجموعة من المكاتب أما الثالث فقد ينقسم الى شقق سكنية وقد كان مصطلح التوسير لشرح هذه العلاقة بينما توجد علاقة سببية ولكن ليست اعتمادية على الآخر بشكل كامل أى هى علاقة مستقله نسبياً مع ملاحظة ان كلا من المستويين السياسي والفكري غير معتمدان علىالجانب الاقتصادى بشكل كبير

وكلى، وكذلك غير مستقلان عنه تماما فاذا تم فى الحسبان الاخذ بان هذا البناء هو مشروع متكامل فان مكتب العمل الذى يتم الاهتمام به فى الدور الثانى يعتمد بشكل واضح على نوع التجارة الذى يحدث فى المحلات فى الدور الذى قبله، الا انه توجد طرق متنوعة يمكن تنظيمها فيها وكذلك علاقات العمل التى قد تنتمى فى مجموعة من الطرق غير متأثرة بالنشاط الاقتصادى الذى يحدث فى الاسفل وبشكل متشابهة اذا كان الملاك يعيشون فى الدور الثالث فان مستوى معيشتهم والطريقة التى يعيشون بها لها حدودها وفقا لطبيعة العمل الذى يحدث ولكن هناك مجموعة من الاختيارات داخل هذه الحدود وكذلك تطور الحياه الاسرية والزواجية التى لها تفاعلتها الخاصة بها.

ولقد كانت خطوة التوسير التالية بعيدا عن الماركسية الاصلية هى من خلال توضيح ان العمليات السببية لها طريقان او اتجاهان، المستويان السياسي والفكرى يؤثران على الاقتصادى وبالعودة الى المثال فان القرارات المبنية على المحكات الادارية داخل المكاتب قد يكون لهل تاثيرها على التجارة فى المحل او المتجر هو ما يسمى سير بنية الادارة، وعلى سبيل المثال قد يقود الى زيادة نقطة الدوران أو التحول وبالتشابهة اذا كان العمل مملوك وفشل الزواج فان الاستقرار بين الشركاء قد يكون له تاثيره الهام على طبيعةالعمل.

وكما قد يتوقعة المرء من هذا الادراك لبنية المجتمع الطبقى فقد أوضح التوسير أن دراسة التاريخ قد كشفت وأوضحت الحقب التى يسيطر مستوى ما على المستويان الاخران الا ان هذه الحالة ليست الحالة المستقرة أو الثابتة دائما، ومن ثم يمكن توضيح ان البناء المسيطر كما يطلق عليه، ففى القرن التاسع عشر كانت الرأسمالية ذات تاثير اقتصادى مع سيطرة الطبقة البرجوازية الصناعية ليس فقط علىالحياة الاقتصادية ولكن كذلك على الحياة السياسية، وكانت السلطة على المستوى الفكرى (الايديولوجى) متمثلة فى الكنيسة، والتى كانت تسيطر على الحياة فى المجتمع الاقطاعى بينما اليوم قد تكون الحالة او المستوى المسيطر هو المستوى السياسي كما هو الحال فى المجتمع البريطانى حيث أن سلطة الدولة وتتخلل كل أوجه الحياة المختلفة.

كذلك فان التوسير أشتهر باطار تصورى منفصل عن العنصرين الأساسيين والذين تمارس الدولة سلطتها، كما أشار الى بعض المنظمات ومنها الشرطة والقانون والجيش والمحكمة وهكذا كمشكلين لجهاز السلطة الرادع أو

القمعى. بالإضافة الى هذا الجهاز السياسى يوجد آخر فكرى هو ما أسماه جهاز الدولة الفكرى المتمثل فى االنظام التعليمى والاعلام وكذلك المؤسسات الدينية والثقافية، وفى تصور التوسير أن العديد من المستويات المسيطرة على فترات زمنية مختلفة، ومن ثم فقد كان فى المجتمع الحديث ان استمد النظام التعليمى من الدين سلتطه كوسيلة اساسية لايديولوجية القمع حيث كان عمل كل من بولز وجنيتز ١٩٧٦ على أن هناك تطابق بين احتياجات الرأسمالية ووظيفة التربية فى نظرية الممارسة الألتوسيرية.

الخاتمة: Conclusion

بالرغم من الجهود الفكرية لمدرسة الماركسية المحدثة **Neo- Marxist** فإن الرأسمالية مازالت مستمرة بدون أى تهديد، والدليل على ذلك ما شهدناه فى أحداث التحول التى شهدتها أوروبا الشرقية فى حقبة التسعينيات، ليس فقط من انهيار النظم مثل لعبة الورق، وليس فقط من الانهيار الداخلى للاتحاد السوفيتى، ولكن الاشكال القديمة للطموح السياسى التى ظهرت لتحل محل النظم الشيوعية فى أوروبا الشرقية مثل القومية **Nationalist** علاوة على ذلك فأن النظم ما بعد الشيوعية الان تدع الاهداف القومية القديمة لتدفع بظهور الرأسمالية وحرية السوق والمذهبية الفردية القائمة علىَ حرية العمل **Leissez- Faire individualism** وهذا لايعنى أن أحداً يستطيع ان يقول بالضرورة أن النظرية الماكسية هى أسوأ من الرأسمالية، ومع هذا فأنها تحتاج فقط الى نظرية فى الممارسة السياسية، وهذا لا يعنى أنها خطأ كنظرية فى الاقتصاد السياسى للرأسمالية.

بينما الاحداث التى تمت فى القرن العشرين تطرح سؤالاً عن تحول الماركسية الى مشروع للحداثة، وهذا لا يعنى أن النظرية الماركسية فشلت فى أن تستمر فى أعطائنا أفضل وضع للوسائل التحليلية للمجتمعات الرأسمالية الحديثة، وهنا تثور التساؤلات التالية هل نمط الانتاج **Mode of Production** هو الذى يحدد خصائص المجتمع؟ وهل الطبقة هى المحور التنظيمى الاساسى؟ وهل الافكار تتأثر فى النهاية بالتنظيم الاقتصادى؟ وفى مقابل هذه الاستخلاصات للماركسية المعاصرة فان ماكس فيبر يقدم تحليلاً بديلاً للمجتمع الرأسمالى المعاصر.

الفصل الرابع

ماكس فيبر

مدخل

كما تم ملاحظته فإن الوظيفية والماركسية يعطيان طرق مختلفة للتفكير فى الحياة الاجتماعية الحديثة وهما ليستا نظريتين متشابهتين فكلاهما ينظر للعالم على أنه نتيجة لملامح البناء الاجتماعى ويحدث التغير بسبب الحركة التى تحدث داخل النظام الاجتماعى وهذه النظريات المرتبطة بالنظام توضح كيفية عمله وكيف يحدث التغيربه.

وبالطبع فإن الأفراد الذين يعيشون داخل تلك المجتمعات لهم نظرياتهم الخاصة عن عالمهم إلا أن تلك التصورات الذهنية لا تتطابق مع الواقع البنائى وغالبا لا يكون لها تأثير على الطريقة التى يتشكل بها العالم. هذا هو السبب أن الوظيفيين يتحدثون عن الوظائف الكامنة أو المبهمة والواضحة أو الجلية كذلك، ولماذا يتحدث الماركسيون الاشتراكيون عن الوعى الزائف والفكرة المرتبطة بوجوب رؤية الأفراد للعالم على واقعه كما هو، هى فكرة غير مهمة فى الوظيفية فبينما تصبح مسألة حيوية للماركسيين (بخلاف الماركسيين الألتوسيريين) فإنه يحدث عندما تقوم التطورات الاقتصادية من خلال أشكال العمل المختلفة الخاصة بالنظام بتشجيع ذلك أو عندما يتم تدعيم ذلك وتقويته من خلال النظام التعليمى القائم. وبالنسبة للوظيفيين عبر فترة زمنية طويلة، وبالنسبة للماركسيين عبر معظم الوقت، ومن ثم فإن الحالات العقلية ليست تابعة لبناء المجتمع، ومن ثم فإن علم الاجتماع عند "فيبر" يتعارض مع تلك النظريات.

وبالنسبة لفيبر فإن العالم كما هو فأنه ناجم عن الفعل الاجتماعى **Social action** ويقوم الأفراد بالعديد من الأشياء بسبب أنهم يقررون أن يقوموا بها، كذلك بهدف تحقيق الأهداف التى يرغبون فى تحقيقها، وباختيا أهدافهم ومرعاة الظروف المحيطة التى يجدون أنفسهم فيها فإنهم يقومون بالاختيار ليتصرفوا بالطريقة التى يتصرفون بها.

ويعد البناء الاجتماعى نتيجة الفعل الاجتماعى، واساليب المعيشة التى تعتبر نتاج الاختيار الدافعى، حيث أن وجود الفعل الاجتماعى يخلق ظروف اجتماعية معوقة للقوى البنائية وبخاصة الفعل الذى ليس له معنى عقلى فى الاصل فيتم اختيارها فى ضوء إدراك الفاعل أو الفعل لهذه المعوقات البنائية. ان فهم الفعل الاجتماعى الذى ينتج الواقع يتضمن شرح وتوضيح لماذا يقوم الافراد بالاختيارات التى يقومون بها. وإن النظريات الاجتماعية ليست نظريات النظام الاجتماعى التى لها تفاعلاتها الخاصة بها ولكنها خاصة بالمعانى التى تكون وراء الافعال. فهذه

النظريات هى النظريات الخاصة بالفاعليين. وقد أطلق فيبر على الطريقة المنهجية التى من خلالها يحدث الفعل (الفهم) **Verstehen** ولأن علماء الاجتماع هم بشرايضاً حيث نضع أنفسنا مكان الاخرين ونقدر الظروف البنائية (التركيبية) المحيطة التى نجد أنفسنا فيها.

ونضع فى الحسبان أهدافهم، ومن ثم فهم الأفعال التى يقوموا بها، وهذا هو الذى يميز العلم الاجتماعى عن العلم الطبيعى. فأزهار النرجس ليست لها الخيار فى تفتح أوراقها، وكذلك لا يختار التفاح أو تتاح له حرية الاختيار ليتساقط عن أشجاره. ومن ثم فإن العلماء الطبعيون لايمتلكون أن يصبحوا مثل أزهار النرجس أو التفاح ليشرحوا سلوكهم ويفسروه ويعللوه.

وعلى عكس معظم علم اجتماع الفعل (كما هو موضح فى الفصل السادس)، وبالرغم من ذلك فقد كان اهتمام فيبربنظريات الفاعل من خلال دوافع الفعل الموجه غائياً لا يعنى أنه فقط مهتم بالنطاق الضيق، وإنما بالمعنى الخاص بالتفاعلات الخاصة بين الأفراد. وكما هو الحال مع ماركس فقد كان فيبر مهتم بالسياق الواسع للتاريخ والتغير الا جتماعى وكما أوضح باركين**Parkin** ١٩٨٢ بكلماته أن "بالنسبة لفيبر فإن المجتمعات جميعها يمكن أن يتم تشخيصها من خلال الصيغ أو الأشكال الخاصة الفعل والتى تستمر داخلهم. إلا أنه على عكس ماركس ودوركايم الذين رأوا أن مهمتهم فى إزالة الستار عن الاتجاهات العالمية داخل الحياة الاجتماعية الانسانية، فقد رفض فيبر مثل هذا المشروع، وأعاد فيبر بناء المعنى خلف الأحداث التاريخية منتجاً البناءات الاجتماعية وتكوناتها الا أنه فى نفس الوقت رأى كل تلك التأكيدات التاريخية الخاصة بالظروف المحيطة على أنها فريدة من نوعها، وأوضح فيبر أن الفرد قد يستطيع أن يقارن بناء المجتمعات من خلال فهم الأسبلب الخاصة بالأفعال التاريخية المهمة التى توثر على شخصيتهم، وأنه من خلال فهم تلك الأفعال المرتبطة بالفاعلين الذين يعيشون داخلهم الآن، الاأنه ليس من الممكن تعميم ذلك على كل المجتمعات أو حتى كل البناءات الاجتماعية ولمساعدة مثل ذلك النوع من المقارنة، فقد جادل فيبر واوضح أن علم الا جتماع يجب أن يستخدم المدى الواسع الشامل من المفاهيم التصورية.

أنماط الفعل Types of action

استخدم فيبر تصنيف مكون من أربع انماط من الفعل تتباين وفقاً لدوافع الفاعلين وهى:

١- الفعل التقليدى: **Traditional action** أنا أقوم بذلك لأننى دائما ما أقوم به.
٢- الفعل العاطفى: **Affection action** أنا لا أستطيع التوقف عن القيام بذلك "كل ما أقوم به أقوم به من أجلك. براين أدم ١٩٩١".
٣- الفعل الموجه قيمياً: **Value –oriented action** كل ما أهتم به هو ذلك أو لا شيء أخر مهم غيره.
٤- الفعل العقلانى أو الهادف: **Goel- Oriented or Rational action**: هذه الطريقة هى الافضل والاكفأ لتحقيق ذلك ولكن توجد طريقة أكثر كفاءة لتحقيق هذا، بينما أنا أفعل هذا لاننى محتاج لهذا.

أنماط عدم المساواة Types of inequality

على الرغم من أن ماركس مثل فيبر يرون أن علاقات عدم المساواة مكرثة فى الحياة غالباً، إلا ان فيبر رفض فكرة ماركس حول التباين الطبقى الذى ما يكون غالباً أكثر أهمية. ووفقاً له فأن التحليل التاريخى المقارن لجماعات المكانة **Status group** – التى تحتل وضعاً اجتماعياً مميزاً – والاحزاب السياسية التى لها تأثيراً سياسياً واضحاً – يمكن ان تكون مصدراً مهماً للتميز فى عضوية الطبقة. وقد حدد ماكس فيبر الطبقة ليس ببساطة فى ملكية الوسائل الانتاجية كما فعل ماركس ولكن فيما تملكة من كل أنواع الفرص الحياتية من خلال قوة السوق **Market Power** فى المجتمع. وهذا يعنى أن قدرات الفرد هى التى تمنحه مهارات فى سوق العمل داخل المجتمع.

أنماط السلطة Types of Domination

مثلما رفض فيبر فكرة ماركس فى أن السلطة هى غالباً ما ترتبط بعضوية الطبقة، وطبقاً لباركين **Parkin** (١٩٨٢) فقد ظهر اهتمامه بالسلطة والقوة الذى عرضها فى عمله السلطة أو الهيمنة باعتبارها من اكثر العناصر أهمية للفعل الاجتماعى، فمعظم الانواع المختلفة من الفعل الاجتماعى للسلطة تلعب دوراً كبيراً، وبدون استثناء فكل فعل اجتماعى يتأثر بعمق ببناء السلطة **Structure of dominancy** وقد أوضح باركين (١٩٨٢) كيفية تنميط فيبر للسلطة التى تحقق الشرعية من خلال القوة.

أنماط السلطة أساسيات المطالبة بالطاعة

- السلطة التقليدية أطعنى لإن هذا ما تفعله معظم شعوبنا غالباً.
- السلطة الكارزمية أطعنى لاننى استطيع أن أغير حياتك
- السلطة العقلانية أو القانونية أطعنى لأننى الرئيس الاعلى بشكل قانونى والمعين عليك.

ومن خلال تطور إطاره التصورى بهذه الطريقة بعيداً عن الاعتماد على العوامل الاقتصادية التى ميزت عمل ماركس.

فلقد أنغمس فيبر بمحاولة رسم صورة عامة لرفض الحتمية الاقتصادية لماركس، لانه يرى ان الافكار والدوافع كقوى محركة فى الحياة الاجتماعية، حيث أن اكد على ضرورة رفض الحتمية الاقتصادية فعلم الاجتماع عند فيبر معادياً تماماً وبشكل واضح للرأى الذى يرى أن كل سلوك اجتماعى يمكن أن يفهم فى ضوء العوامل الاقتصادية، وبالرغم من ذلك فكما يرى بعض المعاصرين لماركس واتباعة من الاقتصاديين، انها ليست مسئولية ماركس نفسه، وهذا ما أعترف به فيبر من خلال معرفته بتعليقات ماركس على عمله نفسة.إلا أنه يوجد هناك سبب أخر وهو لماذا أنه من الخطأ رؤية كتابات فيبر كمحاولة عمدية لدحض أفكار ماركس. وهذا هو السبب فى تنظيره للسلوك الانسانى.

النماذج المثالية والتنظير الاجتماعى

Ideal types and sociological theorising

وفقاً لفيبر فإن الحقيقة الجلية حول التفكير هى أنه لا يوجد انسان يستطيع أن يلاحظ كل جوانب الحقيقة التى يقوم بمواجهتها والتعامل معها والتى أسماها الحتمية المبهمة دون المعنى الخاص بعملية تكوين العالم، فالبشر يستطيعون فقط الاحساس بملامح الواقع، والحقيقة وهى عبارة عن مجموعة من الأحداث الحتمية التى تقع حولنا، فالنظرية تقدم وتوضح أسلوب اختيارك، وانتقائك لما تفكر فيه ويستحق الاهتمام به، واختيارك لما تفكر فيه يوضح ويشرح تلك الأشياء والأحداث، ولكن هذا الاختيارلا يراعى نظرة الفرد المتحيزة والجزئية التى يجب أن تتم بشكل موضوعى.

إن الحقيقة الموضوعية غير متاحةفى النظريات الانسانية كما أوضح فيبر ١٩٧٨ أن كل المعرفة الخالصة بالحقيقة أو الواقع الثقافى هى دائما معرفة من

وجهات نظر خاصة ذاتية، ولا يوجد شيء مثل ذلك هو تحليل موضوعى علمى بشكل مطلق أو كامل أو خاص بظاهرة اجتماعية مستقلة، ومن وجهة نظر واحدة فقط أو وحيدة الجانب، فما نفكر فيه يوجد معتمدا على ما نفكر فيه فى جوهر شيء آخر، ومن ثم فإن الوظيفى قد يرى الأسرة على أنها نسق نظامى متكامل و الماركسى قد يرى نفس مجموعة الاشخاص كوسيلة لإعادة انتاج الرأسمالية بينما الحركة النسائية التى تنادى بمساواة الجنسين قد يرى هؤلاء الأفراد على أنهم يعيشون حياة تقمع بشكل منتظم المرأة التى هى الزوجة والأم كذلك وهذا يعنى أن الرؤية هى عملية اختيار، والرؤية هى غالباً عملية تنظيرية.

لأن الرؤية من وجهة نظر معينة هي جزء حتمى أساسى من كون المرء إنساناً، فقد قال فيبر أننا لا يجب أن نجعل أو نهمل الحقيقة أو الواقع ولكن يجب توضيحها فى حساباتنا للعالم والتعامل معه، فيجب أن نصف ونشرح الواقع من خلال القاء الضوء وتأكيد وجهات نظرنا الى الحد الذى يجعلنا نبالغ فى حقيقة العالم الخارجى من خلال تكوين نماذج مثالية للحقيقة الواقعية وذلك هو ما أسماها أو أطلق عليها تلك التسمية (فيبر).

ولفهم ملمح معين من الحياة الاجتماعية فإنه من الضرورى التقليل مما نفكر فيه، ونعتقده على أنه جوهرها، ومن ثم القاء الضوء على تلك الملامح ولذلك فإن الآخرين يعرفون بالضبط اين نحن نقف، وماذا تكون وجهة نظرنا، إن وصفنا العالم هى نموذج مثالى وليس من وجهة نظر قيمية، ولكن من منظور أكبرمن الاحساس بالحياة فنحن نرسم صورتنا للعالم والملامح التى نعتبرها مهمة، من خلال الضربات أو الصدمات الفجائية.

وعلى عكس ماركس ودوركايم فإن فيبر لم يدعى أنه يعرف الحقيقة حول الواقع أو الحقيقة المطلقة الا أنه يملك رؤيته الخاصة حولها، ومن ثم فانه فى واحد من أكثر أعماله لمعانا ووضوحا " والذى يدور حول أسباب نشأة المجتمع الرأسمالى الحديث. وتوضيح ملامحه الاساسية وهنا أوضح فيبر أن ماركس مخطىء وهو فقط الذى لازم الصواب فى نظريته، ورأى فيبر رؤية ماركس ونظريته على أنها نموذج مثالى، وببساطة أراد أن يضيف رؤية خاصة لماركس ونظريته كبديل، وبالاحرى قد طالب برفضها.

وبالرغم من ذلك فإنه من السهل رؤية لماذا تم تفسير كتابات فيبرالمثالية الخاصة بالمجتمع الحديث على أنها هدم للماركسية منذ أن قام فيبر بقلب التتابع

السببى الذى قام ماركس بتوظيفها، وبدلا من رؤية العوامل الاقتصادية المسببة للتغيرات فى الأفكاروالمعتقدات، فقد فسرفيبرسبب قيام وتطور المجتمع الرأسمالى الحديث من خلال طريقة دائرية أخرى وهى أن الأفكار الخاصة والمعتقدات تنشأ أولاً ومن ثم تسمح بنشأة الانتاج الرأسمالى بعد ذلك، هذا بالإضافة إلى أن الملمح المحدد للنظام الرأسمالى الخاص بفيبر ليس كما هو الحال فى نموذج ماركس لنمط الانتاج الاأنه اتجاه أو روح أو طريقة للنظر إلى الأشياء.

الدين والرأسمالية والعقلانية:

Religion and Capitalism and Rationalisation

كان معظم عمل فيبرالتاريخى المقارن مركز ومنصب على تأثير الدين والمعتقدات الدينية على الفعل الاجتماعى وبهذه التقاليد أو الطريقة فقد استنتج العوامل المشجعة لنشأة الرأسمالية فى تلك الدول التى كانت عبارة عن جذور وتربة لها وهذا النمط أو النموذج للمجتمع الحديث كما أوضح فيبر أن الفعل العقلانى المؤسسى فوق كل شىء آخر. بينما فى أوقات أخرى وأماكن أخرى انتشرت صور أخرى للفعل والتى أصبحت فى المجتمعات الرأسمالية الصناعية الحديثة طريق للفاعليين عبارة عن نظام تقليدى وتبع لممثلى الحركات للقيام بالأفعال وفقا لأسباب الكفاءة أو الكفاية والحسابية أكثر من الاسباب والعوامل العاطفية والتقليدية أو بسبب الاستناجات العقلية الخاصة الوحيدة للأهداف الواضحة، وبالنسبة لفيبر فإن الحداثة تفهم غير نحو أفضل على أنها انتصار لهذه الطريقة من التفكير. وهذه الطريقة للنظر إلى العالم والأمور التى تحدث به. وكذلك لتلك الطريقة من التصرف والقيام بالأفعال المختلفة (من خلال أخر شىء أراده انسان أو يريده فى العالم ليقوم به وليلتحق بالشهرة. ان الرأسمالية الحديثة هى نتيجة عملية العقلانية المتجزرة فى التأثير التاريخى للعلاقات العقلية الذهنية المحددة أو الخاصة. إن نشأة تلك الطريقة فى العيش والتصرف وفقا لفيبرهى المشكلة الرئيسية فى التاريخ العالمى للحضارة. فتفسيره لهذا التاريخ يسترشد به من خلال التساؤل حول ما السبب فى ان المجتمعات غير الغربية لا هى علمية ولا فنية وليست سياسية وكذلك ليست متطورة اقتصادياً. يجب أن نتبع الطريق العقلانى الذى تميز به الغرب وهى رؤية فيبر، فإنه وفقا لبيلتون وأخرون ١٩٨٧ فإن دور القادة الدينيين فى تشجيع بالأشكال والأنماط المختلفة للأفكار والاتجاهات

داخل المجتمعات المختنقة هى مسألة حيوية وضرورية وعلى سبيل المثال فإن الراهب البوذى ينسحب من كل النشاطات الدنيوية بهدف تحقيق الارتقاء الروحى بينما العابد الكنفوشى يندمج ويتصل وينشغل بالمعرفة غير العلمية والتقليدية، إلا أنه فقط فى الدول الغربية فإن أصل الثقافة ينبع التوجيه الثقافى الذى يخدم العقلانية، وفى محاولة فيبر الشهرة عن دورالبروتستانتية الخالصة، الذين ينتمون إلى طائفة الكالفنيين، ففي تلك العملية، وفى الأخلاق البروستانتية وروح الرأسمالية ١٩٧٧ أوضح فيبرأن الألفة والالتزام التى شاهدها واستنتجها بين نوع الحياة الذى تم تشجيع الكالفنيين على أن يعيشوه من خلال عقيدتهم الدينية وكذلك نوع السلوك والاتجاهات اللازمة للرأسمالية للقيام بعملها على شكل فعلي، وقد ركزعلى كيفية تشجيع هؤلاء ليركزوا على الأعمال الدنيوية على أنها النشاط ذو الأفضلية العظمى، وكذلك فى نفس الوقت فقد كانوا مجهدين ومستنزفين ليعيشوا حياة زاهدة متقشفة مقتصدة

وأوضح فيبر أن هذا التأكيد على أهمية التصنيع والعمل الجاد المقترن بالطلب للحياة الزاهدة المتقشفة هو عملية فريدة نادرة للديانات المتزمتة و المتعصبة وأن مثل هذا الازدواج للالتزامات الدينية يعطى الفرصة للرأسمالية لتضع جذورها وتتطور.

وقد اعتقد وآمن الكالفانيون بأنهم لا يستطيعوا اثبات ذلك لأنفسهم أو حتى للآخرين حيث أنهم دعوا من قبل الله أو الرب بالخلاص. ولذا يرى فيبر ان الشكل الحديث للرأسمالية. قد خضع للتأثير الذى أحدثه ظهور الاخلاق البروتستانتية وبخاصة الكالفينية،حيث استخلص فيبر ان المناطق الالمانية المعاصرة التى تسود فيها البروتستانتية أكثر ثراءً من تلك التى تنتشر فيها الكاثوليكية، وبالتالى فهو يرى (فيبر) أن الرأسمالية لم تظهر كنتيجة لضرورة اقتصادية داخلية، كما رأى ماركس بل ظهرت عن طريق الدفع الذى مارسته قوة خارجية هى الاخلاق الدينية المتمثلة فى البروتستانت وبخاصة المذهب الكالفينى **Calvinisim** التى تشدد على أن النجاح فى الامور الدنيوية والتى ترتبط بالعمل إرتباطاً وثيقاً يعد دليلاً قاطعاً على أن الشخص الناجح قد أصبح من بين الذين أختارهم الله و ارشدهم الى طريق الخلاص **Salvation** واياً كان العمل الذى يقوم به ذلك الشخص فأنه تحتم أن يلتزم نظاماً محدداً وأن يؤديه بطريقة منظمة، فالكالفينية ابرزت قيمة المبادرة الفردية والتقشف والعقلانية فى السلوك أى ابرزت الافعال الرشيدة المتجه الى الانتاج والعمل والتأثير

الواقعى فى العالم وادانة تكدس الاموال والبذخ المسرف، وهذه الافعال تتصف بالعقلانية والتنظيم فى مختلف مجالات الحياة من المشروع الاقتصادى الى العلم، وهذه العقلانية تتجسد فى مؤسسات الرأسمالية التى تؤكد على الانتظام والتسلسل الرئاسى فى التنظيم (البيروقراطية) وبإختصار يرى فيبر ان هناك إتفاقاً كبيراً بين غايات كل من السلوك الدينى والعلمانى بحيث يمكن القول أن نشأة التوجيه الأخلاقى الكالفانى كان شرطاً ضرورياً. إن لم يكن كافياً لظهور الرأسمالية الحديثة، بمعنى أن غايات الفعل فى الاخلاق الكالفينية توجه المؤمنين الى أتباع سلوك يتفق مع الروح الرأسمالية الحديثة، وهكذا فأن فيبر من خلال دراسته الشهيرة حول الاخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية حاول أن يقدم نموذجاً مغايراً للفكر الماركسى فى أساسه وجوهره، حيث قدم بعض الشواهد والمعطيات التى تفيد على دور المعتقدات الثقافية فى عملية التغير الاجتماعى، وأن الرأسمالية لم تنبع من القوى الاقتصادية وأنما من المتغيرات الثقافية والروحية السائدة فى المجتمع، فالرأسمالية بالنسبة لفيبر هى طفلاً صغيراً له طريقة أو أسلوب معين فى التفكير والفعل وليس مجرد نمط انتاجى ينبع من القوى الاقتصادية وأن هذا الطفل وفقاً لفيبر يختنق فى الميلاد بسبب أن نموه تهدده قوى وحشية.

وهناك تعليقاً مختلفاً على وجهة نظر فيبر فى الحداثة قدمه زملائه فى القرن التاسع عشر حول الدور الذى تلعبه المتغيرات الثقافى أو الفكرية فى ظروف تاريخية معينة هى بالاحرى ناجمة عن تأثرفيبر بكل من ماركس ودوركايم بقوانين التطور المجتمعى العالمية.

ولا شك أن رؤية دوركايم وماركس عن النظرية الاجتماعية تتحدد بشكل واضح فى أطار طريق التقدم نحو المستقبل والحرية الانسانية، وقد حاول فكر كل منهما أن يكتشف علاجاً للامراض الاجتماعية وتقديم وصفة اجتماعية للسعادة والصحة الفردية.

وبالنسبة لدوركايم اعتبر أن عملية التنشئة الاجتماعية هى الضمان لمنع تهتك النسيج الاجتماعى أو الانومى **Anomie** أما بالنسبة لماركس فان المادية التاريخية هى العلاج السليم لاستئصال مرض الاغتراب **Alienation** الحديث.

ولكن فيبر ليس طبيباً للحياة الاجتماعية فهو لم يعالج العقلانية التى تنتقد بشده فى المجتمع الحديث، لكن فيبر أكد على ان الكفائة الفنية لها صلة وثيقة بالرأسمالية الصناعية الحديثة، فى حين وصلت الادارة البيروقراطية الى ذروتها

فى هذا النظام، كما أنها تمثل النظيرِ الانساني لها، كما تحدث فيبر عن أن ظهور هذا الشكل فى المجتمع أنه يمثل أملاً مخادعاً لبناء نوع من اليوتوبيا التى وعد بها كثير من المفكين فى بناء أو مولد الحداثة. وقد أوضح فيبر لنا بدلاًعن أنعزال أنفسنا عن القفص الحديدى للبيروطيقة والليلة الباردة فى الظلام الدامس التى انشأت الحداثة، ولذا فإن فيبر يرى أن انتصار الرأسمالية كشكل للحياة هو مؤشر لخط النهاية من أجلِ التقدم، فالقطار يحمل الأمال المرتبطة برفاهية الروح الانسانية قد تحولت الى حامى للعقلانية النهائية.

الخاتمة Conclusion

إن كثيراً من المنظرين فى القرنِ العشرين ينتمو فى جذورهم الى اعمال دوركايم، وماركس، وفيبر، كما قيل مبكراً حتى عام ١٩٦٠م وخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية من خلال التحليل الوظيفى فى أعمال بارسونزواتباعه، وأن تأثير دوركايم بثقل كان على نظائره فى ألمانيا، ومع ذلك فمنذ الستينيات وصاعداً هذا التأثير ذهب الى بريطانيا والتابعين المعاصرين لماركس وفيبر (الماركسية الحديثة، والفيبرية الحديثة) أصبحت أكثر تميزاً. لكن اذا كان علم الاجتماع الماركسى الحديث فى بريطانيا أصبح مهتماً من خلال اعمال جون ويسترجارد **John Westergaard** ورالف ميلبارد **Milibard** وبيتر ورسلى **Worsley** ومساهمات الكتابات الاكثر أهمية قبل ستيوارت هل **Stuart hall** والى حد ما يمكن القول أن تحليلات الفيبرية الحديثة كان له التأثير الاكبر على شخصية علم الاجتماع البريطانى فى نهاية القرن العشرين، فأثناء الستينيات والسبعينيات فالفيبريون الجدد مثل ديفيد لوك وود **Lock Wood** وجون جولدثروب **Goldthrope** وجون ريكس **Rex** ورالف دهرندوف **Dahrendorf**، كما أوضح فيبر أن التحليل الاجتماعى يجب أن يراعى علاقات التباين **inequality** والقوة والسلطة **Power** والصراع **Conflict** وأنه أفترض أن أهمية هذه الظواهر تقلل من أهمية العوامل الاقتصادية، علاوة على ذلك أن التراث الفيبرى مثل هؤلاء الكتاب أمر على أن علم الاجتماع يعترف ايضاً بالاهمية المحورية للانساق الفكرية كوسيلة للاستمرار والتغير فى الحياة الاجتماعية. فكما نحن نرى أن هناك اهتمامات مزدوجة للفيبرية سواء فيما يتعلق بالعلاقات البنائية ودور الافكار ظلت مهمة فى العمل المعاصر للفيبرية المحدثة مثل جوردون مارشال

Gordon Marshall وهوارد نيباى **Newby** وميك مان **Mann** التى وصلت أهميتها العظمى فى النظرية البنائية **Structuration Theory** التى يقودها المنظر البريطاني الشهسر **Anthony Giddens** (أنظر الفصل العاشر) على الرغم أن جيدنز قد طور عمله فى اطار المنظور الفيبرى فى السنوات الحديثة جداً كما أن الفلسفة الفرنسية وعلم الاجتماع الفرنسى بدأ تأثيره على علم الاجتماع البريطانى، (كما سوف نرى فى الفصل السابع والعاشر) ومع هذا يمكن أن نقول أنه فيما بعد عشرين عاماً فإن الاتجاه الفيبرى واتباعه أصبح لهم تأثيركبيرعلى علم الاجتماع التطبيقى فى بريطانيا، وفى مجال النظرية النسوية فان افكار ماركس كانت لها تأثيراً كبيراً كما سوف نرى فى الفصل التالى.

الفصل الخامس

النظريات النسوية

مدخل

في معظم الوقت تحاور المنظرون الاجتماعيون حول طبيعة المجتمع الحديث، وتغافلوا المصدر الأساسي للواقع السيء لنصف سكان العالم، فالاعتقاد السائد هو أن العالم كما يخبره الرجال هو نفس ما تخبره النساء، وأنه علي الرغم من المطالب السياسية في الستينيات والتي أعيد تحديدها بقوة في الحركة النسائية التي نشأة بدورها في القرن العشرين لضمان حق التصويت في الأنتخابات، فأن النظرية النسوية منذ تأسيسها أصبحت جزءاً مهماً من علم الاجتماع، وبدأت النظريات الاجتماعية تهتم ببناء تفسير التجارب الخاصة بالنساء، وهذه النقطة الهامة هي البداية الحديثة والطريق المجتمعي لتحقيق الإنجاز والخلاص بالنسبة للنساء.

وبالتالي فقد كانت محاولات النظريات الكلاسيكية في القرن التاسع عشر من أجل تحديد إمكانية التقدم في اتجاة التنظير الأنساني، ومن هنا أصبحت النظريات النسوية منشغله بالمشروع السياسي لتوضيح كيفية فهم الظروف الاجتماعية التي تعيش المرأه حياتها فيها، واتاحة الفرصة لاعادة بناء عالمهم الخاص، والتقدم المحتمل في طريق الحرية أو التحرر.

الحرية النسوية Liberal Feminism

فالحرية النسوية يمكن أن تري من خلال منظور التحيز الجنسي **Prejudice gender** بوصفها مسألة تتعلق بالتجاهل الفردي التي يمكن القضاء عليها من خلال تعزيز القوانين المدعمة لعدم التميز في الشئون الفردية، وعن طريق القضاء علي الاتجاهات غير الجنسية من خلال إعادة التعليم**Re-education** .

ولا شك أن العمل الاجتماعي الهام للكتاب مثل آن أو كلي **Ann Oackley** والتي أوضحت تجربة التمييز وسوء الحظ للمرأة من خلال التفسير الامبريقي المنظم، الذي يدعم هذا الاتجاه أو المشروع، وبالتالي فإن مصطلح النسوية **Feminism** يمكن أن يوصف ككل الافكار والحريات التي تتخذ من تحرير المرأة أو تحسين أوضاعها بعمق هدفها الأصلي، والنظريات النسوية الأخرى من رؤية اكثر بنائية لاضطهاد المرأة مركزة رؤيتها ليس بسبب التجاهل الفردي فقط ولكن ايضاً من خلال أساليب مؤسساتية فى المعيشة والتفكير.[1]

---

1 أصبحت الحرية النسوية Liberty موضوعاً ساخناً فى الجدل السياسى الغربى منذ الستينيات وكان أهم نقاش فى الحرية هو الذى يعنى بكيفية المزاوجة بين الحرية

النسـوية الماركسـية Marxist – Feminism[2]

لا شك أن الإستجابة النظرية الحقيقية الأولي للحاجة إلي علم اجتماع المرأة.Sociology of Women كانت تؤكد أن الماركسية قدمت الوسيلة النظرية الأفضل، لاسباب إضطهادها الأساسي، وطبقاً للنسوية الماركسية فإن تبعية المرأة Subordination Women قائم علي خدمة إحتياجات الرأسمالية، حيث أن العلاقات الإقتصادية والسمات الفكرية لنمط الإنتاج الرأسمالي التي يجب أن تبحث في أبنية عدم التمييز(السيئة) لعدم المساواه، وتعوق حياة المرأة المتعارضة مع الرجال، وحل مشكلة اضطهاد المرأة، فإن حل هذه القضايا يقع علي عاتق تحطيم الرأسمالية.

وتنقسم الإتجاهات النسوية الماركسية إلى نمطيين رئيسيين (إحداهما أكثر أقتصادياً من الأخر) إذ أن إتجاه النسوية الماركسية يركز على الوضع الإقتصادى للمرأه

والمساواة وبرغم أن النسوية كانت تسمى حركة تحرير النساء إلا أنه لم تكن هنـــاك أبحاث نسوية مكثفة حول الحرية، ولذلك شددت النسوية الانسانية على أن النساء مـــا يزلن مضطهدات أو أنهن يحصلن على درجة من الحرية أصغر بكثيـــر مـــن التـــى يحصل عليها الرجال وهو ما إتضح من تساؤل قديم أثارته مارى أستل فى كتـــاب " بعض الانتقادات حول الزواج" إذا كان الرجال كلهم يولدون أحراراً، كيف تـــأتى أن تولد النساء مستعبدات.

وكتاب ميشيل بارت "إضطهاد النساء اليوم" ١٩٨٠، جادلت بأن الحرية الرسمية ليســت كافية، حيث لم تؤد لتحقيق تحرير النساء وترى أنه لم يزل هناك قدر كبير من التمييـــز العنصرى المباشر وغير المباشر ضد النساء وبالتالى يجب النظر لمفهوم الحريـــة مـــن ناحيتين الحرية الرسمية والحرية المادية. إنظر: ريان فوت، النسوية والمواطنة، ترجمة أيمن بكر وسمر الشيشكلي، مراجعة فريدة النقاش، مكتبـــة الاســـرة، سلســـلة العلـــوم الاجتماعية، القاهرة،٢٠٠٥، ص ٩٣- ٩٧.

2 تمثل النسوية الماركسية نظرية للتحرر علي أفكار كثيرة بخصوص قمع المـــرأة لكنهـــا تعتبر أن التقسيم الطبقي – وليس العلاقات بين الجنسين – هي أصل القمع الذي تتعرض له المرأة، فنظراً لأن قدراً كبيراً من الجهد والوقت المطلوب لمواصلة إنتاج القوة العاملة يأتي من الحياة الاسرية الخاصة، فإن النسوية الماركسية تري أن هذا هو مفتـــاح قمـــع المرأة، وعلي الرغم من توفير التعليم والرعاية الصحية في البلدان الرأسمالية المتقدمـــة فإن النظام القائم فيها يعتمد إعتماداً كبيراً علي العمل الذي تقوم به المـــرأة دون أجـــر، لإنتاج قوة عاملة صحيحة الجسم والعقل، ومن هنا ينشأ وضع المرأة المتدني عموماً من الناحية الاقتصادية والاجتماعية.

– سارة جامبل، النسوية وما بعد النسوية، مرجع سابق، ص ٤٠٣

فى المجتمعات الرأسمالية، وهذا ما أتضح فى أعمال مثل فرونكا بيتش **Veronica Beechy** وايرن برجل **Iren Bragel** وولى س كومب **Wally Seecombe** وآخرون، وتأكيداتهم علي أن أفضل تفسير لتبعية أو هامشية المرأة يتم من خلال فهم المساويء الإقتصادية التي تجمعت عن متطلبات النظام الرأسمالي الغربي، ونحاول أن نلقي فيما يلي أهم المساهمات التي ركزعليها هذا المنظور في الحوار:-

١- فالمرأة تحت النظام الرأسمالي تعيش في أسر كزوجات وأمهات تعيش في هذه الأسر، ويتحدد وضع أو مكانة المرأة في الاسرة في إطار العمل المنزلي غير المأجور، وهذا العمل يعتبر هاماً وحيوياً للنظام الرأسمالي شأنه شأن انتاج السلع والبضائع في الصناعة، كما أنهن يقدمن خدمات ضرورية للعمال الذكور بوصفهن زوجاتهن، كما إنهن يقمن بإعادة انتاج جيل جديد من العمال من خلال رعاية اطفالهن، وعلي هذا فالمرأة كزوجة وأم تؤدي خدمات جليلة وحيوية للنظام الرأسمالي الحر، ولذلك فالنظام الرأسمالي يحقق ارباحاً طائلة من الاعمال المنزلية غير المأجورة للمرأة، اكثر من الاعمال الذكورية المأجورة.

٢- نتيجة لشيوع نظام الاسرة النووية في ظل النظام الرأسمالي بسبب دخول المرأة إلي سوق العمل، لأنهن كن يعتمدن علي ازواجهن اقتصادياً، فإنهن يمنحن اجوراً منخفضة أو متدنية، ومكانات أقل، وعملاً لبعض الوقت **Part Time work** -، كما يوصف عملهن بأنه ثانوياً ومكملاً لأزواجهن وبالتالي فالمكافات يمكن أن تكون تكميلية ايضاً، وبالتالي فأجور المرأة المتزوجة تكون منخفضة، ولذا فالمرأة المتزوجة تمثل عمالة شبه بروليتاريا، حيث تعاني من مساويء اقتصادية اكثر من الطبقة العاملة ذاتها.

٣- وبسبب تبعية المرأة اقتصادياً علي ازواجهن، فإن المرأة كزوجة تمثل جيشاً من العمل الإحتياطي **Reserve army of labour** المفيد، والتي يمكن الاستفادة منها تكون مطلوبة في سوق العمل، وبالتالي فالعمل طول الوقت (الدائم) ليس ضرورياً لهن، ولذا فالمرأة هي عمالة مهمشة، ومكافأتهن ليست اكثر ضئالة فقط من العمال الذكور ولكن يتوقف دخولهن أو خروجهن في سوق العمل كلما دعت الحاجة إليهن.

والمثال الكلاسيكي لهذا كان واضحاً أثناء الحرب العالمية الثانية، فعندما غاب العمال الذكور من أجل المشاركة في الحرب العالمية- وكان هناك

تحيزاً في العهود السابقة ضد عمل المرأة، وشك في قدرات المرأة في القيام بالأعمال التي تعهد لهن – وفجأة تم الحاجة إلي عمل المرأة في الصناعات الثقيلة، ولكن في أوقات السلم فقد تم استبعادهن من هذا العمل، وقدمت مبررات لذلك بأنهن غير مناسبات لطبيعة هذا العمل، ولذلك فقد أعلنت هذه الأيديولوجيات والتشريعات بصورة عامة أكثر من مره.

٤- ومن هنا فقد حددت هذه الأنواع من الأيديولوجيات مبررات لأهمية عالم المرأة في النظام الرأسمالي الذي يجب أن يكون أكثر انسانية تجاه المرأة – والذي تمثل في ظهور النسوية الماركسية – أكثر من العوامل الاقتصادية.

وقد مثلت عالمة مثل ميشيل بارات **Michelle Barrett** اتجاهاً متقدماً من خلال استخدام افكار جرامش **Gramsci** الذي أكدا علي دور الايديولوجيات في إعلاء قيمة فضائل الحياة الأسرية والزوجية والأمومة في وجود المرأة في المنزل، وقد أكدت بارات أن تحطيم العلاقات الاقتصادية الرأسمالية أصبح أمراً ضرورياً لتحرير المرأة، وضرورياً ايضاً في تحويل الأفكار الخاصة بالعلاقات الجنسية، والنوع والأبوية **Parenthood**[٣]، حيث أن الرجال والنساء ليسا مجبران في العيش في نمط واحد من الزواج أو نمط واحد من الأسرة.

إن القضية الواضحة الموجودة مع النسوية الماركسية هو أنه إذا كانت الرأسمالية ساهمت في خضوع المرأة، فلماذا هناك خضوع متساوي للمرأة في المجتمعات غير الرأسمالية؟ وعلى الرغم أنه من السهولة أن نري كيف أن أداء الأعمال المنزلية غير المأجورة مفيداً للرأسمالية، فإن النسوية الماركسية لم تفسر لنا لماذا يجب علي المرأة أن تقوم حتماً بهذا العمل؟ ولماذا لم يكن الرجال؟ ولماذا لم يكن منذ القدم؟ وفي الواقع أن النسوية الماركسية تحاول أن تفسر لنا عالمية الإضطهاد النسائي، وذلك من خلال إستخدام مفهوم الأبوية **Patriarchy**، وتعنى الأبوية هيمنة الرجل على المرأه، وفى إعتقاد النظرية النسوية الراديكالية، ليس النسق الإقتصادى فى النظام الرأسمالى هو الذى يضطهد المرأة، وإنما الرجال هم الذين يضطهدون المرأة.

---

3 يشير مصطلح الابوي الي علاقات القوة التي تخضع في إطارها مصالح المرأه لمصالح الرجل، وتتخذ هذه العلاقات صوراً متعددة بدأً من تقسيم العمل علي أساس الجنس والتنظيم الاجتماعي لعملية الانجاب الي المعايير الداخلية للانوثة التي تعيش بها وتستند السلطة الابوية الي المعاني الاجتماعية التي تم إضفائها علي الظروف الجنسية البيولوجية. المترجم
أنظر سارة جامبيل، النسوية وما بعد النسوية، ترجمة أحمد الشامي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٢٢.

النسوية الراديكالية [4] Radical Feminism

لا شك أن الحركة النسوية الراديكالية تعتبر أن الابوية هي المفتاح الحقيقي لفهم البناءات الاجتماعية، ولذا تنعكس طبيعة الحكم الابوي بمالها من اوجه متعددة علي تنوع القضايا و الحملات والانماط في الحركة النسائية وبالتالي تختلف الحركات النسوية الراديكالية بحسب نوعية نظرتها الي الحكم الابوي وبطبيعة مواجهته.

فقد أكد بيان الجوارب الحمراء (١٩٧٩) أن سيادة الذكور علي النساء هي الاقدم وهي الشكل السائد للهيمنة، وكل الاشكال الاخري للاستغلال و الاضطهاد هي نابعة من هيمنة الذكور علي الاناث، فكل الرجال تضطهد النساء، ولذا فالعلاقات الابوية هي ذات طبيعة عالمية وأساسية، ولماذا يسود هذا الشكل؟ من الواضح أن هناك سبباً واحداً لوجود الابوية **Palriarchy** في كل مكان، فهي جزء من الوجود الكلي للحياة الانسانية، ولقد أكد أحد رواد النسوية الراديكالية كات ميليت **Kate Millett** أن الابوية تحدث بسبب تحكم الذكور في الافكار والثقافة والقيم، وهذا ما جعل النظم المؤسساتية تميل نحو الاعتقاد في اضطهاد المرأة في ايديولوجيات العمل، والتعليم، والاسرة ولعل التفسير الذي قدمته ميليت لهذا يتسم بالحشو والتكرار، وفي الواقع أنها قد أتجهت الي تفسير النظام الابوي من خلال ممارسة سلطة الاب المطلقة، والتي يكون هناك صعوبة في إشباعها، وفي الاعمال النسوية الراديكالية الاخري أقترحت ثلاثة أنواع عالمية هي الامومة **Mother**

---

4 لقد أهتم دعاة الحركة النسوية الراديكالية بنظريات الجنس (الطبقة) وأنتقدوا الحركة النسوية الماركسية في قولهم بتبعية حكم الرجل للرأسمالية اذا كانت في اللحظة الاخيرة فقط، وقالوا بأولوية العلاقات السلطوية للرجال والتمس عدد قليل من دعاة الحركة النسوية الراديكالية مكان قهر المرأة في عدم التكافؤ البيولوجي بينما يراه معظمهم في البنية الاجتماعية السابقة علي وجود الرأسمالية وفي الجدل حول العمل المنزلي، وبالمفهوم السياسي بوصفهن طبقة (جنسياً) محكوماً بالعنف الواقع أو التهديد بالعنف، مما أدي الي نمو الحركة النسائية الراديكالية والتي أهتمت أساساً بحرية الممارسة الجنسية بوصفها آلية تتحكم في القوة التناسلية عند النساء، وهذا التحكم يعمل من خلال وسائط أيديولوجية مثل الايديولوجية الرومانسية، ومن خلال العنف كالمعاملة المهينة للزوجة والاغتصاب والدعارة مما شجع ذلك علي نهضة الدراسات الخاصة بالنساء برفع درجة الوعي والعلم لدي النساء.

- أنظر ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٦٠.

hood والاسرة القائمة علي الزواج Marriage – based Families والجنسية الغيرية Heterosexuality (التي ينجذب فيها الفرد الي اعضاء من الجنس الآخر) وفي الاعمال المبكرة الاولي للنسوية الراديكالية، فقد أكدت شولمث فير ستون Shalamch Fire Stone أن النظام الابوي مبني علي حقيقة بيولوجية، وأنه علي الرغم من أن النساء يلدن الاطفال إلا أنه عندما أصبحت التكنولوجيا تتيح فرصة تعليم وتنشئة الاطفال بعيداً عن رعاية المرأة، فأصبحت النساء قادرات علي أن تتحرر- كما يدعي أنصار هذا الاتجاه - وعندئذ سوف تصبح الإختلافات الجنسية غير وثيقة الصلة بالموضوع، والتبرير البيولوجي بأن المرأة تتميز بدور الام في الاسرة سوف يختفي.

كما أكد أنصار آخرون من النسوية الراديكالية أن الظاهرة العالمية لجذور أو أصول النظام الابوي ليست في الطبيعة الامومية والبيولوجية ولكن النظام الاجتماعي للاسرة مبني علي زواج نمط واحد بآخر، وهذا الاتجاه في النسوية الراديكالية طبقاً لتصور بوشر Bauchier (١٩٨٣) هو المصدر الحقيقي للاستغلال. ومن هنا فنحن نري أن السمة العامة للتنظير النسوي الراديكالي، أصبحت قائمة علي دعائم أهمية المساواة بين الجنسين، والفكرة هو الاعتقاد بأن ما هو شخصي هو سياسي، وأن ممارسة سلطة الرجل علي المرأة سائدة ليس فقط في المعالم الايديولوجية والبنائية العامة وإنما فى انساق العمل والتعليم ووسائل الاعلام وهكذا.

ورغم أهمية النظام الابوي علي المستوي الشخصي والعلاقات النهائية بالعالم الخاص بين الرجال والنساء، لذا فقد أوضحت ماري مينارد Mary Maynard (١٩٨٩) أن القوة أو السلطة التي تحدث بين الافراد داخل الاسرة تتم عندما يحاول شخص ما يتحكم أو يهيمن علي شخص آخر.

وفي نطاق ما هو شخصي وخاص فأن النساء تزعن بشكل خاص لسلطة الرجال، ولذا تقول سولفيا ولبي Sylvia Walby (١٩٩٠) من وجهة النظر هذه أن القضية هي من يقوم بأداء الاعمال المنزلية house workومن يقاطع من في الحديث أو الكلام، فإن هذا يري في ضوء هيمنة الذكور.

الطبيعة الجنسية Sexuality(5)

إن التأكيد علي السياسات العامة في نطاق ما هو خاص جعل بعض أنصار النسوية الراديكالية يركزون ليس كثيراً علي التفاعل السائد داخل الاسرة والزواج كما هو مفترض وانما علي ما يسمي بالجنسية الغيرية (التي ينجذب فيها الفرد الي اعضاء من الجنس الآخر) **Heterosexuality** التى أصبحت سائدة فى النظم العالمية.

والسؤال الذى يطرح نفسه في هذا الصدد لماذا يجب أن يرى الجنس العادى **"Normal Sex"** بوصفة جنساً غيرياً؟ **Heterosexual Sex** ولماذا يشتمل الجنس العادى، والجنس المغاير غالباً على ضرورة الإختراق لجسد المرأة من خلال الرجل؟.

ولماذا يعتبر السعى وراء ذروة النشوة الجنسية (التى تأتى من تقلصات المهبل) (الذى يتميز بها الرجال) الأكثر أهمية وتفوقاً فى عملية الاشباع الجنسى من النشوة التى تنبع من البظر (الذى لا يحتاجه الرجل)؟

فى الواقع لقد أصبحت عملية التعرض لنشوة الإشباع الجنسى تمثل أسطورة نفسية بالنسبة للرجال.

ولذا فقد أضافت جونسن **Johonson** في فترة الستينيات أتجاهاً جديداً – كما طالبت الحركة النسائية الراديكالية – بأن الطبيعة الاجتماعية لاشكال الطبيعة الجنسية سواء بصورتها العادية أو غير العادية مع الآخرين هي الصورة العالمية التي أسست النظام الابوي.

---

5 الطبيعة الجنسية، في الواقع حتي بداية السبعينات نادراً ما كان علماء الاجتماع يتناولون في دراستهم الطبيعة الجنسية عند البشر، وعندما أصبحت الطبيعة الجنسية موضع المناقشة في الكتابات السوسيولوجية كان هذا عادة يتم تحت ستار اهتمام اوسع مثل اسرة الانحراف ولم تكن تأخذ كمشكلة في حد ذاتها وإنما كنزعة غالباً ما تكون بيولوجية أو غريزية، وعلي أي حال فمنذ السبعينيات والي حد كبير تتنامي الاهتمام بمسألة الطبيعة الجنسية وتقسيم أنواع الجنس وتوسع نطاق البحث بصورة جوهرية في هذا المجال، وتميزاً للطبيعة الجنسية عن نوع الجنس كانت المداخل النظرية الرئيسية تأتي من أنصار التفاعلية الرمزية وخاصة وليام سيمون الذي أعاد صياغة التصور للطبيعة الجنسية بإعتبارها أساساً ذا صفة رمزية وطرح أسلوب النص المجازي لتحليلها وعلي هذا فقد أهتمت هذه المداخل النظرية بضرورة دراسة الطبيعة الجنسية البشرية بإعتبارها مدلولاً له بناؤه الاجتماعي و الذي يمكن أن يتغير بصورة كبيرة عبر الثقافات وخلال التاريخ.
أنظر ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٦٤٠- ٦٤١

وقد أطلقت ادرين ريتش **Adrienne Rich** مفهوم الجنسية الغيرية الاجبارية من وجهة النظر هذه، فالتفاعلية الرمزية تري أن الجنسية الغيرية تعتبر مثيرة للمشاعر، وأن الاختراق الجنسي للمرأة يمثل إنتهاكاً لجسدها.

ومن هنا فإن الاتصال الجنسي **Sexual Intercourse** يمثل علامة رمزية لممارسة الرجل الهيمنة علي المرأة، وبالتالي يصبح جسدها محكوماً وتابعاً في بقية حياتها.

وقد وصف هذا الوضع دافيد بوشر **Bouchier** عام ١٩٨٣ م "بأن اسطورة عملية الاتصال الجنسي كانت غير شائعة ولكنها ضرورية لحمل المرأة، ولكن الثورة الجنسية هي التي مكنت النساء من الهروب من الهيمنة الجنسية للرجل، ولو أن النساء لم يحتجن الي الرجال وأستطعن أن يخترن بحرية الاتصال الجنسي المغاير مع الميل لكلا الجنسين **Bisexual**[6] أو ما يسمي بالجنسية المثلية **Lesbian** في أسلوب حياتهن فإن ذلك يساعدهن من التحرر من السلوك الجنسي مع الآخر الذي سوف يقضي علي التمسك بالزواج الاسري الذي يمثل مصدر السلطة الابوية".

وواقعياً فإن هذا التحول في علاقة المرأة الجنسية يمثل الطريق الي تحطيم النظام الابوي الذي ساعد علي وجود حركات نسوية راديكالية تؤكد علي الجنسية المثلية بحيث يسمح للمرأة بحرية التعبير عاطفياً عن أنفسهن. وبالتالي فالحل المعروف هو في تحقيق الانفصال أو الاستقلال. ولا شك أن التأكيد علي الجنسية الغيرية كأساس للنظام الابوي أدي الي وجود النظريات النسوية الراديكالية من أجل اكتشاف العلاقة بين السيطرة الجنسية والعنف **Violence** ضد المرأة، ومن الاعمال المشهورة هنا عمل سوزان براون ميلر**Susan Brown Miller** وادرني ريتش**Adrienne Rich** و اندرو دوركين**Andreo Dworkin** في مجتمعات مثل بريطانيا بأن العنصر المميز للتركيب البنائي للجنسية الغيرية هي الصورة العامة للمرأة باعتبارها مطيعة وتابعة ودمية في يد الرجال تستخدم من أجل إشباعهم الجنسي **Sexual gratification** وليس من الصعب ملاحظة هذه الصورة الشائعة في الاعلانات ووسائل الاعلام المختلفة، وعلي أرفف مجلات بيع الصحف، وغلاف المجلات.

---

6 يشير مفهوم الميل لكلا الجنسين الي حالة يمكن أن يشعر فيها الانسان باللذة من إقامة العلاقات مع أفراد نفس الجنس أو مع أفراد الجنس الآخر. "المترجم"

وعلي هذا تؤكد الحركة النسوية الراديكالية في هذا السياق الي أن المرأة قد قدمت بهذه الطريقة الجنسية المتاحة لكي يستمتع بها الرجل بصورة مريحة.

ولم يكن من المدهش أن نشاهد تزايد معدلات التحرش الجنسي والاغتصاب بشكل كبير، وهذه مجرد مظاهر تدل علي ممارسة العنف أثناء العلاقة الجنسية العادية بين الرجال والنساء.

ولذا فعديد من أنصار النسوية الراديكالية يتوقعون أن عالم المرأة يعاني من عنف حقيقي أو محتمل من جانب الرجل فالاذعان للعنف ناجم عن العنف الرمزي للجنسية الغيرية من خلال تشجيع الاعلانات و الفيديو كليب والفن الاباحي له، كما أن بنية بعض الرجال تساعد علي التهديد بالاغتصاب المادي في بعض أوجه حياتهن، مما جعل النسوية الراديكالية تأكد أن هذه الظاهرة هي من أكثر المشكلات التي تواجه المرأة ووفقاً لاليزابث استانكو **Elizabeth Stanko** (١٩٨٥) "فالمرأة أصبحت تعي أنه من الصعب التنبؤ بالخوف الجنسي والبدني من الرجال، فكما نحن نخطط للحياة حولنا بإختيار الطرق السليمة للمشي عندما نعود الي البيت، وطريقة طهي الطعام أو تجنب العمل الحزبي مثلا فكذلك نصمم خططاً واستراتيجيات لتجنب الازعان الجنسي والبدني للذكور، وكذلك العنف.

نظريات الانساق المزدوجة أو الثنائية

Dual – Systems Theories

إن النظريات الخاصة بالانساق الثنائية تتضمن أنصهار واندماج افكار الحركة النسوية الراديكالية مع الحركة النسوية الماركسية في التعرف علي تأثير كل من الرأسمالية والنظام الابوي كوسائل لاضطهاد المرأة، وكانت معظم المساهمات تتركز حول أصول النظام الابوي في الاسرة والزواج أكثر من الطبيعة الجنسية والعنف.

وإن كريستين دلفي **Christine Delphy** التي أطلقت مسمي النظرية النسوية المادية **materialist feminism** إذ إستخدمت المفاهيم والمناهج الماركسية ولكنها تحاشت مباشرة الاتجاه الماركسي، وطبقاً لدلفي هناك طبقتان مؤسستان علي نمط الانتاج في المجتمع الرأسمالي أحداهما صناعية والآخري عائلية أو اسرية، وحيث أن نمط الانتاج الصناعي يتضمن في محتواه الاستغلال من جانب الطبقة البرجوازية علي طبقة البروليتاريا، في حين أن من خصائص النمط العائلي استغلال النظام الابوي للمرأة من خلال الرجل.

ولا شك أن النظرة العامة للاسرة كوحدة اجتماعية مثل عضوية اعضاء الطبقة تتحدد وفقاً للمكانة الاقتصادية للزوج، وهذا الرأي يدعم بأن الاسرة أصبحت ميداناً للصراع والتنافس بين طبقتين متعايشتين، أي أن الاستغلال الطبقي يحدث نوعاً من التوازن في النمط الصناعي، علي أساس أن عمل الرجال مستغلين في النمط الصناعي فهم أصبحوا أيضا مستغلين في النمط الاسري، والمرأة غير المتزوجة هي مستغلة في النمط الصناعي، ولكن غالبية الاستغلال الذي تتعرض له المرأة في المنزل بسبب أن غالبيتهن أصبحن متزوجات وأصبحن عمالاً في المنزل، وقد ركزت دلفي جهدها الرئيسي في تفسير إستغلال النظام الابوي للمرأة بينما كانت هي أقل إهتماماً بتأثير الرأسمالية.

أما أنصار نظرية الانساق المزدوجة حاولوا أن يوازنوا الاهتمامات بشكل اكثر تساوياً، حيث تري زيلا ايزنشتين **Zillah Eisenstein** أن الرأسمالية والنظام الابوي مرتبطان بشكل نهائي في نسق واحد علي المستوي الواقعي و التي أطلقت عليهما تعبير النظام الابوي الرأسمالي **Capitalist Patriarchy** وأن علاقتهم المتبادلة عمقت أن التغيرات في أحد أجزاء هذا النسق تسبب تغيرات في الانساق الاخري، ولذلك فعلي سبيل المثال فإن الزيادة في عمل المرأة في سوق العمل بسبب الحاجة الماسة لرأس المال سببت ضغطاً للتغير السياسي وقد سبب ذلك تأثيراً علي دور المرأة في الاعمال المنزلية، وفي عمل هيدي هارتمان **Heidi Hartman** "التعاسة الزوجية في النظام الرأسمالي والنسوية" **the unhappy Marriage of capitalism and Feminism** اكدت علي ضرورة الحاجة الي رؤية النساء كمضطهدات سواء من جانب الرجال أو النظام الرأسمالي، علي الرغم من رؤيتهم منفصلين إلا أنهما مرتبطان بانساق الاضطهاد. وهكذا فالمرأة تستغل بواسطة الرجل في كلا من سوق العمل – حيث يحصل الرجال علي الوظائف الافضل عائداً – وفي المنزل – فالمرأة تعمل اكثر في العمل المنزلي اكثر من الرجل حتي ولو حصلن علي اجورهن ايضاً –والنظام الابوي كان موجوداً قبل ظهور النظام الرأسمالي من خلال الزواج والعلاقات الاسرية. ومع تطور العلاقات الرأسمالية في الانتاج، فإن الرجال اكثر قدرة علي التعامل مع طبيعة النظام الرأسمالي لكي يضمنوا التميز علي المرأة في مجال العمل المأجور الجديد الذين تمتعوا به سابقاً في كل نظام عائلي.

ولذلك فحركة العمال في بريطانيا شجعت بشكل أساسي مصلحة الرجال وليس النساء، حيث أن كلاهما يستفيدان من استغلال النساء سواء في المنزل أو في العمل.

والنظام الرأسمالي يستفيد من تبعية المرأة اقتصادياً للرجل لأن هذا يضمن للنظام الرأسمالي الشعور بعدم الامان وقبول الوظائف الاقل دخلاً، كما يستفيد الرجال من الحصول علي الوظائف الافضل والخدمات المنزلية التي تقدمها المرأة لهم.

وتري جوليت ميشيل **Juliet Mitchell** بأن النظام الرأسمالي والنظام الابوي بوصفهما كيانان منفصلان ولكنهما مرتبطان بمصدر الاضطهاد للمرأة.

ولكنها تعتقد بأن جذور النظام الابوي ترجع الي عدم الوعي اكثر من العلاقات الاسرية.

وإن إتجاه جوليت ميشيل هو بالاحري جدلياً في الدوائر النسوية لأنها تري عالمية النظام الابوي وليس مجرد أنه ناجم عن الكيان الاسري أو العلاقات الجنسية في الحياة النسائية، ولكن بوصفة جزء من عمليات التكوين النفسي للمرأة، وقد أستمدت ذلك من أفكار فرويد التي أكدت أن نمو إحساس المرأة بالذات هو الذي ساعد علي هيمنة الرجال عليهن وهذه العملية تحدث علي مستوي اللاشعور اكثر من المناورات الايديولوجية الصريحة، ولعل تغيير هذا الامر يتطلب القيام بعمليات التحليل النفسي اكثر من العمل السياسي.

النزعة من الماهيوية أو الجوهرية

Anti–Essentiatism

لعل من أحد الاهداف الاكثر إنتشاراً في كل هذه الاتجاهات سواء النسوية الماركسية أو النسوية الراديكالية أنها مؤسسة أو مبنية علي إفتراض أن كل النساء خبرت العالم أو الكون بنفس الطريقة، وأن كل النساء تصتفاً معاً، والنظر في كليتهن كما لو ان هناك جوهر واحد لكل حياة النساء.[٧] فالنسوية

7 تشير النزعة الجوهرية الي الاعتقاد بوجود فروق طبيعية أو جوهرية بين الرجل والمرأة، ويرفض مبدأ الفروق الجوهرية الرأي القائل بأن الاختلافات بين الجنسين ذات أصول اجتماعية ألصقت بالرجل والمرأة، ويأكد علي أن الاختلافات أمر طبيعي وثابت، وليس هناك موقف نسوي واحد من مبدأ الاختلاف، فالبعض يري أن النوع نشأ بتأثير الثقافة و البعض الاخر رأي وجود هوية فريدة للمرأة، كما أن هناك فريقاً ثالث يري بوجود شكل نسوي متفرد للخطاب النسوي.

السوداء أنطلقت من الالتزام بوصفها جنساً أعمي وموجهة ذكورياً في إطار التنظير السوسيولوجي، وكانت هذه نقطة الانطلاق لما بعد النسوية البنائية.

والنسوية السوداء **Black Feminist** أوضحت أنه بينما أن الجنس هو المصدر الرئيسي للاضطهاد من خلال البيض إلا أن المرأة في الطبقة الوسطي **Middle Class** والمرأة السوداء مقهورة ومضطهدة ايضا من بني جنسها وطبقتها ايضاً، وإذا كانت النظرية النسوية تري أن السبب في ذلك يرجع للفصل المعيشي بين النساء السود والنساء البيض، لكن ما هو مصدر الاضطهاد للمرأة البيضاء؟ ربما يرجع الي مصدر الحرية، فالاسرة يمكن أن تكون الوسيلة الرئيسية لخضوع النساء البيض، وإنها ترجع الي العنصرية **Racist** للعالم الخارجي للسود، وبالتالي فالمرأة غالباً ما تكون العنصر المقهور والتي يكون من الصعوبة تحقيق المساواة في إطار من الاخوة **Sisterhood** والتضامن النسائي **Women's Solidarity** وعندما تتحدث المرأة عن الحاجة الي توسع فرص العمل لدي النساء في سوق العمل لكي تحرر نفسها من إختناق العمل المنزلي، وبالطبع هي لا تعني نوع العمل الذي تجبر علي عمله العديد من النساء السود، لأن معظم النساء السود من الطبقة العاملة، كما تطالب المرأة البيضاء مرة أخري من أجل الحق في الأختيار **Right to Choose**. -وقد اجهض هذا الحق ايضاً- وهذا ما جعل من الصعوبة الإحساس بالحرية لدي العديد من النساء السود اللذين يعيشون في العالم الثالث، وفي النهاية فإن الاهتمام بالطبيعة الجنسية بين بعض أنصار النسوية البيضاء ليس له صلة وثيقة بالعديد من النساء في العالم الثالث تماماً، حيث يسود فيها الفقر والحرمان ونقص التعليم كلية، فليس هناك إهتماماً بالنشوة الجنسية إذا لم يكن هناك طعام أو مأوي أو علاج طبي.

أنظر سارة جامبل، النسوية وما بعد النسوية، مرجع سابق، ص ٣٢٨ – ٣٢٩.

الفصل السادس

علم الاجتماع التفسيري

نظريات التفاعلية الرمزية

Interpretive Sociology

Action Theories Symbolic Interactionism

١- التفاعلية الرمزية Symbolic Interactionism

لقد أطلق أسم التفاعلية الرمزية علي أحدي أشهر نظريات الفعل، وأن التفاعلية الرمزية هي الطريقة في التعبير لتحديد أو تعريف الموقف بواقعية من خلال رؤية الملاحظ **Beholder**.

وفي الواقع أن الافراد عندما يحددون المواقف بصورة واقعية، فإن للواقع نتائجة المرتبطة به، وبغض النظر عن هذا، فلقد أطلق مسمى التفاعلية على الرؤية التى تدل بوضوح على أنماط النشاط الإنسانى التى تعتبر عناصرها ضرورية من أجل فهم الحياة الإجتماعية، ووفقاً لتصور التفاعلية الرمزية، فالحياة الإجتماعية معرفياً هى التفاعل الإنسانى أو البشرى من خلال إستخدام الرموز والإشارات، ولذا فهى تهتم بنقطتين هما:-

أ- الطريقة التى يستخدم بها البشر الرموز بما يقصدوه لكى يتصل كل واحد بالأخر.

ب- بتفسيرات نتائج هذه الرموز على السلوك الخاص بالجماعات أثناء عملية التفاعل الإجتماعى.

وفى مناقشتنا السالفة الذكر عن نظرية الفعل **Action Theory** نحن أكدنا كيف أن السلوك للكائن الحى هو أساساً نتاجاً لكيفية تفسير العالم من

حولنا وليس السلوك مكتسباً أو حتمياً كما تفترض النظريات البنائية[1]. **بل هو بالاحري عملية اختيارية، فالسلوك المناسب يتم في ضوء كيفية تحديد الناس للمواقف التي تواجههم، ولكن ما هو بعد عملية التفسير طبقاً لنظريات الفعل التي هي غالباً أصل السلوك المؤثر في الناس الآخرين المشتركين في المعني الذي يواجههم؟ وهذه نقطة هامة كما ذكرت في الفصل الاول، وأن معظم أو غالبية**

---

1 فسلوك الناس في ضوء الوظيفة يتحدد ويتشكل في ضوء المعايير الاجتماعية أو النظم السائدة في المجتمع، ويتشكل هذا السلوك ويتحدد في ضوء الماركسية عن طريق العمليات التاريخية التي يحدث في اطارها تكوين اجتماعي اقتصادي محدد له ملامحة الواضحة في اساسه الاقتصادي، ولذا فقد وجه النقد الي التصور الوظيفي والماركسي للانسان باعتباره كائناً يكاد أن يتجرد من حرية الإختيار في سلوكة لأن اختياره ضيق النطاق، وبالتالي تسلب الانسان القدرة علي الخلق والابتكار وعلي قدرته الايجابية في التأثير في المجتمع الذي يعيش فيه. "المترجم"

المواقف التي نجد أنفسنا منها هي مواقف اجتماعية أساساً. وتقريباً في كل الاوقات نحن نفسر المعني، لكي تقرر كيف نتصرف في ضوء تفسير أفعال الكائنات الانسانية الاخري.

وأن إحدي الاهتمامات الرئيسية للتفاعلية الرمزية أن الناس يتجهون في عملهم من الذات الي خارجها، مؤكدين أن الافراد الذين يشكلون المجتمع، من خلال التأكيد علي أهمية المعاني الرمزية للاتصال بما يشمله من لغة وايماءات واشارات، وبالتالي فالتفاعلية الرمزية تسلم تسليماً مطلقاً بأن المجتمع يشكل الافراد ويكون سلوكهم. ولهذا تقرر نظرية التفاعلية الرمزية بأن التفاعل مع الآخرين هو اكثر العوامل أهمية في تحديد السلوك الانساني، كما تأكد التفاعلية الرمزية بأن عملية التفاعل لها طريقتان، فنحن ليس علينا فقط أن نفهم أن فعل شخص ما يكون نتاجاً لسلوك شخص ما آخر، وإنما يجب أن تفسر التأثير علي الفاعل الذي يكون سلوكه مفسراً بأساليب معينة ايضاً.

ومن أهم المساهمات الرئيسية للتفاعلية الرمزية لنظرية الفعل هو إختبارها وشرحها لأنماط مختلفة من التأثيرات وتفسيرات الآخرين علي الهويات الاجتماعية للافراد الذين يكونوا موضوع هذه التفسيرات.

بناء تصور الذات The Construction of Self-image

إن التأثير الاكثر شيوعاً هو كيف تستخدم تفسيرات الآخرين، وما المعني من وراء السلوك الذي يعبر عن تفكيرنا، وبالتالي: فأنا أكون ما أنا أفكر وأنت تفكر فيما أكون. **I am what I think you think I am**. وعلي هذا فقد قسم هربرت ميد الذات الي الفاعل (**I**) والمفعول (**ME**) والأنا هو الجزء الايجابي من الذات، أما المفعول فهو الجزء السلبي أي هو الجزء الذي يؤثر فيه الآخرون (العامون).

وتعني التنشئة الاجتماعية وفقاً للتفاعلية الرمزية أنها ليست كما أكد منظروا البنائية بوصفها العملية التى يتم من خلالها تعلم القواعد الثقافية الخارجية والداخلية للافراد بصفة عامة، إنها نتيجة عملية التفسير -توزيع المعنى بين الناس- وإنما هى وفقاً لمنظرى نظرية الفعل متأهلة أو متجذرة فى كل تفاعل إجتماعى، فشخصياتنا يتم بناؤها من خلال ما تعنيه عملية التفسير على النحو التالى:-

فأثناء طريقة معيشتنا فنحن نواجة بأعداد كثيرة من الناس، كل منهم يأخذ سلوكنا تجاههم ويرمز إلى شئ ما نحو أنفسنا وهم يفسرون سلوكنا فى ضوء الأدلة

التى وجدوها، وهم عندئذ يتصرفون تجاهنا فى ضوء هذا التفسير، الذي يدل علي المعني الرمزي المتاح لهم، ونوعية الاشخاص الذين قرروا أن يكونوا، إن صورة أنفسنا تتأثر بشكل حاسم بردود أفعال الافراد الذين نتفاعل معهم ونتصل بهم، ولذا فنحن لا نستطيع أن نتجاهل أي نمط من الاشخاص الآخرون الذين يخبروننا من نكون أي أن صورة ذاتنا تتأثر تماماً – ولم تخلق – بصورة الآخرين عنا، فخذ علي سبيل المثال العلاقة بين المدرس في المدرسة الإبتدائية وفصلة (أو فصلها) فالمدرس لا يستطيع أن يقدم المساعدة، ولكن يستطيع أن يصدر أحكاماً نحو الاطفال داخل الفصل، خاصةً عن قدراتهم و إمكاناتهم وطبقاً لنظرية التفاعلية الرمزية، فإن الاطفال بوصفهم بشراً ايضاً فإن رؤيتهم عن أنفسهم وقدراتهم يمكن أن تتأثر بالاحكام التي يصدرها المدرس، ولذلك فالطفل الصغير الذى يجلس منتبهاً في الصفوف الاولي من الفصل، ويتصرف بشكل ملائم ويكون مهتماً وواعياً، فمن المحتمل أن يكون ذكياً وناجحاً، وعلى العكس فالفتاه التي تجلس في الصفوف الخلفية من الفصل، وغير منتبهة وكسولة فمن المحتمل أن تكون أقل نجاحاً وإيجابية.

وهكذا فإن التفاعلية الرمزية تأكد غالباً أي التفسيرات تكون صحيحة أو غير صحيحة، وما التأثيرات التي يمكن أن تحدث في المستقبل؟

وعلي أي حال لو كان الاطفال في الواقع لهم نفس القدرات، فإن المدرس لم يستطيع أن يحدد طريقة معينة للتعامل، وبالتالي يعاملهم بطرق مختلفة، فالولد أو الطفل الصغير نشجعه علي العمل والاجتهاد، بينما البنت الصغيرة يتم نصحها ونبعدها عن السلوك السيء، وغالباً ما نضعها نصب أعيننا تحت الرقابة والضبط، هذه الردود المختلفة للمدرس تتأثر بطريقة رؤية الاطفال لأنفسهم، وبالتالي فالتأييد من خلال مساندة وتشجيع المدرس للطفل الصغير علي العمل بجد وإستغلال قدراته الكامنة، وإقتناع المدرس بأن البنت أقل في قدراتها من الناحية الأكاديمية ونصحها بالابتعاد عن السلوك السيء، وهكذا فإن احكام المدرس تؤكد التوقع عن قدرات الاطفال بوصفها حقيقة واقعية.

ولا شك أن صدق التفسيرات يمكن أن تكون أقل من تأثيراتها الواقعية، وبالتالي فإن نتيجة هذه العملية من التفاعل بين المفسر والتفسير الذي تم تقديمه قد تكون جلية في رؤيتها تماماً.

فبناء ذاتنا يعتمد علي ما نواجههم من أفراد معينين في رحلتنا خلال الحياة مثل الوالدين والاصدقاء والمعارف، وزملاء العمل الذين يجعلوننا أفراد مختلفين

تماماً، وفي المثال السابق فإن المدرسين الذين يشجعون مختلف الاطفال بشكل متساو غالباً ما يكون لهم آثار ايجابية بصورة الذات عن البنت أو الولد الصغير.

وفي الواقع فإن تأثير تفسيرات الآخرين هي فقط نصف عملية التفاعل التي أكدت عليها نظرية التفاعلية الرمزية بعيداً عن كون الشخصية الانسانية هي ببساطة بناء سلبي من الآخرين. وعلي هذا فإن التفاعلية الرمزية تؤكد علي الدور الحيوي الذي يلعبه البشر في خلق ذاتهم الاجتماعية. وطبقاً للتفاعلية الرمزية فإننا نتعلم في الواقع أن الآخرين سوف يفسرون سلوكنا وقدراتنا الخاصة التي تساعد علي توجيه وتنظيم هذه التفسيرات لكي تلائم رؤيتنا عن أنفسنا. وقد إستخدم كولي ما يسمي بالانعكاس الذاتي **Self–Reflective** ليصف به كيف أننا نكون أنطباعنا عن أنفسنا من خلال أستجابات الآخرين، وعندما يصبح الفرد واعياً بالجزء السلبي من ذاته (المفعول) يكون عندئذ قادراً علي ان يؤثر في نفسه بالتحكم فيها، أي يصبح الفرد موضوعاً لذاته، ويمتد الوعي الانساني الي أشياء أخري وإناس آخرون، بالاضافة الي ذات الفرد وبالتالي لديه فرصاً مستمرة للفعل الإبداعي.[٢]

والمنظر الأكثر شهرة لنظرية التفاعلية الرمزية المرتبط بهذا التأكيد على لعب دور خلاق فى هذه النظرية هو إرفنج جوفمان **Erving Goffman** (١٩٦٩) ففى كتابه المسمى.. تقديم النفس فى الحياة اليومية. **Presentation of self in every life.**

ولقد لخص جوفمان فكرته عن الحياة الإجتماعية بوصفها عملية تمثيل حيث أن الذات لا فحوى لها غير ما هو متوقع منها فى مواقف مختلفة، ونحن لدينا من الذوات بقدر ما هنالك من مناسبات ومواقف مختلفة.

وكثيراً ما يصنف منظور جوفمان بالمنظور المسرحى وهو مصطلح يستخدمه بنفسه، فالادوار (أى التوقعات التى تكون لدى الأخرين عن سلوكنا فى ظروف معينة) هى بمنزلة نصوص مكتوبة نقوم بتمثيلها، وبالتالى فقد أهتم جوفمان بتوضيح الأساليب التى نسلكها لكى نؤدى أدوارنا، ولذا يرى جوفمان

2 أى أن التفاعلية الرمزية ترى أن الفرد قادراً على أن يصنع قراره بنفسه وعلى أن يسلك سلوكاً يتسم فى أغلب الأحيان بالقدرة على ممارسة حرية الإختيار، فالانسان كائن مزود بالقدرة على التفكير الواعى، فاذا سلك الفرد سلوكه فهو يفعل ذلك طوعاً، وهو إن أجبر على القيام بسلوك لا يرضى عنه لديه القدرة على أن يقاوم ويحتج ويتذمر بل وقد يتمرد أو يثور فى بعض الأحيان. "المترجم"

جميع الأفعال بهذا المعنى بينما يرى كثير من منظرى التفاعلية الرمزية أن التفسيرات لا تناسب إلا المواقف التى وضعت فيها، وليس بمقدورنا أن نضع تعميمات عن الحياة الإجتماعية، والمجتمع بصفته محادثة ظاهرة تتغير باستمرار، وبالتالى لا يمكن وضع تعميمات مجردة.

ووفقاً لجوفمان وأتباعه من التفاعليين الرمزيين، فالتنشئة الإجتماعية هى عادة النجاح فى تنمية الطاقات لدى الأفراد الناجمة عن ردود أفعال الأخرين وإن كان معظم منظرى نظرية الفعل لا يوافقون على ذلك التفسير.

ومع هذا فنظرية التسمية **Labelling** هى النظرية التى أنبثقت عن التفاعلية الرمزية. وإن كانت هى أقل أهتماماً بالطرق التى تجعل الأفراد قادرين على التأثير فى تفسيرات الأخرين عن أنفسهم أكثر من أنماط التفاعل، ونظرية التسمية هى أساساً تهتم فى الواقع بأن الناس فى بعض الأحيان يكونوا ضحايا **Victims** وغالباً عاجزين عن هذه التفسيرات من الأخرين، وعند هذا الحد فإن هوياتهم الإجتماعية تكون مفروضة عليهم وحتى ضد إرادتهم، وبالتالى لماذا يحدث هذا؟ ولماذا نجد أنفسنا فى مواقف إجتماعية لا نستطيع فيها أن نؤثر فى تفسيرات الأخرين؟

٢- نظرية التسمية: الشخص كضحية

Labelling Theory: The Prson as victim

فالتسمية تتناقص مع تصور الذات، فنحن أحياناً لا نكون فى وضع يمكن فيه وصف الإدعاءات والمزاعم المتعارضة حول قضية الموت، فعلى سبيل المثال لقد ناقشنا بإختصار فى الفصل الأول أن الحكم على ظاهرة الإنتحار **Suicide** يعتمد على تفسير مدى واسع من الناس، الأقارب والأصدقاء وضباط البوليس وبصفة خاصة المحققين، على الرغم أن الدلائل المادية تدل على الحقيقة، وتدريجياً كل شئ يعتمد على تفسيرات الأخرين كما سوف نرى فى الفصل التاسع حيث أن المسئولين عن كتابة تقرير أسباب الموت أحياناً ما يكونوا أقل أهتماماً بالجهود المخططة لظاهرة الإنتحار كما يحلو لهم تسميتها.

وأحياناً نحن نستطيع أن نحتج ضد عملية التسمية أو الإدعاءات الخطأ. فعلى سبيل المثال أن التسمية المعروفة للشخص الذى يسرق المعروضات سواء فى المحكمة أو فى الصحافة فإن ذلك سوف يكون مؤشراً على إستمرار هذه التسمية من قبل الأخرين، ومن ثم لا توجد إحتجاجات ضد الأفراد الحاصلين على

البراعة بينما توجد هذه الإحتجاجات فقط بوصفها إثبات لعملية التسمية، فمثلاً أنه لو تم تشخيص مرض عقلى- حتى لو أعتبرت نفسك سليم عقلياً تماماً – فمن المحتمل أننا نعتبر أى حالة هياج **Fuss** مرضاً عقلياً يجب نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية، فهذا يعتبر رد فعلى طبيعى من وجهة نظرك. وبالتالى فإن الخطورة تكمن فى أنه فى حالة الغضب أو السلوك القابل للإثارة، سوف يرى بواسطة الأخرين كدليل على انك مضطرب أو غير متوازن، ويمكن أن نفهم ضمنياً من هذا الإتجاه التعريفى أو التحديدى أن عالم التفاعلية الرمزية يجب أن يجنب نفسه من إصدار الأحكام الخارجية حول الأفراد الذين يقومون بدراستهم، وإنما يتبنى موقفاً يحاول من خلاله وصف المزاعم والإدعاءات المتعارضة التى يقدمها الأفراد حول ما هو واقعى، وما حدث فى الواقع، وليس من حقه فى الحقيقة أن يصدر أحكاماً عما إذا كانت هذه الإعاءات صحيحة أم خاطئة.

وفى عمل عالم التفاعلية الرمزية جوفمان الكلاسيكى وصف السلوك الإختزانى**Hoarding Behavior** بين المرضى العقليين فى **Asylums** (١٩٦٨).

لا شك أنه من الملائم تحديد معالم السلوك العادى فى مرة ما، وما يسمى بالسلوك الشاذ مرة أخرى، فالسلوك الإختزانى هو ما يتسم به المرضى العقليين فى مستشفى الأمراض العقلية، إذ يقوم هؤلاء المرضى بالإبقاء باستمرار على كل ما يمتلكونه ويخصهم كأشخاص ونتيجة لذلك نجدهم يحملون معهم كل أنواع الأشياء التافهة، والتى لا فائدة منها مثل قطع الخيط أو أوراق التواليت، ولذلك يمكن النظر إلى هؤلاء المرضى على إنهم يعانون من نمو متزايد فى حب التملك الذى يجعلهم يرفضون وضعها بعيدة عن أعينهم. والتى قد يفهم أنها تخفى وراءها مظاهر القلق وعدم الإحساس بالأمن، وأن التفسير العادى لهذا السلوك يؤكد إثبات التسمية المتصلة بالمريض، وأنهم يفتقرون إلى الخصوصية والأمن فوق ذلك، إن هذا السلوك الإختزانى هو فقط إنعكاس للقلق وعدم الإحساس بالأمان إلى حد كبير.

إن محاولة جوفمان فى هذا التحليل تؤكد أن ما يبدو ملائماً فقط من وجهة النظر للحياة الخارجية فى مستشفى الأمراض العقلية يصبح موضوعاً عديم القيمة أو الفائدة وإنما يجب أن يأتى من داخل تلك المؤسسة، فهذا ما يمكننا من الوصول إلى الإحساس المطلوب من أجل دراستهم بإهتمام.

علاوة على ذلك فإن المرضى فى المستشفى العقلية ينقصهم الخصوصية وقلة الخدمات والمكان الملائم بالأمان، مما جعلهم ضحايا للإدعاءات الكاذبة والمضللة التى تجمعت إما لأننا لا نستطيع أن نسمعهم أو لاننا لا نصغى إليهم.

ويمكن أن نفهم ضمنياً أن عالم التفاعلية الرمزية يجنب نفسه من إصدار الأحكام الخارجية حول الأشخاص الذين يقومون بدراستهم، وإنما يجب أن يتبنى موقفاً يحاول من خلاله وصف المزاعم والإدعاءات المتعارضة التي يقدمها الافراد حول ما هو واقعي وما حدث بالفعل، فالصح أو الخطأ في الواقع يرجع الي تطبيقاته أو ردود أفعاله من الآخرين لكي يوجدهم مما يجعلة حقيقة. وعلي هذا فالواقعية تأتي من النظر الي ظروفهم الواقعية من خلال وجهة نظر الملاحظ والملاحظ في نفس الوقت.

التغير في صورة الذات

Alteration of self –images

إن تحديد هذه العملية لتطبيق نظرية التسمية في الانحراف **Labelling theory to deviance** حيث يذهب الباحثون الذين يأخذون بنظرية تسمية الانحراف هذه الي أن عالم الاجتماع في دراسته للمنحرفين لا يعالج في العادة كل فئات الافراد الذين قد إرتكبوا سلوك الانحراف، وإنما يدرس فقط أولئك الذين شوهدوا وهم يرتكبون مثل هذا السلوك، ومن ثم أطلقت عليهم هذه التسمية وفقاً لمشاهدتهم، لذا فإنه من اكثر المساهمات المميزة لها في دراسة السلوك الانحرافي هي أنها أوضحت أن السلوك الانحرافي ناجم عن تفسير فرد معين في موقف أو محيط اجتماعي معين (كما هو في التسمية العامة) أنها ايضاً أوضحت أن ردود فعل الآخرين نحو تسمية الانحراف هي غالباً ما تكون قاسية جداً، والتي قد تكون ناجمة عن التغيير الخطير في بناء تصور الذات.

٣- أدوين ليمرت وفكرة جنون الاضطهاد أو العظيمة

Edwin Lemert and Paranoia

إن وصف ليمرت الشهير عن البناء الاجتماعي لمرض جنون الاضطهاد أتضحت في كلا الوجهين لنظرية التسمية بكل وضوح، وجنون الاضطهاد هي حالة عقلية يعاني منها من الشعور بالمعاناة من خلال مؤامرة مدبرة بإحكام له،

ومع ذلك كما أوضحت ليمرت (١٩٦٧م) أن جنون الاضطهاد **Paranoia** هي عادة ما يكون شخص أو فرد يشك أو يتعثر في علاقاته الاجتماعية مع الناس، وبخاصة الافراد الذين عادة ما تكون لهم صلة غير رسمية في حياته المهنية، ونتيجة لأنه يجد صعوبة في هذه العلاقات يبدأ الآخرون في إستبعاده من علاقاتهم، عندئذ يصبح الشخص المريض مستبعداً، لأن الناس المضطربين لا يعرفون ما هو ملائم بالنسبة لهم، وبالتالي يتصرفون بشكل غير عقلاني، وتدخل المستشفي العقلية، والطبيب ضمن هؤلاء الذين في محاولاتهم لمعالجة المجنون بالاضطهاد يعملون بطريقة غير مباشرة علي تثبيت وجود هذه المؤامرة، وبالتالي فإن محاولات مساعدة الاشخاص المفترض أنهم مرضي تسهم في زيادة متاعبهم، وبالتالي فإن أي حذر أو شك في المريض بالاضطهاد يؤدي الي تزمرهم من ذلك، ومن الطبيعي أن هذا الامتعاض (التذمر) غالباً ما يكون من وجهة نظر الشخص المسمي (الذي أطلق مسمي المريض بالاضطهاد) ومن رؤية الفاعلين فإنها تؤكد حقيقة هذه التسمية، ومن الواضح أن شخص ما – هو أو هي – يعتقد بوجود مؤامرة ضده من الآخرين، وفي الواقع أن ما يحدث في الواقع لايجعل المسميون يختلفون في إثبات وجهة نظرهم (حكمهم) وهذا الاثبات يؤدي الي بقاء المعاملة السائدة في المستشفي العقلية، وفي هذه المرحلة فإن الشخص الذي له خبره طويلة في التسمية غالباً ما يشكل ضغطاً علي تصورهم لذاتهم– ومع هذا يؤكد ليمرت أنه مهما كانوا واثقين من سلامتهم العقلية قبل إدخالهم المؤسسة، فالتأكيد المؤسس علي تسميتهم (غير عقلاء) خاصة عن طريق المحاولات المتعمدة لتغيير سلوكهم – سوف تنتهي في النهاية دون الاهتمام بصورة النزلاء المسبقة عن ذواتهم والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما الشيء الذي يجعل هؤلاء موجودون بالمستشفي العقلية؟

في الواقع ان المسميين لهؤلاء الناس خاصة من هيئة الاطباء النفسيين في هذه المرحلة يطالبون بضرورة تغيير صورة الذات – والاعتراف بالحاجة الي تحسين المعاملة – تمثل الخطوة الرئيسية الاولي في طريق العلاج، وفي الواقع ان السياق الاجتماعي للظروف العقلية والتي تبدأ بأنه ليس هناك مرض عقلي حقيقي ولكن التسمية التي أطلقها الآخرون علي هذا المرض هي الاساس – وهذا بالطبع لم يتم دراسته بشكل كاف– وبالتالي لا شك أن تأثير التسمية المؤسستيه هي التي تساهم في بناء الشخصية الاجتماعية وبشكل خاص من خلال المساهمة في خلق تصور جديد للذات وهذا الموضوع يعتبر وثيق الصلة بما قاله أرفنج جوفمان.

٤- جوفمان والمؤسساتية

Goffman and Institutionalation

طبقاً لجوفمان، فإن العلاج الرسمي لكثير من أنواع السلوك المنحرف فى المؤسسات المنشأة لهذا الغرض هو – كما هو الحال فى المرض العقلى– إلى حد ما محاولة واعية لتغيير صورة الذات، وذلك حتى يصبح هو أو هى أكثر عرضه "للعلاج" وفى تحليل مرحب به لما أطلق عليه جوفمان " المؤسسة الكلية " **Total Institutions** (المصحات) ١٩٨٦م طور جوفمان وجهة النظر القائلة بأن المؤسسات مثل السجون ومعسكرات التدريب، ومستشفيات الامراض العقلية حيث يتم حجز من يتم تسميتهم منحرفين تماماً عبر فترات طويلة هي في الاساس مؤسسات للاعادة الاجتماعية. علي الرغم من أن حجته لا تقتصر علي علاج المنحرفين (هو يدعي أن نفس المباديء تدعم التدريب الصارم الذى يقوم به الجنود وأعضاء بعض الجماعات الدينية علي سبيل المثال) فإن الطبيعة غير التطوعية لانخراط المنحرف في هذه المؤسسات تجعل أي تغيير ناجح في صورتهم لذواتهم علي وجه الخصوص جدير بالملاحظة.

ويعرف جوفمان (١٩٦٨) المؤسسات الكلية علي أنها "أماكن للإقامة والعمل" حيث ينعزل عدد كبير من الافراد ذوي الظروف المتشابهة عن المجتمع الكبير لفترة من الوقت يمكن تقديرها ويعيشون معا جولة حياتيه مخططة ومنظمة ومفروضة رسمياً، ويؤكد أنه في هذه المؤسسات يتم تصميم طريقة الحياة بطريقة متعمدة لتجريد النزلاء من صورهم عن ذواتهم وإستبدالها بأخري قبولاً لدي روح المؤسسة ويطلق علي هذه العملية الانخراط في المؤسسة.

كما يقول علي سبيل المثال، أنه يتم تصميم إجراءات القبول حتي تزيل كل الرموز الظاهرة التي تدل علي شخصية النزيل السابقة وإستبدالها بمؤشرات الشخصية الجديدة التي يتم تدريبه ليصبح عليها، وهكذا يتم أستبدال الاسماء بالارقام (كما يحدث في السجون ومعسكرات التدريب والمؤسسات العسكرية) أو بأسماء جديدة (كما يحدث في الطقوس الدينية) كما يتم تحويل المظهر الجسماني الخارجي للنزيل بأقصر الطرق وضوحاً حيث يتم التخلص من الملابس فور الدخول وأستبدالها بالزي الموحد للمؤسسة، ويتم قص الشعر بطريقة حادة وحيث أن أقتناء الممتلكات مرفوض أو صعباً فإن كل أو معظم المتعلقات الشخصية يتم

مصادرتها فور الدخول، ويتم رفض أي مساحة من الحرية الشخصية حتي في اكثر أنواع الأنشطة خصوصية.

بهذه الطرق وبطرق أخري – كما يقول جوفمان – يتم تجريد النزلاء من الدعائم التي تعيد اليهم ما يتعلق بذواتهم السابقة والتي تجعلهم قادرين علي ايصال ذلك للآخرين، بالاضافة الي ذلك، يمكن تعزيز محاولات تغيير صورة الذات لدي النزلاء عن طريق التحقير من شأنها عن طريق طقوس معينة وطرق أخري ويطلق جوفمان علي هذه العملية **Mortification of the self** إماتة النفس. على سبيل المثال قد يضطر النزلاء الجدد إلى تحمل الإهانة فور دخولهم مثل التفتيش الذاتى (فى السجون) أو طقوس الغسل (فى المستشفيات العقلية) من خلال حجزهم يتم إجبار النزلاء على التصرف بأقصر الطرق خناعة وطاعة تجاه هيئة المؤسسة. وأحياناً يكون ذلك فى مواجهة الإستفزاز ويؤكد جوفمان أن هذا الحط من شأن النزلاء والذى يتم غالباً علانية مصمم لإماته ذاته السابقة وتشويهها وجعلها غير قابلة للإستخدام ولتشجيع إستبدالها بهوية جديدة أكثر ملائمة لإستيفاء متطلبات المؤسسة.

على الرغم من أن أصحاب نظرية التسمية يتوقعون أن تكون هذه العمليات غير قابلة للمقاومة بالنسبة للمتلقين، يعتبر جوفمان صادقاً بالنسبة لمبادئة التفاعلية، فالإيمان بأن الهويات الاجتماعية لا يتم فرضها على الناس ولكنها تخلق ويعاد خلقها كعملية تفسيرية ذات إتجاهين، ويؤكد جوفمان ليس فقط على تأثير الإنخراط فى المؤسسة ولكن أيضاً على مقدرة النزلاء على مقاومة وتعديل العمليات التى يتعرضون لها بدرجة ماصغرت أم كبرت، ويتحدث عن هؤلاء الذين يصبحون مستعمرين أو منخرطين فى المؤسسة، مفضلين الحياة فى المؤسسة عن الحياة خارجها أو عن هؤلاء الذين يصبحون متحولين مزعنين لوجهه نظر المؤسسة فيما يتعلق بالنزيل المثالى، وممثلين ذلك الدور إلى أقصى حد، كما يتحدث عن النزلاء الذين يحمون ذواتهم عن طريق الإنسحاب من التفاعل مع الأخرين أو الذين يفعلون ذلك عن طريق التمرد على المؤسسة. وكذلك هؤلاء (وهم الأغلبية طبقاً لوجهه نظر جوفمان) الذين يلعبونها بهدوء؛ الذين يبتعدون عن المشاكل ويحافظون على صورتهم عن ذواتهم عن طريق لعب دور رد الفعل الذى تطلبه الظروف.

علاقات التسمية كعلاقات سلطة

Labelling Relations as Power Relations

إذا كانت بعض التسميات تتضمن التضحية بالنوع الذى نناقشه فإن نظرية التسمية تؤكد أننا يجب أن نسأل سؤالاً إضافياً ونهائياً: من أين يأتى هؤلاء الضحايا؟ فمثلاً، لماذا يسمى بعض الناس مرضى عقليين وليس أخرين غيرهم؟ لماذا يسمى أطفال معينين غير قابلين للتعلم وليس أخرين غيرهم؟

بالنسبة لأصحاب نظرية التسمية تكمن الإجابة ليس فى واقع الحالات العقلية المختلفة أو مستويات الذكاء بل تكمن فى أصل تلقى هذه الصفات بواسطة الأخرين، ويكون التركيز على الأسباب التى تجعل هذه التسميات مرتبطة بأنواع معينة من الناس أكثر من كونها مركزة على الصفات التى قد يملكها أو قد لا يملكها ضحايا هذه التسميات، ولهذا فإن السؤال المثير للإهتمام ليس؛ كيف أصبح هؤلاء الناس على ما هم عليه؟ ولكن لماذا تم تسمية هؤلاء الناس هكذا وليس غيرهم؟ أو لماذا يكون هؤلاء الناس ضحايا هذه التسميات وليس غيرهم؟

الإجابة التى تقدمها نظرية التسمية المعتادة على هذه الأسئلة هى أن تطبيق هذه التسميات هى فى النهاية تتعلق بممارسة السلطة، طبقاً لنظرية التسمية، معظم التسميات المدمرة فى الحياة الاجتماعية – تسميات المنحرفين- ترتبط عادة بأكثر أعضاء المجتمع ضعفاً وقلة سلطة- هؤلاء الأقل فى القدرة على مقاومة هذه العملية، ويصف هوارد بيكر- وهو أحد الرواد المدافعين عن هذه النظرية- هذا التحليل لتسمية المنحرفين كإنعكاس لممارسة السلطة بأنه العملية التى يصبح فيها ضحايا الظلم في مجتمع ما هم ضحايا الظالمين. هذه هى خاصية لطرق أو أساليب تسمية السلوك الإنحرافى بوجهه عام، فالمنحرفين ينظر إليهم عامة على انهم ضحايا وليس على انهم خاطئين، وهذا واضحاً فى تحليل التسمية التقليدى للجريمة على وجه الخصوص حيث تعتبر الجريمة حصرياً هى نتاج التسمية وواحدة من التأثيرات المنتشرة لتوزيع هذه التسميات، تنظر نظرية التسمية للعلاقات بين من يقومون بالتسمية وبين من يتم تسميتهم فى هذه المساحة من الحياة الاجتماعية على أنها أساساً علاقة سلطة، وعلى عكس الرأى التقليدى الأن، فإن الضحايا هم ضحايا الظلم الذين يتم تحويلهم إلى مجرمين فى حين أن الخاطئين هم ضحايا الظلم الأكثر سلطة الذين يدفعون من لا سلطة لهم أسفل الحلزون الذى لا ينتهى أبداً للإنحراف الإجرامى.

٥- نظرية التسمية والجريمة Labelling and Crime

يؤكد أصحاب نظرية التسمية أن هناك سؤالين أساسيين يجب أن نسألهم حول الجريمة:-

أ- لماذا يتم إعتبار بعض الأنشطة الإنسانية غير قانونية وليس غيرها من الأنشطة؟

ب- لماذا يصبح بعض الناس مجرمين وليس غيرهم؟

طبقاً لنظرية التسمية، تعكس إجابات هاذين السؤالين توزيع السلطة فى المجتمع، ذوى السلطة ليسوا فقط قادرين على تحديد الأفعال غير القانونية فى المجتمع ولكنهم قادرين أيضاً على التأثير فيمن يتم تسميتهم مجرمين، تؤكد نظرية التسمية أنه على الرغم من أننا نحب أن نعتقد أن القوانين بطريقة ما مملاه بواسطة الله أو إنها فى مصلحة الجميع بطريقة مؤكدة لكن الأمور ليست بهذه السهولة. هم يؤكدون أننا يجب أن نعرف أن بناء القواعد القانونية هو عمل سياسى، فالقرار الذى يسمح بهذا الفعل ولا يسمح بفعل أخر يتم التوصل إليه بواسطة هؤلاء الذين لديهم سلطة إتخاذ القرار، بالإضافة إلى ذلك " أصحاب السلطة" فيما يتعلق بهذا الشأن لا يعنى ببساطة صناع القوانين الحقيقيين ولكن أيضاً الأفراد والجماعات القادرين على التأثير فى صناع القانون، هؤلاء الأشخاص فى مجتمع ما والذين يطلق عليهم بيكر المقاولين الأخلاقيين **"Moral Entrepreneurs"**.

بسبب العلاقة بين السلطة وبناء القواعد القانونية فليس من المستغرب – كما يقول أصحاب نظرية التسمية – أن الأفعال التى لا نعتبرها غير قانونية فى مجتمع ما هى الأفعال التى يشترك فيها أصحاب السلطة وهكذا على الرغم من أنه من الممكن تماماً أن نتخيل مجتمع يعتبر فيه الميراث عملاً غير قانونى، أو التربح من الإيجار أو إستغلال العمالة السوداء فى مناجم جنوب أفريقيا أو تجنب أو التهرب من دفع الضرائب، ولكنه من القانونى تدخين الماريجوانا أو إقامة علاقات مثلية فى العلن أو القيام بأنشطة البالغين فى سن أصغر بكثير من ١٨ سنة، الامور لا تسير بهذه الطريقة، فالقوانين تعكس توزيع السلطة حيث أن الأقل فى السلطة لديهم إحتمالات أعلى للانخراط فى الأنشطة التى يحظرها القانون.

ربما تعتبر هذه وجهه نظر بعيدة الإحتمال، فماذا عن القوانين التى تمنع التهرب الضريبى، وتجديد العقود بواسطة الموظفين فى مقابل الرشاوى والإحتيال فى الشركات أو إحتكار الإنتاج؟ تضمن نظرية التسمية أن هناك بالطبع بعض

القوانين التى تؤثر على وجه الخصوص على أنشطة – مثلا – الأغنياء ولكنها تؤكد أن هذه القوانين مفروضة بقوة وهى أقل القوانين احتمالية فى أن تقدم دعوى ناجحة بسبب المصادر المتاحة لأصحاب السلطة للدفاع عن أنفسهم.

وهكذا فإن تصور التفاعلية الرمزية **SI** هو أن للسلطة دوراً فى تحديد الجريمة وهذا لا يقتصر فقط على تعريف الأفعال غير القانونية ولكنه يؤثر على تحرى الجريمة كذلك، ولا يوجد مكان يظهر فى هذا التأثير الأخير بطريقة أكثر وضوحاً أكثر من إختيارْ المجرم فردياً لأقامة دعوى فى تسمية أفعال شخص معين بأنها غير قانونية.

خرق القانون Law-breaking

لماذا يسمى بعض الأشخاص مجرمين دون أخرين؟ الإجابة الواضحة هى أن بعض الأشخاص فقط يختارون أن يرتكبوا الجريمة، وإنطلاقاً من هذا الرأى، فإن وظيفة أى تفسير للجريمة إجتماعياً أو نفسياً أو عضوياً هو إكتشاف ما هو الشئ المتعلق بهؤلاء الناس الذى قادهم إلى طريق الجريمة.

وتوضح الأبحاث أن حدوث النشاط الإجرامى بدون شك له علاقة ضئيلة بعدد الجرائم المعروفة للشرطة، بل أنه أقل من عدد الجرائم التى تحصل فيها الشرطة على إدانة (معدل الجرائم المنتهية).

ولقد عبر أول بحث إقليمى فى الجريمة المسجلة وغير المسجلة فى بريطانيا، أول مسح للجريمة فى بريطانيا (مارس ١٩٨٣) عن ذلك بوضوح حيث تم إجراء مقابلات مع إحدى عشر ألفاً من الأسر لتحديد الجرائم التى عانوا منها، وقد أوضح المسح أن خمسة أضعاف جرائم العنف وأربعة أضعاف جرائم الملكية المبلغ عنها للشرطة يتم إرتكابها، وتعتمد الدرجة التى تقلل بها الإحصائيات الرسمية من المعدل الحقيقى للجريمة على نوعية الجريمة، فتقريباً يتم الإبلاغ عن كل حالات سرقة السيارات حيث أنها الطريقة الوحيدة التى يتلقى عن طريقها الملاك التعويض من شركات التأمين، ومن المحتمل أنه لنفس السبب (لأن المزيد من الأملاك الخاصة الأن مؤمن عليها أكثر من السابق)، إزداد معدل السرقات المبلغ عنها، كما يشير المسح أن حالة من كل حالتين يتم الإبلاغ عنها الأن، لكن أنواع جرائم الملكية الأخرى لها معدل إبلاغ أقل بكثير، فعلى سبيل المثال يتم الإبلاغ عن (١٣%) فقط من أعمال التخريب، ومن المقدر أنه يتم الإبلاغ عن

(١%) فقط من محاولات سرقة المعروضات، لماذا يجب أن يتم الإبلاغ عن الجرائم بدرجة أقل من حدوثها بهذا الشكل؟

لا يتم الإبلاغ عن كثير من الجرائم مثل تخريب الممتلكات بسبب طبيعتها التافهة، وعلى الرغم من ذلك فكثير من جرائم العنف لا يتم الإبلاغ إلا عن (٢٠%) فقط من الجروح والإعتداءات الجنسية والسرقات مثلاً، ويبدو أن السبب الأساسى لهذا المعدل المنخفض هو السن الصغير لكثير من الضحايا ونقص إيمانهم إما بالطريقة التى ستتعامل بها الشرطة مع الشكوى أو بقدرة الشرطة على حل الجريمة.

وقد أوضحت الدراسات السابقة أنه حتى عندما يتم الإبلاغ عن الجرائم للشرطة لا يتم تسجيلها، ومن أسباب ذلك زيادة عبء العمل والشكوك حول مدى مصداقية الإدعاءات، والرغبة فى تحسين معدل الإنتهاء عن طريق إستبعاد الجرائم غير القابلة للحل. بالإضافة إلى المسح الخاص بالضحايا، توضح الدراسات المعتمدة على التقرير الذاتى الفجوة الكبيرة بين إرتكاب الجرائم،وحتى الفجوة الأكبر بين الإرتكاب والإنتهاء (التى إستطاع البوليس أن يصل إلى مرتكبيها) هذه الدراسات تسأل الناس أن يتطوعوا بإخبار أفعالهم غير القانونية الماضية تحت ضمان من السرية المطلقة، وكشفوا ما بين ٥٠%، ٩٠% من الناس يعترفون بإرتكاب نوع من السلوك غير القانونى الذى كان سيؤدى إلى قاعة المحكمة لو تم إكتشافه، كما يشيروا إلى أن السلوك الإجرامى موزع عبر كل قطاعات المجتمع ووضحوا أنه من المحتمل أن ترتكب الجرائم بواسطة الطبقة الوسطى كطبقة عاملة ويوضحوا الخطأ فى إفتراض أن الجريمة غالباً ما تتركز فى الطبقات الدنيا من البناء الطبقى.

ولكن هذا هو بالتحديد ما تشير إليه الإحصائيات الرسمية للإدانة الخاصة بالجرائم التى تم الوصول إليها (حلها) يشير الإنطباع السائد من هذه الأرقام إلى أن الجرائم ترتكب بواسطة الذكور الصغار الحضريين من الطبقة العاملة.

لماذا يحدث؟ لو كانت الجريمة لا ترتكب- كما تشير الدراسات المعتمدة على التقارير الذاتية- بواسطة نوع معين من البشر، لماذا يتم القبض على أنواع معينة من الناس؟

الإجابة التى تقدمها نظرية التسمية بالطبع هى أن أنواع معينة من الناس هى فقط من المحتمل أن يتم تسميتها مجرمين، كإنسان يمكن للشرطة أن تتخذ إجراء ضد الأفعال والناس الذين يرون أنهم يخرقون القانون، وهذا هو السبب أن

أنواع معينة من الناس تصبح مجرمين، وليس السبب أنهم هم الأشخاص الوحيدون الذين إرتكبوا الجرائم فعلاً، ليس السبب حتى أنهم بالضرورة إرتكبوا أى نوع من الجرائم ولكن ببساطة أنهم تم تفسيرهم على أنهم إرتكبوا جرائم.

لماذا يوجد نموذج مميز كهذا لهذه التفسيرات؟ يؤكد أصحاب نظرية التسمية أن إدراك الشرطة بالضرورة ينبثق من الإطار المعتاد للمجرمين الذين يتعاملون معه هم وغيرهم من عناصر فرض القانون.

لماذا يجب أن تسود هذه الإطارات المعتادة فى تطبيق القانون بشكل واضح بدرجة كافية؟ إذا كان النشاط الإجرامى- كما تبين الدراسات المعتمدة على التقرير الذاتى- موزعاً بدرجة متساوية عبر سكان أى مكان فإن – أياً ما كان القالب الخاص بالمجرم التقليدى" الذى تختار أن تعمل عليه- حكمك سيتم إثباته.

لكن السؤال الهام هو لماذا تسود بعض القوالب فى السعى نحو دراسة الجريمة وليس قوالب أخرى؟

طبقاً لنظرية التسمية لا نحتاج إلى البحث عن إجاباتنا أكثر من ذلك إذا ما نظرنا إلى توزيع السلطة فى المجتمع. بنفس الطريقة التى يكون بها أصحاب السلطة قادرين على التأثير على تحديد أفعال معينة على أنها غير قانونية فهم قادرون على تشجيع إدراكات معينة- مفيدة لهم- للمجرم، هكذا على الرغم من أن إحصائيات الإدانة الرسمية تخبرنا القليل جداً عن التوزيع الحقيقى للجريمة فى المجتمع، فهى تخبرنا الكثير عن أنواع الناس الذين من المرجح أن يسميهم رجال الشرطة وغيرهم من رجال فرض القانون بمسمى مجرمين. وبدوره يخبرنا ذلك عن أنواع التأثيرات على القوالب التى تستخدم فى فرض القانون والتى أصبح أصحاب السلطة قادرين على جعل القوالب تحملها، الصورة التى ترسمها إحصائيات الإدانة توضح ذلك حيث تقل فرص المطابقة مع القوالب التى تستخدم تقليدياً فى فرض القانون حينما يرتفع الشخص فى الترتيب الاجتماعى. طبقاً لبلتون وآخرون (١٩٨٧) تكون التسميات الإجرامية معتبرة أقل أعضاء المجتمع تميزاً لأنهم لا سلطة لهم.

"لا ينبغى أن نتفاجئ عندما نجد الزنوج والناس من الطبقة العاملة ممثلين بطريقة زائدة فى الإحصائيات الرسمية للجريمة، حيث أنه من المرجح أنهم وسلوكهم يتطابقان مع إدراك وكالات فرض القانون للمجرمين، والجريمة كما أنهم

من غير المحتمل أن يكونوا قادرين على تحريك الموارد المادية والاجتماعية الضرورية لإقناع الأخرين أنهم ليسوا كذلك.

بالطبع بمجرد أن يتلقى من لا سلطة لهم تسميتهم، ستحدث النبؤة المنجزة بذاتها، والتى أشرنا إليها، التطبيق الناجح للقالب سوف يعنى أن فاعليته مؤكدة بالنسبة لمستخدميه. وأنه يمكن إستخدامه مع مزيد من الإدانة فى المستقبل، وهكذا تزيد عملية التسمية الإجرامية من فرص الأكثر سلطة، بهذه الطريقة تعمل عملية فرض القانون على تقوية عدم المساواه فى السلطة فى المجتمع. بالإضافة إلى ذلك، بمجرد أن يتم تطبيق القالب ولصق التسمية يعزز وجود التسمية النبؤة المنجزة بذاتها فيما يتعلق بأى عامل فردى معين، آخرون يتفاعلون مع التسمية بطريقة تجعل النشاط "العادى" المستقبلى صعب جداً بسبب الإدانة قد ينبذ آخرون الشخص المسمى أو يعاملونه أو يعاملونها بشك. كما تصبح الفرص الوظيفية غير متاحة وهكذا، وصمة العار الناتجة عن التصنيف كمجرم تغطى كل الصفات الأخرى فتصبح شئ ما يفترض أن فعله شخص ما هو كينونته، بسبب ردود أفعال الأخرين لوصمة عار التسمية، يجبر الشخص المسمى- سواء كان مذنب أو برئ فى الحقيقة- طبقاً لنظرية التسمية- على إتباع "مهنة" المجرم ببساطة لأن كل الخيارات الطبيعية الأخرى مغلقة.

من الواضح أن هذه العملية الخاصة بالإجبار على مهنة منحرفة عن طريق ردود أفعال الأخرين - والمعروفة بإسم "تضخيم الإنحراف" **Deviance Amplification** ليست إشكالية للذات بطريقة فورية مثل سوء تفسير المرض العقلى مثلاً، ففى النهاية عادة يعرف الإنسان إذا ما كان مذنباً بجريمة أم لا. على الرغم من ذلك الأمر يمكن أن يعنى أن الصورة الذاتيه للشخص المسمى تكون خطير التغيير، خاصة إذا كانت فرص الوجود الطبيعى محدودة بشكل كاف، ولأنه لا خيار لهم، فإن الأشخاص المسمين يصبحون يرون أنفسهم، مثل الأشخاص الذين أصبحوا مجبرين على أن يكونوا مثله.

ولهذا فإنه فى مجال كالجريمة تلتقى الإفتراضات البنائية والواقعية، لأصحاب النظريات البنائية- فى سعيهم نحو المحددات الخارجية لأى نشاط إجتماعى يقع فى البناء الاجتماعى- يبحثون عن الأسباب التى من أجلها- كما تبين إحصائيات الإدانة- تقدم أنواع معينة من الناس على إرتكاب الأفعال الإجرامية فى حين أن البعض الأخر لا يفعل ذلك، مسلحين بإحصائيات الإدانة- التى تظهر فئات الذكور من الحضر من

الطبقة العاملة أكثر من الطبقات الأخرى- يحاول هؤلاء الذين يعطون تفسيرات بنائية للجريمة أن يتعرفوا على الأسباب التى تجبر شخص فى هذا النوع من الموقع البنائى أن يرتكب جريمة أكثر من أنواع الأشخاص الأخرين.

واحدة من أشهر تفسيرات تلك الظاهرة تعرف بالنظرية الثقافية الفرعية **Sub-Cultural Theory**[3]، وهنا تفسر الجريمة علي أنها نتاج التأثيرات الثقافية أو المعيارية، فالذكر الصغير القادم من الطبقة العاملة بدرجة اكثر من أي نوع اخر من الاشخاص، يجد نفسه في وضع ثقافي حيث النشاط الاجرامي شيء طبيعي وحيث الخضوع لهذه المعايير عن طريق العوامل الاجتماعية يؤدي الي خرق القانون، هكذا تكون المهمة الاجتماعية هي تحديد هذه الخصائص الثقافية التي تقوي الجريمة في هذا النوع من العالم الاجتماعي وليس في نوع اخر.

هكذا – كما هو الحال في كل التفسيرات البنائية – يكون التركيز علي تحديد جذور القوي الاجتماعية الخارجية التي يظهر وجودها في سلوك الافراد، وعلي العكس من ذلك اسلوب نظرية التسمية في معالجة الجريمة تبرز عكس أفتراضات نظرية الفعل عن السلوك الاجتماعي. مسلحين بأدلتهم – أن الجريمة اكثر إنتشاراً في كل الجماعات الاجتماعية أكثر مما توضح معدلات الادانة، حيث يهتم اصحاب نظرية التسمية ليس بالسبب الذي يرتكب من أجله الذكور الصغار من الطبقة العاملة للجرائم بطريقة اكثر من غيرهم من الناس، ولكن السبب الذي يصبحون من أجله اكثر احتمالية للتسمية كمجرمين اكثر من غيرهم، وهكذا يتعلق السؤال الهام هنا بأسباب تفسير سلوكهم كسلوك اجرامي في حين أن سلوك الآخرين ليس كذلك، ويركز منظور التسمية علي البناء الاجتماعي لحقيقة الجريمة بواسطة اعضاء المجتمع انفسهم اكثر من تركيزة علي التأثير المحدد للسلوك الخاص بحقيقة بنائية خارج هؤلاء الاعضاء. علي الرغم من ذلك تبين دراسة الجريمة ايضاً، فإن التأكيدات البنائية والخاصة بالتفاعلية الرمزية **S.I.** لا تستبعد

3 فنظرية الثقافة الفرعية كسبب مباشر فى ظهور الإنحراف والجريمة على أساس أن لهذه الثقافات قواعد للسلوك قد تختلف عن وحتى تتعارض مع تلك التى تؤمن بها وتتبعها غالبية أفراد المجتمع ممن ينتمون إلى الثقافة السائدة ومن العلماء الذين أشاروا إلى ذلك بيرس كوهن و شورت بمسمى الثقافة الفرعية الجانحة. المترجم
إنظر مصطفى عبد المجيد كاره، مقدمة فى الإنحراف الاجتماعى، معهد الأنماء العربى، بيروت، ١٩٨٥، ص٢٦٧

أحدها وجود الأخرى كما يظهر فى البداية والسبب هو أن SI لا تتضمن طريقة نظرية الفعل للحياة الإجتماعية بطريقة كاملة، ويمكننا أن نرى ذلك فى جانبين من جوانب تفسيرها للجريمة:-

اولاً: تشير فكرة القوالب فى تطبيق التسميات الإجرامية إلى الأفكار العامة التى يعتقدها هؤلاء الذين تكون وظيفتهم هى فرض القانون، حيث أن هذه الأفكار العامة سيتم – مثلاً – مواجهتها وأعتناقها وبالتالى ستستمر بواسطة أعضاء جدد، يكون هذا الأمر أكثر قرباً بوضوح من وجهة النظر البنائية الإجتماعية إلى تعريفات معيارية موجودة مسبقاً أكثر مما تسمح به نظرية الفعل الخالصة.

ثانيا: الفكرة القائلة بأن الجماعات ذات السلطة تؤثر على كلا من بناء القوانين والقوالب المعتادة للمجرم تكون قريبة إلى حد ما من المنظور البنائى التقليدى، لكى تحدث هذه العملية لابد لجماعات معينة أن تمتلك السلطة لممارسة التأثير، ولابد للأخرين أن يفتقدوا مصادر المقاومة، هذه الرؤية للحياة الإجتماعية على إنها متأثرة تأثيراً حاسماً بالتوزيع غير المتساوى للإمتيازات بين الجماعات هى بالطبع وجهة نظر تقليدية تتصارع مع البنائية.

والسبب الواضح لهذا التناقض هو أن النظريات الإجتماعية، خاصة حينما يتم إستخدامها لتفسير مجال معين من الحياة الإجتماعية، ليست بنائية بطريقة كاملة ولا تفسيرية بطريقة كاملة، فالتفاعلية الرمزية SI هى نسخة معتدلة إلى حد مقبول من نظرية الفعل وهى أثناء تأكيدها على أولوية التفسير فى البناء الإجتماعى للواقع – لا تنكر وجود مجموعة من التعريفات المتعارف عليها – ثقافة عامة، إذا ما كانت تفضل ذلك المصطلح – ومنها يختار الناس تفسيراتهم، بالإضافة إلى ذلك حقيقة أنها تصر على التعرف على وجود نوع من بناء السلطة والأفضلية التى تحدث فيها تسمية المنحرفين توضح أيضاً أنها لا يمكن إعتبارها متبنية لموقف متكامل معاد للبنائية.

بهذا المعنى تحتل التفاعلية الرمزية المنزلة الوسطى بين النظريات البنائية الخالصة ونظرية الفعل الخالصة، فى الواقع كما ستكتشف معظم النظريات الاجتماعية تقع فى مكان ما بين هاذين الطريقين فهى لا تركز حصرياً على المحددات الخارجية أو على التفسير فقط ولكنها تؤكد على واحد أكثر من الأخر، على الرغم من ذلك تقع المنهجية الشعبية بكل تأكيد فى الطرف التفسيرى.

٦- المنهجية الشعبية

(الإثنوميثودولوجيا) [4] Ethnomethdology

إن المنهجية الشعبية تدفع حالة نظرية الفعل- أن الحقيقة الاجتماعية يخلقها الفاعلون Actors- إلى أقصى حد، وهى تعتمد على ثلاث إفتراضات وهى:-

أ- أن الحياة الاجتماعية محفوفة بالمخاطر فى الأساس، فأى شئ يمكن أن يحدث فى التفاعل الاجتماعى.

ب- على الرغم من ذلك لا يدرك الفاعلون ذلك أبداً.

ج- لأنهم يمتلكون القدرات العملية اللازمة لجعل العالم يبدو كمكان مرتب أو منظم.

يختلف إهتمام المنهجية الشعبية الأساسى إلى حد ما عن إهتمامات إصحاب نظرية الفعل فبدلاً من الإهتمام بنتيجة التفسير بصورة رئيسية- خلق صورة عن الذات أو النتائج المترتبة على التسمية على سبيل المثال- فهى تركز على كيفيه الوصول إلى التفسير، المنهجية الشعبية تعنى حرفياً "طرق الناس" والهدف هو الكشف عن الطرق التى يستخدمها الأعضاء (المشتركين) فى أى موقف إجتماعى معين ليوصلوا إلى بعضهم البعض ما يعتقدون أنه يحدث- ماذا يعنى الموقف لهم- والجهود التى يبذلها كل واحد منهم لكى يحصل على توثيق التفسير من الآخرين- لا تهتم المنهجية الشعبية بالعالم الاجتماعى بوجه عام بل بأجزاء معينة من التفاعل بين أعضاؤه حيث أن التركيز منصباً على الكيفيه التى يكون بها النظام فى موقف إجتماعى هو إنجاز المشاركين فيه.

---

4 تأسست المنهجية الشعبية فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات على يد عالم الاجتماع هارولد جارفينكل، ويعنى هذا المدخل بالطرق التى يستخدمها الناس تحديداً لإبتداع المعنى والنظام فى الحياة الاجتماعية، ويرى جارفينكل أن المنهج الأساسى الذى يستخدمه الفاعلون الاجتماعيون لإبتداع المعنى هو الإستنتاج الفطرى، كما ذهب إلى أن الإتصال والإستنتاج المشترك بين الأشخاص يمكن أن يؤدى إلى تفسيرات مشتركة للخبرات، أى أن الناس يتوصلون إلى فهم مشترك للأشياء وبالتالى كما يرى جارفينكل أن النظام الاجتماعى يتأسس ويعاد تأسيسه من خلال قيام الفاعلين بالإستنتاج والإتصال. إنظر: مصطفى خلف عبد الجواد، قراءات معاصرة فى نظرية علم الاجتماع (مترجم)، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الأداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢، ص٦١

هذا الإهتمام بوصف القدرات العملية للأعضاء مشتقة من نظرية عن الواقع يطلق عليها الظاهراتيه Phenomenology[5] وتؤكد الظاهراتيه على أن الأشياء والأحداث ليس لها معنى فى حد ذاتها حيث أنها تعنى فقط أياً ما يراها الناس أنها تعنى، كما أنها تؤكد أنه حتى يعيش أفراد مثل هذا العالم المخلوق من أجل هدف مع بعضهم لابد أن يتشاركون فى المعانى، ولابد أن يتفق الأفراد حول ماهية الأشياء حيث أن التنظيم الاجتماعى يعتمد على المعانى المشتركة فالأعضاء يتشاركون فعلاً فى المعانى وهذا بسبب الطريقة التى يفسرون بها الواقع فهم يفعلون ذلك عن طريق إستخدام المعرفة المعتمدة على الفطرة السليمة أو الإستنتاج المعرفى الفطرى **Common sense knowledge** وهذا يتجسد فى اللغة، فمن خلال اللغة نكتسب قدراً هائلاً من المعرفة عن العالم،معرفة نستطيع أن نأخذها كأمر مسلم به والتى يمتلكها آخرون ممن يتكلمون لغاتنا أيضاً. فلقد جربنا حقيقة عدد ضئيل جداً من الأشياء التى نعرفها، وباقى المعرفة - التى يتم المشاركة فيها مع الأعضاء الآخرون- هو إدراك عام لنا جميعاً، وبكلمات مؤسس الظاهرتيه فى علم الاجتماع ألفريد شوتز **Schutz** (١٩٦٧).

لو وضعنا خطاب فى صندوق البريد، فنحن نفترض أن هناك أشخاص مجهولين يطلق عليهم سعاة البريد سوف يؤدون سلسة من المعالجات غير معروفة وغير ملحوظة لنا، وتكون نتيجتها أن المرسل له الذى من المحتمل أن يكون غير معروف لنا أيضاً سوف يتلقى الرسالة ويتفاعل معها بطريقة قد تخفى عن ملاحظاتنا الحسية، ونتيجة لذلك أننا نتلقى المكتوب الذى طلبناه.

5 والظاهرتيه أو الفينومينولوجيا هي دراسة الأشكال المختلفة للوعى، وتنوعاته والطرق التى بها يعي الناس العالم الذى يعيشوا فيه، ويعتبر أدموند هوسيرل هو أكثر المفكرين إرتباطاً بالظاهراتيه، والذى أكد على أن المدخل الظاهراتى ليس بإمكانه الكشف عن بنيه الجهاز المفهومى لدينا فحسب ولكنه يكشف أيضاً عن الطرق التى نمارس من خلالها وجودنا كبشر بصورة تختلف مع الكائنات الطبيعية الآخرى، وتشكل عقيدة القصد Intentionality ملمحاً مركزياً فى الظاهراتيه حيث أن ماهية الموضوع إنما تتشكل بواسطة نوعية القصد المعين الذى يعالج من خلاله الموضوع. إنظر: ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل الهوارى وسعد مصلوح، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٩٤، ص٥٣١.

لأن الأعضاء يمكن أن يأخذوا هذه المعرفة المشتركة حول الحقيقة كأمر مسلم به، فإنه يمكن أن يأخذوا الحقيقة التى تصفها المعرفة كأمر مسلم به أيضاً، حيث يمكن أن يفترضوا أن العالم مكان معطى وموضوعى لابد أن يكون كذلك، فبالرغم من كل شئ نحن جميعاً نعرف ماهيته وماذا يحدث فيه، هذا المفهوم الخاص بالمعرفة المشتركة والمعتمدة على الفطرة السليمة ربما يبدو شبيهاً بمفهوم الإتفاق الجماعى**The consensus** لدى منظرى فكرة الثقافة، ولكن الثقافة **Culture** تشير إلى مجموعة من القواعد التى يطيعها الفاعلون ونتيجة لذلك ينتج النظام الاجتماعى، وبالنسبة لأنصار المنهجية الشعبية تستخدم المعرفة المعتمدة على الفطرة السليمة بواسطة الأعضاء لخلق نظام فى موقف معين الذى يمكن إفتقاره فى حالة أو ظرف غير ذلك، ويعرف أصحاب المنهجية الشعبية مهمتهم على أنها توضيح كيف يفعل الأعضاء ذلك.

وبالتسلح بالمعرفة الفطرية والإيمان الواثق بصفة العالم الواقعية والمنظمة يمكن للأعضاء أن يتقدموا ويتفهموا أى موقف يشتركون فيه، وتؤكد المنهجية الشعبية أن كل موقف إجتماعى هو موقف متفرد فالكلمات التى ينطقها الناس والأفعال التى يفعلونها ذات دلالة بمعنى أنها يكون لها معنى فقط فى الموقف المعين الذى تستخدم فيه، ولكنهم يؤكدون كذلك أن الأعضاء عن طريق مشاركتهم بطريقة غير معتمدة فى تحديد النظام والحقيقة الموضوعية، يرون الأشياء بطريقة مختلفة، فهم يتعرفون على الأشياء المتشابهة بين حدث ما وغيره من الأحداث ويختارون من كل الأشياء التى تحدث حولهم الدليل الذى يؤيد وجهه النظر القائلة بأن الأشياء التى توجد أو التى تحدث هى نماذج عن العالم. فبالنسبة لهم الموقف الاجتماعى قد يكون محاضرة**Lecture** أو رقصة**Dance** أو إجتماع **Meeting**، فإنه يفرض عليها نموذج من خلال تطبيق المعرفة الفطرية، وعن طريق المعرفة الفطرية أيضاً يتم ملأ الفجوات الموجودة فى تفسيرات الأحداث بواسطة الآخرين عن طريق الأعضاء، حتى يطمئنوا أنفسهم أن الأشياء هى كما تبدو.

هذه هى الكيفية التى يصف أندرسون **R.J. Anderson** (١٩٧٩) تحليل هارفى ساكس**Harvey Sacks** الشهير لقصة طفل عمره عامان:- بكى الطفل، حملته أمه، ويقدم ساكس الملاحظات التالية حول هذه القصة:-

١) هو يسمع الأم على أنها أم الطفل.

٢) أى مستمع آخر عندما يسمع لأول مرة يسمع ذلك أيضاً، يمكن تعديل هذا السماع طوال الوقت، ولكن هذا هو السماع الأول.

٣) هناك علاقة بين الأفعال التى تم وصفها، لقد حملت الأم الطفل لأنه كان يبكى.

٤) يمكننا جميعاً أن نتوصل لهذه النتائج بدون معرفة خاصة بالأم أو الطفل محل الحوار ولا بالطفل الذى قص القصة.

إن مغزى الملاحظة الأخيرة هائل لأنه إذا كان الأمر، أن المستخدمين الأكفاء للغة الإنجليزية قادرين على الوصول لنفس الأشياء من نفس الجزء من الحوار، إذا لابد أن تكون الطرق المستخدمة لفعل ذلك على درجة عالية من العمومية، لابد أن يكونوا جزءً من أسس ثقافتنا العامة.وهكذا وبدون أن يدركوا ذلك، يخلق الأعضاء المعنى الذى تشير إليه الأحداث حيث يعملون على جعلهم يعنوا شيئاً ما، وعند وصولهم إلى تفسير يعملون وقتها على تأكيده عن طريق تأييد المشاركين الأخرين، فالمنهجية الشعبية لمؤسسها هارولد جارفنكيل كان سعيداً لإظهار كيف يتعرف الأعضاء على المعنى فى المواقف حتى حينما يفتقد تأييد الآخرين، هذه هى الكيفية التى يصف بها بول فيلمر**Paul Filmer** (١٩٧٢) تجربة شهيرة جداً لجارفينكيل مصممة لتوضيح المدى الذى سيذهب إليه الأعضاء لخلق المعنى وإكتشاف المغزى فى موقف ما على الرغم من المحاولات المتعمدة لإحباطهم.

فلقد تم توجية أسئلة إلى عشرة طلاب للمشاركة فى البحث الذى يقوم به قسم الطب النفسي بالجامعة لإستكشاف وسائل بديلة للعلاج النفسى، فقد تم سؤال كل واحد منهم أن يناقش خلفيته عن مشكلة خطيرة أراد نصيحة بشأنها، تم توجية بعض الأسئلة لممتحن (الذى تم تقديمه بطريقة زائفة للطالب على أنه مستشار طالب متدرب) – وحول هذا الأمر إكتب الإجابة المناسبة من كلمة واحدة " نعم" أو "لا" وتم فصل الطالب والمستشار فى المكان وتوصيلهم بواسطة راديو ذو إتجاهين،بعد إعطاء إجابات كل سؤال من أسئلته، ثم طلب من الطالب أن يسجل تعليقاته حول ذلك بعد سماع المستشار عن طريق الراديو، ثم إخبار الطلاب أنه من المعتاد طرح عشرة أسئلة كما تم جعلهم يعتقدون بالطبع أنه سيتم إعطاؤهم إجابات صادقة علي هذه الاسئلة، علي الرغم من ذلك تم إعطاء المستشار قائمة بالإجابات ذات المقطع الواحد مقسمة بالتساوي بين (نعم) أو (لا) ولكن تم تحديد ترتيبهم سلفاً فى جدول به أرقام عشوائية، وفي هذه التجربة تم تحديد متغيرات حاسمة معينة خاصة للتفاعل

اليومي للمواقف، تم تعليل اللغة المشتركة بين الطالب والمستشار الي البعد الشفهي المنطوق (في كل الاحتمالات فإن طبقة الصوت ستكون غير مهمة كعامل محدد للمعني بسبب تشوية الاصوات المنطوقة عن طريق الراديو) ولم يكن هناك فرصة للتلميحات والتعبيرات الجسدية المتخللة في عملية الاتصال بسبب الفصل المكاني بين الطالب والمستشار. كما إعتمدت احتمالات أن تكون إجابات المستشار ذات معني للطالب إعتماداً كاملاً علي تفسيراتهم للإجابات حقاً، وتم تقليل احتمالية أن تكون الاجابات – حتي الاسئلة المتوقعة من الطلاب – الي محض الصدفة، وقد نشر جارفينكل نسختين غير منقحتين من الحوارات المتبادلة ومن تعليقات الطلاب عنها (أنظر جارفينكل ١٩٦٧).

بالاضافة الي شرح مفصل لنتائجة التفسيرية، ولا شك أن ثقل هذه النتائج يبدوا في الجزء الذي تبدوا فيه الاجابات العشوائية لأسئلة الطلاب التي تم التفكير فيها وصياغتها جيداً غير ذات معني أو غير منطقية أو بأي طريقة أخري غير مناسبة أو غير متوقعة، وقتها أعاد الطلاب تفسيراتهم عن طريق إعادة صياغة ما افترض أنه سياق المعني الذي أعتبره مشترك مع المستشار (والذى حاول أن يوصله الي المستشار عن طريق الصياغة ومحتوي الاسئلة) وذلك حتي تكون إجابات المستشار ذات معني، وحتي في الاجزاء التي ولدت فيها مجموعة متلاحقة من الإجابات واضحة التناقض والشك في نفس الطالب، فبدا أنه يتم خداعة، وبما أنه متخاذل في متابعة فرضيته أنه يتم خداعة.

إذاً يوجد هنا نوع مختلف من الاجتماع عن الانواع الاخري التي كنا نبحثها، فبالنسبة لاصحاب النظرية البنائية فأهم خصائص حياة الانسان الاجتماعية هي القوي الخارجية عن الفاعل الفردي، ولكي نفهم السلوك الاجتماعي لابد أن نفهم المحددات البنائية لحياة الانسان، أما بالنسبة للتفاعليين واصحاب نظرية التسمية يأتي الفاعل في المقدمة سواء كان الشخص متحكماً في تفسيرات الآخرين أو كان متلقي سلبي لتسمياتهم يكون التركيز علي المقدرة علي التفاعل ذو المعني، ولكي نفهم الفعل الاجتماعي لابد أن نفهم عمليات التفسير التي تؤدي اليها.

أما بالنسبة لاصحاب المنهجية الشعبية فإن الاهتمام يكون مختلف فهم ينتقدون الاتجاهات الاجتماعية الآخري لأنها تأخذ ما يعتقدون أنه أساس الحياة الاجتماعية حقاً (أو فعلا) كأمر مسلم به، حيث تهتم المنهجية الشعبية بوصف الطرق والاساليب التي يستخدمها أعضاء المجتمع للوصول الي فهمهم الخاص

للمواقف الاجتماعية[6] وليس للفهم في حد ذاته، كما أنها تهتم بممارسة فهم معني العالم، في الكيفية التي يحقق بها الاعضاء الحياة الاجتماعية، علي الرغم من أن الأعضاء هم مخططي النظام الاجتماعي وعلي هذا تسعي المنهجية الشعبية لمعرفة ليس ما يبنيه الأعضاء، ولكن بكيف يتم بناؤه.

6 هذا ولا يرى علماء الاثنوميثودولوجيا إلا إختلافاً بسيطاً بين علم الاجتماع فى بحوثهم وتلك المناهج التى يستخدمها الاعضاء فى حياتهم اليومية، ويقدم الاعضاء الذين يستخدمون المنهج التوثيقى بإستمرار أفكارهم النظرية ويستنتجون العلاقات بين أوجه النشاط ويعملون على جعل العالم الاجتماعى منظماً ومتسقاً،وهم الذين يعالجون العالم الاجتماعى كما لو كان له واقعه الموضوعى المنفصل عن ذاتهم، ويدعى علماء الاثنوميثودولوجيا إن الاجراءات التى يستخدمها علماء الاجتماع التقليديون مشابهة فى جوهرها لمناهج رجل الشارع، لأنهم يستخدمون المنهج التوثيقى ويستنتجون العلاقات ويرسمون صورة لنسق إجتماعى منسق ومنظم، وبواسطة إجراءات الوصف يقوم الاعضاء بتصور أو رسم صورة للمجتمع وبهذا المعنى يعتبر رجل الشارع هو عالم الاجتماع نفسه، ولا يرون إختلافاً بين صورة المجتمع التى يقدمها رجل الشارع وبين تلك الصورة التى يمدنا بها علماء الاجتماع التقليديون، المترجم

أنظر على جلبى: الاتجاهات الأساسية فى نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص٣٠٢

الفصل السابع

اللغة والحياة الاجتماعية

البنيوية، وما بعد البنيوية،
النسبية وما بعد الحداثة

مدخل

تلعب اللغة دوراً محورياً فى نظرية الفعل؛ ومن منطلق وجهة النظر هذه فهى إلى حد بعيد أكثر الوسائل تطوراً والتى بها يمكننا توصيل ما نعنى لبعضنا البعض، وبالتالى نبنى ما يسمى بالنظام الاجتماعى. إن التركيز على الاستخدام الخلاق للغة من قبل البشر يصل إلى أقصاه مع الإثنوميثودولوجيا؛ فهنا تصبح طبيعة اللغة البشرية نفسها موضوع البحث الاجتماعي. وعلى هذا فإن آليات " كيفية" استخدامها من قبل البشر لكشف محتويات عقول كل منا هى محور اهتمام أكثر أداة بحثية إثنوميثودولوجية شهرة – المعروفة بتحليل الخطاب أو تحليل الحوار. والقضية فى ذلك هى بما أن التخاطب يمثل الوسائل الرمزية الاساسية والتى يبنى بها الاعضاء النظام فى المواقف الاجتماعية، فإن "كيف" يحدث هذا لابد أن يكون مفهوماً من قبل أى علم اجتماع معنى بأساليب الاعضاء.

وتعكس اللغة القدرة على استخدامها لدى منظرى نظرية الفعل بوصفها السمة المميزة للحياة البشرية؛ فهى توضح امتلاكنا للوعى وقدرتنا على التفسير وربط المعنى بالعالم المحيط بنا. ولكن علي الرغم من ذلك يوجد نهاية غير متوقعة، فمن المفارقات ان الاهتمام باللغة هو أيضاً فى مدرسة التنظير الاجتماعى والتى هدفها المكرس هو القضاء على افتراضات نظرية الفعل بشأن البشر والحياة البشرية والاجتماعية.

إن هدف البنيوية وما بعد البنيوية هوإحداث "وفاة للموضوع" (علي الرغم من أن هذا العمل يُعطي في بعض الأحيان وصف أقل دموية عندما يصبح الهدف المعلن هو تهميش الموضوع). إنها تهدف إلي الأشاره إلي أسباب لماذا يجب علينا تجاهل مفهوم نظريه الفعل عن الفاعل/الوكيل/العضو/ الموضوع كمصدر للمعني ومصمم لحقيقة اجتماعية خلقها الوعي. ويعد هذا صحيحاً أيضًاسواء ضمنيا أو علي نحو بائن، بالنسبه للأشكال الأخري للنظريه البنيوية، مثل مذهب الوظيفية **Functionalism** والماركسية الألتاسورية **Althusserian Marxism**. ومع ذلك، فإن الأعتراضات من وجهات النظر هذه تكمن في تمثيلها للمجتمعات علي أنها هياكل إجتماعية، أو انظمه تكونت من المؤسسات الاجتماعية. وتنشأ اعتراضات البنيويه وما بعد البنيويه في مكان أخر. ففي الواقع، فأنهم يسلبون التعبير من نظرية الفعل وبعد ذلك يحاولوا أن يضيقوا الخناق عليها بأساليبها الأساسية الخاصة بها.

وتتفق هذه القوانين علي أن اللغة ذات أهمية حيوية للحياة البشرية الأجتماعية، ولكن ليس للأسباب التي تدعيها نظرية الفعل؛ والمفارقة هي أن اللغة –

نفس الأداة التي تستخدمها ضحيتهم المنشودة للأشاره إلي أنتصار عقل الموضوع البشري والوعي في الحياة الأجتماعية- هي نفس الأداه التي يستخدمها المتخصصون في البنيوية وما بعد البنيوية محاولين قتل وإخفاء مثل هذه الإدعاءات.

اللغة في الحياة الاجتماعية Language In Social Life

إن نقطة الأنطلاق لفهم البنيوية وما بعد البنيوية هو النقد القاسى الشهير للفيلسوف لودفيج فيتجينشتاين **Ludwig Wittgenstein** ضد إمكانية وجود لغة "خاصة". وكما يقول دويل و هاريس **(Doyal and Harris)**(١٩٨٦)، تابعين لفيتجينشتاين، فإنه "إذا لم تعني الكلمات ما نعنيه بالفعل، فإنها إذا لا يمكن استخدامها للتعبير عما نريد أن نقول".

وعلاوة علي ذلك، وبما أن الفكر يعتمد علي اللغات التي تسبقنا في الوجود – لا يمكن أن تراودك فكر أو مفهوم إلا أذا علمت ماذا تطلق عليها – فإن الأفكار نفسها إجتماعية في الأصل. وعلي هذا، فإنه تبعاً لفيتجينشتاين (١٩٧٣) " فإنك تتعلم مفهوم " الألم" عندما تتعلم اللغة".

وبالمثل، رداً على سؤال عن كيفية معرفة أن اللون كان أحمراً، أجاب فيتجينشتاين (١٩٧٣) "يمكن أن تكون الاجابة بالقول بأننى قد تعلمت الانجليزية". كما يوضح دويل وهارى (١٩٨٠): "فإنك لابد وان تتعلم من الآخرين اللغة التى تستخدمها لوصف حتى أكثر مشاعرك حميمية وخصوصية؛ وبالتالى فإن حتى الطريقة التى تصف بها نفسك لنفسك لا يمكن أن تحدث إلا من خلال إستخدام كلمات متاحة للعامة، وقد تعلمتها بنفسك."

فمن الواضح إذا أننا يجب أن نميز، كما فعل عالم اللغويات سوسير **Saussure**، بين الخطاب- ما يقوله أفراد معينين لبعضهم البعض – واللغة والنظام الاجتماعي العام للغلامات، والرموز والمرجعيات التي على المتحدثين أن يستخدموها للتفكير والتحدث. فنظام اللغة موجود بشكل مستقل عن دارسيها ومستخدميها، وإنهم مضطرون لإستخدام المعانى المشار إليها بواسطة الرموز المكونة لها للتفكير فى أنفسهم لتبادل الافكار مع الآخرين على حد سواء.

لو كل هذا هكذا، فإن أهمية التفكير والوعى الفردى إذاً- شيء جذرى جداً بالنسبة لعلم اجتماع الفعل – تكون الادنى؛ فاللغة تحدد هذه الافكار. وإنها "اللغة" التى يتوجب علينا تفسيرها. ولقد وضع روجر تريج **Roger Trigg** (١٩٨٥) هذا النقاش على النحو التالى:

"إن طبيعة اللغة والثقافة، المبنية بالانظمة، لا يمكن إكتشافها على مستوى الموضوع... ويمثل هذا النوع من البنية تهديداً لاى فكرة تقول بأن الانسان هو محور الكون. فإن تصنيفات الفكر البشرى نفسها معطاه لنا... ونحن لا يمكن فهمنا بعد الآن على أننا مواطنين يفكرون فى عالم موجود مستقل ويبتكرون لغة لوصف هذا العالم. إننا لسنا مصدر اللغة أو الثقافة. فكوننا بشر يتضمن العيش فى عالم قد سبق تحديده بالفعل...".

وعلى هذا فإن اللغة، بالنسبة للبنيويين **Structuralists** وما بعد البنيويين **Post-Structuralists** تحتل نفس المكانة كالهياكل المؤسسية عند الماركسيين و أصحاب المذهب الوظيفي.

ومثلما، بالنسبة لهذه النظريات، أن الهياكل المؤسسية تمارس قيوداً عن طريق إخضاع أنواع معينة من المعتقد و السلوك، لذا، فإنه بالنسبة للبنيوية وما بعد البنيوية، فإن طرق التفكير والتحدث التى نحن مضطرون لإستخدامها تمارس نفس الإكراه علينا. وفى الواقع، فإن طريقة معرفتنا عن العالم مقدمة في اللغات السابقة لنا فى الوجود والتى نتعلمها.

إن سبب إستخدام مصطلح "البنيوية" هو للإشارة إلى أفكار عن اللغة إلا أن دورها فى الحياة الاجتماعية واضح؛ كما هو الحال مع المذهب الوظيفى، والماركسية الألتاسورية، فإن الفرد الفاعل، الوكيل أو الموضوع يكون ليس ذى صفة. إن أصل الحياة الاجتماعية يكمن فى التأثيرات البنائية وراء الفاعل؛ ولكن هنا فإنها نظام لغة، وليس نظام إجتماعى خاص بالمؤسسات العاملة، وهذا خاصة ما يجب أن نفهمه ونوضحه. وعلى هذا، فإن الحياة الاجتماعية لا تعتمد فقط على اللغة ولكن اللغة "تعرف" الحقيقة الاجتماعية لنا. وبما أن اللغة تخلق العالم لأنه تم ممارستها من قبل الفاعلين، فإنه من هنا تنشأ مشكلتين واضحتين. أولاً، من أين تأتى اللغة؟ وثانياً هل هذا يعنى أن متحدثين اللغات المختلفة يسكنون عوالم مختلفة؟

ولدينا امثلة عن نوعين مختلفين من الإجابات عن هذه الأسئلة فى أعمال رجلين فرنسيين هما كلود ليفي ستروس **Claude Levi-Strauss** (ولد عام ١٩٠٨)، عالم الأنثروبولوجيا والقيادى البنيوى، وميشيل فوكو **Michel Foucault** (١٩٢٦-١٩٨٤) أكثر المتخصصين فيما بعد البنيوية شهرة،على الرغم من أن ليفي ستروس ما زال حياً وأن فوكو قد توفى، فإن، على الرغم من ذلك، إجابات ليفي ستروس قد ظهرت أولاً، مثلما يوحى الأسم، فإن إجابات فوكو المتخصص فيما بعد البنيوية قد بنيت على هذا الإفتراض، وقدمت وصفاً مختلفاً.

ليڤي ستروس و البنيوية [1]
Levi-Strauss and Structuralism

لقد جادل ليڤي ستروس، مثل زميله الفرنسى وسلفه، إميل دوركايم **Emile Durkheim** أن بناء حياة إجتماعية هو كيان مستقل يقيد سلوك

1 البنيوية هي نمط من التحليل ظهر لأول مرة في مجال اللسانيات فيما بين عامي ١٩٠٠ - ١٩٢٠م ومنذ نهاية الستينيات بدأت البنيوية تكتسب مكانة بارزة في عدد من المجالات بالعلوم الاجتماعية والإنسانية خاصته في فرنسا. ولقد ارتبطت البنيوية بالعالم الأنثربولوجى ليڤي ستروس (Levi-Strauss) ولقد اعتمد ستروس على مفهوم الإشارة أو الرمز عند سوسير، لكنه انطلق من موضوع جوهري يمثل محور كل أعماله ويتعلق هذا الموضوع بالعلاقة بين الطبيعة والثقافة، إذ نظر إلى هذه العلاقة على أنها تؤلف جوهر البحث البنيوى، فقد نظر غلى الثقافة على أنها نسق من الإشارات والرموز ذات الدلالة والمعاني المستترة التي لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال المنهج البنيوى، وإن الوصول إلى تلك المعاني هو الهدف الذي يسعى ليه الباحث البنيوى، وان المعنى المستتر في الأنساق النظرية مثل الأساطير يمكن فهمه من خلال العلاقات القائمة بين الرموز والموضوعات التي تأخذ شكل التقابل الرمزي أو التقابل الثنائي Binary Opposition وطبقاً لهذه الخاصية فإن العقل يعمل من خلال العلاقات القائمة بين الرموز ذات الدلالة المشخصة Concrete مثل الشمس/القمر، والرجل/والمرأة، الذكر/الأنثى، الجاف/المبلل، النار/والماء وغير ذلك، ويربط ليڤي ستروس هذه المقابلات الثنائية (المشخصة والمجردة) بصورة سببية بالعمليات اللاسقورية العامة من التفكير والتي يتبعها العقل ويعتمد عليها، وأن طبيعة النشاط العقلي هي التي تجعل البشر يفكرون في التجربة بواسطة المقابلات (الأضداد) الثنائية الرمزية هذه، ومن ثم فإنه يرى أن العمليات المنطقية في كلٍ من التفكير الأسطوري والتفكير العلمي هي نفس العمليات لكن الاختلاف يكمن في مضمون التفكير ومدى الاعتماد على رموز مشخصة أو تصورات مجردة.

- أنظر كلٍ من: السيد حافظ الأسود، الأنثربولوجيا الرمزية (دراسة نقدية مقارنة للإتجاهات الحديثة فى فهم الثقافة وتأويلها، منشأة المعارف، الأكندرية، ٢٠٠٢، ص ٨٣-٨٩. و جون ستروك، البنيوية وما بعدها من ليڤى ستروس إلى دريدا، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، فبراير ١٩٩٦، ص ٢٠.

ومعتقدات الفاعلين. ولقد إنحرف ليفي ستروس عن دوركايم فى تعريفه لهذه القيود البنائية. فابالنسبة له، فإن الملامح المميزة للوجود البشرى هى:

١- اللغة، التي يواجهها البشر عند دخولهم الحياة.

٢- وحقيقة أن البنية التحتية لكل اللغات واحدة.

ووفقاً لليفي ستروس، فإن اللغة تنشأ فى العقل البشرى اللاواعى. وبما أن العقول البشرية تعمل بنفس الطريقة، بغض النظر عن الاختلافات التى قد تظهرها اللغات، فإنهم فى الحقيقة منظمين على المبادئ نفسها. وعلاوة على ذلك، فإن الثقافة هى أيضا خلق نفس عمليات الفكر اللاواعى؟ ومن ثم، فإن السمات البنائية للتنظيم الإجتماعى تعكس حتماً تلك الخاصة باللغة. ففى الحقيقة، وفقا لليفي ستروس، فإن الفكر البشرى يهيكل عالم اللغة والسلوك (التنظيم الإجتماعى) بنفس الطريقة.

وعلى هذا فإن فوكو مهتم بالشكل، وليس بمضمون اللغة والثقافة. فالثقافة، مثل اللغة، هى نظام الاشارات والرموز والتى تعكس فى تنظيمها طريقة الفكر البشرى. ونظرة تريج (١٩٨٥) لليفي ستروس هى ما يلى:

"إنه يفسر الاساطير والرموز بهذه الطريقة، قائلاً أن "عالم الرمزية يختلف بشكل لا نهائى فى المضمون ولكنه دائماً محدود فى قوانينه"... ولقد حلل نظم القرابة بطريقة مماثلة ويعتبرهم لغات... وإنه لمهتم...بكشف الانظمة، سواء كانت قرابة أو لغة... التى تبنى من قبل العقل، كما وضعها"، على مستوى الفكر اللاواعى".

لا يوجد شئ فى الحياة الاجتماعية يعتبر خلق مبتكر للعقل الواعى أو الخيالى إذاً، فإن الكائنات البشرية ليست هى مؤلفة قصص حياتهم، لأنها قد كتبت لهم، فى اللغة والثقافة. لا شئ يمكن أن يكون أبعد من عالم فيبر **Weber**، جوفمان **Goffman**، شولتز **Schulz** و جارفنكل **Garfinkel**.

فوكو وما بعد البنيوية(٢)

Focault and Post-Structuralism

على الرغم من إتفاقهم حول التأليف اللغوى لقصص الحياة البشرية، إلا أن فوكو(٣) يتجاوز أنواع الافكار التى أنتجها ليفي ستروس بطريقتين. أولاً، أنه

2 ظهرت ما بعد البنيوية Post-Structuralism كرد فعل للانتقادات الشديدة للبنيوية ومنهجها ونظرتها الجامدة وموقفها المناوىء للتاريخ ويعتبر جاك دريدا من أكثر المفكرين ارتباطا بما بعد البنيوية وتعبيراً عنها واعتبر إسلوبه ثورياً وهو ما يطلق عليه اسم التفككية، ويعتبر هذا المفهوم من أصعب الموضوعات في كتابات وأعمال البنيوية وأكثرها غموضاً وبالتالي لم يقدم له تعريفاً واضحاً، أى أن ما بعد البنيوية لها مفاهيمها المركزية ومناهجها التحليلية التي تدور جميعها حول طبيعة اللغة والنصوص المغلقة على ذاتها. وهو يرى أن المعنى الحقيقي للنص لا يمكن الوصول إليه أو الإمساك به أكثر من مجرد وصف أو تفسير مؤقت لطبيعته النصية وعلى هذا فان دريدا يمدنا بوسيلة لا تؤدى الى هدم دعاوى الحقيقة وإنما توضح أن النصوص هي التي تتهدم أو تتفكك عندما تثور مثل هذه الدعاوى الحقيقية، كما يرى أن المنهج التفكيكي يصبح فائق القوة عند تطبيقه على النصوص الشرعية أكثر من العلوم الاجتماعية والطبيعية إلا انها نظرية تشمل شبكة معقدة من الكتابات التى تتفاعل مع بعضها البعض بأشكال من الصعب تفسيرها.

– أنظر كل من: جاك ستروك، مرجع سابق، ص ٢٠٨-٢٠٩. و جوردن مارشال، موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة محمد الجو هرى وآخرين، المجلس الأعلى للثقافة، الجزء الثالث، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٢٤٥.

3 يعتبر فوكو مر رواد ما بعد الحداثة الذين تحدثوا عن عالم خارجا، عن نظام خارج الخطاب (extra discourse) والذي يتمثل في البنية المؤسسية التي ينبثق عنها الخطاب، وتكون هي تجسيداً لذلك الخطاب، وأن الخطابات والمؤسسات مُثبتة بعلاقات القوة الكامنة فيهما واهتداءً بنيتشة فقد قلب فوكو النظرة الدارجة عن العلاقة بين القوة ولمعرفة رأساً على عقب، فلئن كنا اعتدنا على اعتبار المعرفة أداة تمنحنا القوة نفعل أشياء لم يكن باستطاعتنا القيام بها من دونها، فإن فوكو يرى أن المعرفة هي في ذاتها قوة نمارسها على الآخرين، لتحرير الآخرين، أى أن القوة ما عادت للتحرير وأصبحت أداة للاستعباد، وان الخطاب بجسد المعرفة، ولذا فهو يجسد القوة، ومن يمتلك المعرفة يمتلك القوة لتقرير انسياب المعاني وتحرير الآخرين، وعلى هذا يتكون العالم من آلاف مؤلفة من علاقات القوة، وكل قوة تخلق مقاومة، ومن ثم فإن العالم يتكون=

يرفض فكرة أن هناك سمات عالمية تدعم اللغات. ثانياً، أنه مهتم بشكل رئيسى بإستخدام السلطة المتضمنة فى إنشاء وإستخدام اللغة.

ويتبع فوكو الخط البنيوى فى وضع اللغة فى مركز الصورة ولكن "اللغات" التى هو مهتم بها ليست من النوع الذى عادة ما تشير إليها المصطلح – مثل الإنجليزية، الفرنسية والأسبانية. فإنه مهتم بإظهار كيف أن طرق محددة من التفكير والتحدث حول-.جوانب العالم هى أشكال المعرفة والتى تعمل مثل اللغات.

ولقد أطلق على مثل هذه "اللغات" – طرق التفكير، التحدث هذه- خطابات. (ويطلق على هذا النوع من النهج أحياناً نظرية الخطاب).

ويمدنا الخطاب بوسيلة لمعرفة الحقيقية؛ لأننا نستطيع فقط أن نفكر/ نتحدث فى كل شئ بإستخدام خطاب من نوع أو آخر، ويمدنا الخطاب بمعرفتنا عن العالم. وعلاوة على ذلك، وبما أننا مضطرون أن نعرف عن طريق الخطابات؛ فإنها تمارس السلطة علينا. فمن نحن- ماذا نفكر- ماذا نعرف، وعن ماذا نتحدث- ينتج عن طريق الأنواع المختلفة من الخطابات التى نقابلها ونستخدمها. إذاً، فإن "الموضوع" – الوكيل الخلاق، الذى يختار بحرية والمفسر فى مركز نظرية الفعل (وفى قلب الفلسفات مثل الوجودية) لا وجود له. وتُخلق الذاتية والهوية للأشخاص- ماذا يفكرون، ويعرفون ويتحدثون عن- عن طريق الخطابات التى بها هم متضمنون. إن اللغة الإصطلاحية لما بعد البنيوية المستخدمة لوصف هذا هى أن الفرد يتشكل أو يتحدد من خلال الخطابات. لذا فإن الخطابات- طرق التفكير، والمعرفة والتحدث- تمدنا بالطرق الوحيدة التى يمكننا بها أن نصبح أحداً على الإطلاق. فإنها تمدنا بأفكارنا ومعرفتنا و، بالتالى، يمكن القول أنها ترشدنا، أو تكون وراء- أى أفعال نختار أن نتخذها. ويلخص فوكو هذا الرابط بين الفكر، واللغة، والمعرفة والفعل بعبارة" الممارسات المنطقية" – مما يعنى أن الحياة الاجتماعية تتألف من أنشطة تنشأ عن طريق الخطابات.

إن دراسة التاريخ، بالنسبة لفوكو، تشمل العمل على كيف ولماذا أن الخطابات المختلفة أُنشئت عندما تم هذا، لإن هذا سيؤدى إلى تحقيق هدف المؤرخين- ليكشفوا لماذا فكر، قال أو فعل الناس ما فعلوه. ووفقاً لفوكو، فإن هذا

من صراعات على القوة لا حصر لها، ولعل منهج فوكو فيه تشابه لافتاً للنظر بينه وبين نظرية الصراع، إلى طبيعة الحياة الاجتماعية التي تتسم بالتقلب والتغير. "أيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، مرجع سابق، ص ٢٧٧-٢٧٨".

فى النهاية مجالاً للسلطة، أيضاً. والسؤال هنا هو: "بأى وسائل ولأى أسباب أُنشئ مثل هذا النوع من الخطاب ولماذا ساد فى هذه المرحلة من التاريخ؟ " وهذه هى، كما يرى فوكو، مهمة المؤرخين للكشف عن أسس الخطابات المختلفة. إن إستخدام الإستعارة الأثرية أو الاركيولوجية **Archaeological** ليس من قبيل الصدفة. فلقد وصف فوكو بنفسهُ هدفه فى إستخراج الدليل حول الخطابات السابقة بطريقة أثرية؛ فمشروعه بهدف حرفياً لإستكشاف ما يكمن تحت ظهور مختلف الخطابات.

ولتلخيص ذلك إذاً، فإن قضية فوكو تدور حول أن الهوية تتشكل عن طريق الخطاب. فالناس هم من هم عليه- يفكرون فيما يفكرون، يعرفون ما يعرفون، يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون- بسبب تضمنهم فى تشكيل خطابات مختلفة، وأحياناً متنافسة. ويمكن أن يتم أكتشاف الأسباب الكامنة لوجود هذه الخطابات عن طريق المؤرخ/ عالم الأثار، وإن إكتشاف هذه الأسباب هو، فى الجوهر، أكتشاف أساس نوع معين من المعرفة ونوع معين من السلطة. لأنه فوق كل شئ، وفقاً لفوكو، فإن دراسة الخطاب هو أساساً دراسة للسلطة. فوفقاً لفوكو إذاً، تمارس السلطة بطريقتين. أولاً: تمارس بترتيب من أجل أن يصل الخطاب إلى حيز الوجود. ثانياً: إنها تمارس من قبل الخطاب حيث أنه يشكل الهوية. إنها تحدد ما يفكر فيه الناس ويعرفونه، وبالتالى كيف يتصرفوا. فتبعاً لفوكو، إذاً، فإن الممارسات المنطقية هى أصل الحياة الإجتماعية؛ فإن ممارسة السلطة من خلال الخطاب موجودة فى كل مكان. إن نظرة سريعة على الأعمال التاريخية الخاصة لفوكو تُظهر أنواع العوامل التى أعتبرها هامة فى توفير الأسس اللازمة لإنشاء خطابات معينة. ولقد أصبح فوكو. شهيراً، كمؤرخ، بسبب تفسيراته لتاريخ الطب، الجنون، الجنسانية، العقاب والجسد، فى ضوء الخطابات المختلفة التى عرفت هذه الظواهر.

ويزعم فوكو أن ظهور وسائل محددة من المعرفة والتحدث عن مثل هذه المجالات الخاصة بالحياة الاجتماعية يعتمد علي الوجود المسبق لترتيبات منظمية ومؤسسية محددة. فعلي سبيل المثال، يزعم فوكو أنه كان فقط ظهور الحياة هو الذي جعل الخطاب الطبي ممكناً. لأننا نعبش الأن في عالم حيث وجود المفاهيم الطبية واستخدامها في المجالات المختلفة للحياة الاجتماعية يعتبر أمراً مفروغاً منه؛ فإنه لمن الصعب علينا أن نقدر كيف أصبح هذا الخطاب مخترقاً. فبالنسبه لنا، فإن مفاهيم مثل "الصحة" و"أعتلال الصحة" لا يطبقوا فقط علي الأجسام، ولكن علي المجتمعات (دوركايم)، الرغبات، التوجهات الجنسية، الشهية، التسلية،

الأهتمامات، العائلات،الزيجات، الاقتصاديات، وهلم جرا. وتُظهر هذه الانحة كيف أن استخدام (استخدام أخر للنظام الطبي) مثل هذه المفاهيم قد أصبح معدياً. وإنها بالتالي تلفت الإنتباه إلي تكوين الفكر والوعي والذي يزعم فوكو أنه يمكن للخطاب أن يحققه. أنها لدليل علي سلطة كلاً من الخطاب والممارسين اللذين يستفيدون من مثل هذه الوسيلة للتعرف علي العالم.

ويعد ظهور فكرة الجنون كمرض مثال جيد آخر.إن تفسير"مجنون" مثل" بدون عقل" هو سمة من سمات خطاب سهل عن طريق ظهور وجهات نظر مفكرى التنوير حول فضيلة العقل والعقلانية، وإمكانية التقدم من خلال العلم- أي، عن طريق خلق أفكار الحداثه. ومع ذلك، فإن الجنون لم يكن يعتبر "مرضاً" حتي وقت لاحق عندما أصبح، في الحقيقة، حالة أخري يمكن إستخدامها من قبل الخطاب الطبي. ففي القرون الوسطي في اوربا، فإن القضاء علي الجذام جعل المباني المستخدمة لحصر مرض الجذام فارغاً. ووفرت هذه الظروف لإمكانية إستبعاد فئات آخري من الأشخاص من المجتمع العادي- علي وجه الخصوص"المجنون". إن إنشاء المستشفيات لمرضي الأمراض العقلية جعلت نظام الطب النفسي ممكناً. ونتيجه لذلك فلقد نشأ "المرض" العقلي، المستشفيات العقلية، الطب النفسي و الأطباء النفسيين. كلُ جانب الأخر.

علي الرغم من أن ممارسة السلطة لحبس الناس تعرف الأن علي إنها "مرض" فإنها تعتبر"علاج"، وأن توفير "العلاج الطبي" هو الأثر الجوهري؛ أي الرقابة الاجتماعية علي الأشخاص اللذين يظهرون سلوك يزعج الأخرين، هي نفسها التي كانت دائما عليه، إلا أن الخطاب الطبي الأن يعطي مبرراً للسيطرة، عن طريق العلاج في المستشفيات.

هذا هو الحال مع فوكو. فكما رأينا في جميع أنحاء الكتاب حتي الأن فإن مهمة واضعوا النظريات المرتبطة بمشروع الحداثة هي توليد المعارف التي يمكن أستخدامها بعد ذلك لإتاحة التقدم الإجتماعي وجعل الحرية الفردية والتحرر شئ ممكناً.

بيد أن بالنسبة لفوكو، أشكال المعرفة تستخدم للتنظيم، والمراقبة والإنضباط. مما يعني أنه قد قلب التعريف الحديث للمعرفة رأساً علي عقب، قائلاً بأننا نستطيع فقط أن نعرف الحقيقة من خلال الخطاب، ولكن أيضا هذه المعرفة تتحكم فيما نحن عليه. فإننا لا نستحدم المعرفة لخلق عوالم أفضل؛ فالتغيير الاجتماعي يعني ببساطة بزوغ خطابات جديدة، والتي بدورها تعرِف وتتحكم في

المواطنيين بطرق جديدة. وان هذه الطرق الجديدة للمعرفة ليست "بالأفضل" أو"بالأسوء" مما سبقتها – فإنها ببساطة مختلفة، وتعكس أنواع مختلفة من السلطة. إن تعريف الجنون علي أنه إمتلاك معرفة مقدسة، أو علي أنه يمثل نقص العقل، أو علي أنه دليل علي عقل مريض، ليس مسألة "أكاذيب" يستعاض عنها" بالحقيقة". إنها ببسلطة مجرد تحول في علاقات القوة السلطة – إستبدال أحد الطرق لتعريف الحقيقة بأخري. وعلي هذا فإن تفكير فوكو إذا هو مثال جيد للنسبية.

النسبية Relativism(٤)

يعتبر المؤمن بالنسبية **Relativist** أنه لا يوجد شئ يسمى حقيقة "موضوعية"؛ ولكن يوجد طرق تنافسية للنظر إلى الأشياء وطرق تنافسية لمعرفة الأشياء. فكما وضعها باسكال **Pascal** "إن ما هو حقيقة على أحد جوانب النواة يمكن أن يكون أكذوبة على الجانب الأخر منها". فليس "للحقيقة"، إذاً، معنى بغض النظر عما يعتقد أنه حقيقى من جانب بعض الفئات من المعتقدين. وعلى الرغم من أنه قد يبدو من الصعب علينا أن نحصل عليه بسبب الطريقة التى نعتنق بها الحداثة: الأخذ بالعلم والمعرفة العلمية على انهم امور مسلم بها، والنظر إليهم كشئ "سامي" على أنواع المعرفة الآخرى، فإن المؤمن بالنسبية من الممكن أن يزعم بأنه حتى المعرفة العلمية والممارسة- الخطاب العلمى، كما يطلق عليه فوكو – لا يمكن أن يقال أنهم ساميين موضوعياً على أنواع أخرى من المعرفة التى يعتقد أن تكون صحيحة فى أوقات وأماكن أخرى. وعلى هذا،يقول المؤمن بالنسبية، أن الاعتقاد فى فكرة أن العالم هو ما هو عليه لأن الله قد صنعه على هذا النحو، وأن السحر يسبب سوء الحظ، وأن إقتران الكواكب من الممكن أن تشفى النتوء الصغيرة، أو أيما كان، ليس إعتقاداً فى الأكاذيب إلا من وجهه نظر تعريف آخر (فى هذه الحالة العلمية) للحقيقة. وعلى الرغم من أننا نعيش فى عالم يسوده الخطاب العلمى، هذا لا يعنى أنه بالتالى سامى على الإبداعات الأخرى للحقيقة

---

4 النسبية هي الاعتقاد القائم على الشك في وجود معايير مطلقة بالنسبة للصحيح والزائف (النسبية المعرفية) أو بالنسبة للمعروف والمنكر (النسبية الأخلاقية) ولما كان الأفراد والمجتمعات يختلفون في أحكامهم حول ماهية الأمر أو ما ينبغي أن يكون عليه، لذا فإن مثل هذه الأحكام نسبية لدى الأفراد والمجتمعات. "المترجم".

فبالنسبة للمؤمنون بالنسبية **Relativists** فإن الامر يكون بالعكس؛ فالمعرفة العلمية ليست بقوية لأنها حقيقية؛ إنها حقيقية لأنها قوية.

وعلى هذا، فالسؤال ليس" ما هو صحيح؟ ولكن" كيف أن هذه النسخة مما هو صحيح أتت لتهيمن فى هذه الظروف الاجتماعية والتاريخية؟ " إنه، لفى الحقيقة، سؤال لعلم الاجتماع، وللسياسة ولتاريخ المعرفة.

إن هذا النوع من النقاش هو النقيض للإدعاءات حول المعرفة التى قدمها أنصار "مشروع الحداثة" كما رأينا، فإن إستخدام " العقل" بالنسبة للحداثيين **Modernists** متمثلاً فى العلم، يمكن للبشر من إكتشاف الحقيقة حول طبيعة الواقع، ومن فهم أسباب الحياة الاجتماعية بنفس الطريقة التى كشفت بها العلوم الطبيعية أعمال الطبيعة. فمثل هذه المعرفة تعطينا فرصة للتقدم، وللتطور الاجتماعى والتحرر الفردى والحرية. فكلما أكتشفنا أكثر كلما كان بنائنا لعالمنا أفضل؛ كلما عرفنا أكثر كلما زادت فرصنا للتحرر البشرى.

لقد سبق وأن وضحنا وجهات نظر ماكس فيبر **Max Weber**، الذى مثّل له بناء مجتمع حديث وعقلانى، فيه سجن وتدمير للروح البشرية. كما يّلقى المؤيدون للنسبية أيضاً، وإن كان لاسباب مختلفة، ظلالاً عميقة من الشك حول الإفتراضات المتفائلة التى تقوم عليها فكرة الحداثة. وبما أن "الحقيقة" من وجهه النظر هذه نسبية ونتاج للعالم التاريخى والاجتماعى الذى نحن فيه متضمنون، فإن المعرفة نفسها لابد وأن تكون مفهومة على أنها منشأة إجتماعياً. فبالنسبة للمؤمنون بالنسبية، لا توجد وسيلة للحصول على أى يقين بشأن الحقيقة. فالحقيقة والمعرفة محددان ثقافياً وتاريخياً، فأياً كان ما "نعرفه" فهو منشأ من أجلنا- إنه نتاج زمن فى التاريخ، ومكان فى العالم الذى نجد فيه أنفسنا. فأياً كانت البنائية الاجتماعية التى نستخدمها- سواء أننا عرفنا العملية التى نحصل بها على الحقائق كنتاج للخطابات المترابطة ببعضها البعض، أو كتنشئة إجتماعية للأفكار السائدة، كتلقين ايديولوجى أو أيا كان- فإن المؤمن بالنسبية لا يمكنه أن يهرب من حقيقة أن ما نحن عليه وما نعرفه هو خلق إجتماعى. وفى الواقع، ومن وجهه النظر هذه، ونحن حتماً مكبلون فى الخطابات/ بقوانين الزمان والمكان، فإن حقيقة أننا مشكلون بمثل هذه الظاهرة تعنى أننا ليس لدينا وسيلة لعودة دائمة وعمل أحكام موضوعية على أى حال. لإن حتى المعايير التى نحكم بها على الحقيقة أو الباطل تكون نفسها عبارة عن بناء إجتماعى، قدمت إلينا من خلال عالمنا الإجتماعى.

كما وضعها فيراباند **Feyerabend** (١٩٨١): فإن "كل قانون، كل شكل من أشكال الحياة، له معايير للحكم على السلوك البشرى... فالمواطن سيستخدم المعايير التى ينتمى إليها: معايير الهوبى، لو كان هو هوبى: ومعايير أصولية بروتستانية إذا كان هو أصولي."

فللمؤمن بالنسبية إذاً، حتى "الموضوعية" أداة العالِم – هى نسبية. ولقد وصفها بلور **Ploor** (١٩٨١) على هذا النحو:

"لنفترض أن القبيلة على هذا الجانب من النهر تعبد إله واحد، والقبيلة التى على الجانب الأخر من النهر تعبد إله آخر. فإذا كانت عبادة الإله هى سمة مستقرة للممارسة القبيلة، وإذا كانوا يتحدثون عنها بصورة روتينية، وإذا كانت مسارات الفعل مبررة بالإشارة إليهم، إذاً فيمكننى القول أن كلا المعتقديين موضوعيين".

ما بعد الحداثة Post-Modernism[5]

لو كان هذا النوع من النقاش النسبى صحيح، اذاً فإنه بالنسبة لمشروع الحداثة كارثة. ويدور النقاش حول انه على الرغم من ان "إجتماعيتنا" تجعل من الحياة المنظمة شيئاً ممكناً، إلا أنها تنكر علينا فرصة معرفة الحقيقة إلا من خلال

5 إن مفهوم ما بعد الحداثة يمثل فى تصوير ليوتار حالة إجتماعية خاصة متميزة وليس مجرد إسلوب إبداعى جديد أو نظرية جديدة، فهى تسلم تسليماً عاماً أن اسطورتى التحرر والحقيقة التى ظهرت فى عصر الحداثة لم يعد يؤمن بهما اليوم أحد، فأسطورة التحرر فقدت مصداقيتها بسبب تواطؤ كل العلوم فى إقتراف الجرائم الكبرى التى شهدها القرن العشرون، ومن بينها صنع أسلحة الدمار الشامل ومحارق النازية وغيرها، أما اسطورة الحقيقة التى فقدت مصداقيتها أيضاً بسبب الأفكار المتشككة لمؤرخى وفلاسفة العلوم، ونتيجة ذلك اصبحت لا توجد ضمانات سواءً بالنسبة لقيمة ما يبذلونه من أنشطة وجدواها أو لصدق العبارات الى يرددونها وكل ما هناك ليس سوى ما يسمى بالألعاب اللغوية، ويقدم – فردريك جيمسون فى مؤلفه ما بعد الحداثة – ملامح لصورة ثقافة ما بعد الحداثة بوصفها تهتم اهتماماً بارزاً بالسطح وبالظاهر والخارجى، ومن ثم تتسم بعدم العمق، ثقافة تتحرك شوقاً إلى التنوع فى تزيين أوتشكيل هذا السطح الخارجى مع إهمال الزمن التاريخى، وهى أيضاً ثقافة تعى إفتقادها للعمق ولذلك تتسم بالولع للسخرية وإنحسار العاطفة أو البخل فى التعبيير عن العواطف المتأججة، كما أنها ثقافة مفتونة بالحالات النفسية الفصامية وهى أخيراً ثقافية يوتوبية على نحو مذهل على أساس أن ما تحلم به هو ما ستحصل عليه. "جوردن مارشال، مرجع سابق، ص ١٢٤٦– ١٢٤٨".

وجهة نظرنا. إن بناء النظريات الاجتماعية يشير الى بزوغ الحقيقة والحرية إذا، لان هذه الوصفات هى نفسها منتجات إجتماعية ولا يمكن القول أنها صحيحة أو خاطئة – فقط مختلفة.

إن متضمنات هذا النوع من النقاش النسبى قد دفعت بعض المعلقيين الى القول ان علينا ان نتخلى عن اى امل فى الحصول على الحقيقة او المعرفة حول الحقيقة الموضوعية، وأن علينا ان نقبل ان كل الحسابات الاجتماعية – حتى كل حسابات الواقع المبنية بشرياً – على قدم المساواة فى صحتها. فلا أحد، من الناحية النظرية، يمكن ان يشير الى الطريق الى اليوتوبيا الحديثة **Modern Utopia**: لقد تجاوزنا الوقت الذى ينبغى علينا فيه ان نعتقد ان مثل هذا السرد المتغير، أو الاعتبارات الكبرى لكل التاريخ وكل الحياة الاجتماعية، مثل المذهب الوظيفى أو الماركسية: يمكن ان يكون لها اى مصداقية. ولذا يجب علينا ان نقبل اننا فى عالم ما بعد الحداثة، حيث النماذج النظرية الكبرى قد عفا عليها الزمان، وحيث اصبح امراً محتماً ان المطالبات المتعددة للحقيقة تتنافس مع بعضها البعض من اجل الدعم. ان حقيقة ان بعضاً من هذه النظريات، مثل نظرة فوكو، تدعى انه لا خيار لدينا حول ما نفكر فيه، فى حين ان البعض الاخر يختلفون فى الرأى، لا تغيير الحقيقة حول الطابع التعددى للمعرفة. فبالنسبة لما بعد الحدثيين **Post-Modernists**، فى الواقع، هذه هى الحقيقة الوحيدة. ويدور نقاشهم حول أننا لا بد وان نقبل ان مفاهيم الحداثة مثل العقل والتقدم لا تمدنا بأى وسيلة للطريقة التى نعيش بها، او للطريقة التى سنعيش بها فى المستقبل.

ان فكر ما بعد الحداثة لا ينطبق فقط على المنظمات الاجتماعية، ولكن على سائر حقول النشاط والانتاج البشرى الاخرى، مثل الفن، والعمارة والأدب على سبيل المثال. وهنا ايضاً، ينصَب التركيز على التعددية وعلى الحسابات التنافسية لطبيعة الفضيلة، والاسلوب، والحق والباطل.

وايضاً ينصَب التركيز على مؤقتية وعدم استقرار مثل هذه التعريفات – وسرعة زوال الحقائق والحياة الوجيزة المزمنة للحقائق. فتمثل ما بعد الحداثة اذاً رد فعل على التنوير، البحث الحديث المموول عن الحقيقة، المعنى النهائى، وطبيعة الحقيقة. وبدلاً من ذلك، فإن الطبيعة السطحية وسريعة الزوال للحياة البشرية المعاصرة مؤكد عليها، حيث، بسبب الطابع غير الدائم باستمرار لإدعاءات الحقيقة، انها نمط، اتجاه ومفهوم والذى بات اهم من المضمون والمعنى. على وجه

الخصوص، ان الهيمنة الثقافية من وسائل الاعلام مؤكد عليها، حيث الحقيقة والهوية مشيديين لنا عن طريق الإعلانات، الموسيقى الشعبية، والمسلسلات التليفزيونية. إذاً، بما ان هيمنة وسائل الاعلام تقلص عالمنا، بسبب قدرتها على تجاوز الزمان والمكان، فإن هذا لا يعطينا شيء أكثر معناً "للحقيقة" – انها ببساطة تضاعف عدد ووتيرة ومؤقتية اعتبارات الواقع التى نبددها. إن ما "نراه" عبر وسائل الاعلام يشكل حتماً مصدراً رئيسياً لمعرفتنا فى عالم ما بعد الحداثة – ولكن ما نراه ونعرفه، وبالتالى يكون، مجرد لهنا وهناك، وفقط حتى تأتى قصة أخرى.

الفصل الثامن

النظريات والمعرفة والتفسير

مدخل

مازلنا نحن نصور علم الاجتماع كموضوع متعدد النظريات، فليس هناك معتقد نظرى، وإنما يوجد أساليب متنافسة فى تفسير طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع، كما نتجه الأن نحو قضية هامة متساوية، والتى تتعلق بكيف، يصل علماء الاجتماع المختلفين إلى الدليل الذى يدعم وصولهم المقنع إلى الحقيقة؟ وما هى الإجراءات التى يستخدمها علماء الاجتماع من أجل تعميم المعرفة المبنية على تفسيراتهم؟

ومن أجل تحديد هذه القضايا، لابد من تحديد بعض المصطلحات الهامة؟

أولاً: المنهجية Methodology والمنهج Method

يشيروا إلى الأساليب والمستويات المختلفة لإكتساب المعرفة. والمنهجية تشير أيضاً إلى عملية إنتاج المعرفة بينما المنهج يشير إلى الأدوات والوسائل النوعية لإكتساب المعرفة.

فالتباين الظاهر بين المظهرين يشبه البستان عندما يقوم الجناينى بالآتى:

أ- الإستراتيجة الشاملة من أجل إعداد الحديقة بأكملها فإن الجناينى أو البستانى يقرر متى وأين يحرث ويزرع ويثمد أو يخصب الأرض وريها ثم تقليم الأشجار ثم الجمع أو الحصاد وهكذا.

ب- أما الوسائل والأدوات الخاصة بتحقيق هذا الهدف الشامل مثل الجاروف، المذراه، آلة لرفع النبات، حنفية مياه، والسماد، فأس لعزق الأرض، وهكذا.

ولا شك أن المماثلة أو المناظرة هنا واضحة فالمنهجية هى الإستراتيجية الشاملة لمنتج المعرفة بينما المنهج هو الأدوات المستخدمة لتحقيق هذه المهمة.

المناهج Methods

يوجد عدد متنوع من وسائل جمع البيانات والتى تتضمن ما يلى:-

أ- أسئلة المقابلة والتى تعنى المقابلة كجزء من المسح والتى تكون محددة أو شبه محددة **Semi- Structured** أو غير محددة **Un Structured** ودرجة التحديد تشير إلى الحد الذى يجعل المبحوث

أو المستجيب، يسأل نفس السؤال ليضع له أو لها بنفس الأسلوب بالضبط.

وفى الواقع أن معظم الأسئلة المقننة تكون الأسهل فى قياسها ومقارنتها للإجابات ولذلك فهى تعطى بيانات كمية **Quantitative data**.

أما الأسئلة غير المقننة فمعظمها غالباً ما يكون أعمق فى الفهم بالإستجابة والوصف وغالباً ما تقدم لنا بيانات كيفية **Qualitative data**.

ب- الإستبيانات**Questionnaire** فهى عبارة عن أسئلة محددة على الورق ويتم الإجابة عليها كتابة بواسطة كل مبحوث، وصراحة أن جميع الإستبيانات عادة ما تكون متكاملة ومحددة أو مقننة ونتائجها أكثر سهولة من الناحية الكمية.

ج- أسلوب العينة **Sampling** الذى يتيح إختيار أعداداً صغيرة من المستجيبين على الأسئلة، وهذه الإستجابات التى تتم بأسلوب العينة المختارة يمكن القول أنها تمثل بدقة السكان أو المجتمع ككل أكثر من العينة المقصودة أو المحددة.

د- الجماعات البؤرية**Focus Group** وهى التى تتكون من مجموعة تتراوح ما بين (٦) و (٨) أفراد والتى توجه من خلال الباحث أو المرشد والتى تتيح بيانات عن طريق المناقشة، ويمكن أن تكون مفيدة فى التعمق فى فئات أو شرائح معينة توضع فى مكان متشابه وتتيح لهم الشعور والتفكير فى قضايا وثيقة الصلة بهم.

ه- الملاحظة **Observation** وهى التى تمكننا أيضاً من إنتاج بيانات إثنوجرافيه أو كيفية **Qualitative** والملاحظة تتم من خلال الوصف عن طريق المشاركة **Participation** أو ملاحظة غير مشاركة

و- **Non-Participation Observation**، وموضوعات الملاحظة إما أن تكون على وعى واقعى بها وهى الملاحظة التى تسمى علانية**Overt Observation** أو بشكل غير معلن **Not Covert Observation**، والملاحظة يمكن أن تتم بشكل مرئى **Visually** أو مسجل إلكترونياً **Electronically Recorded**.

ز- التجربة **The experiment** وهى التى تتم من خلال إستخدام تركيب إجتماعى مصطنع لكى نتعرف على مدى تأثيره على السلوك الاجتماعى والتى تتحدد آثاره من خلال المجرب أو القائم بالتجربة **Experimenter** والفكرة تقوم على عزل هذه التأثيرات وقياس مدى تأثيرها بأسلوب لا يمكن أن يتم فى إطار العالم الواقعى..

كل هذه النماذج التى ذكرت آنفاً تقدم:-

جمع بيانات أولية بأساليب فنية والتى تعتمد على قدرة الباحث النشطة ثم جمع البيانات الثانوية والتى تتضمن إستخدام البيانات التى تم تجميعها لأغراض أخرى مثل:-

١- الإحصاءات الرسمية**Official Statistics** التى تجمع عن طريق الهيئات الحكومية والمنظمات الأخرى التى تصف الجوانب الاجتماعية للحياة الاجتماعية. كما فى حالة الإحصاءات الخاصة بالصحة والطلاق والجريمة والإنجاز التعليمى وهكذا.

٢- تحليل المضمون **Content Analysis** والتى تتضمن فحص وقياس الجوانب المرئية **Visual** النصية **Textual** للحياة الاجتماعية الانسانية المكتوبة لأغراض غير إجتماعية فى الكتب والصحف، والمجلات من أجل البث الإذاعى أو التلفزيونى أو الأفلام.

٣- تحليل الوثائق **Documentary analysis** والتى تشمل ليس فقط الإهتمام بالوثائق الرسمية ولكن أيضاً الوثائق الشخصية مثل الخطابات، والمقالات، واليوميات.

٤- التحليل الثقافى**Cultural analysis** والتى تشمل الإهتمام بأى شكل من المنتج الإنسانى مثل الملابس، والأفكار، والموسيقى، واللغة وهكذا، التى يكون لها وظائف بمعنى التمثيل الرمزى.

٥- وفى الواقع أن وظيفة الباحث الثقافية هى عملية كيفية تقوم على حل المعانى لهذه الرموز الثقافية وترجمة اللغة المستخدمة فى الإتصال.

٦- التفكيكية **Deconstruction** والتى تشير إلى المنهج الجدلى ما بعد البنائى- **Controversial post structuratist** الذى يوضح كيفية إستخدام اللغة فى النصوص غير الموضحة للمعنى الذى يريده

المؤلف، فمشروع التفكيكيين يوضح غالباً كيف يمكن توصيل أكثر من معنى لأى شخص أو مؤلف او ناقد بشكل مفهوم.

نظرية المعرفة وعلم الوجود

Ontology and Epistemology

ونحاول فى هذه النقطة إلقاء الضوء على معرفة كيفية عمل هذه الوسائل وأنماط المعرفة التى يستطيعون إنتاجها بوصفها جزء من هذه القضية، ومع هذا فالأهمية تتساوى فى سبب الإستخدام، وما هى أغراض أو أهداف الباحث الاجتماعى؟ حيث أن نفس مناهج البحث يمكن أن تستخدم بأغراض أو أهداف مختلفة جداً، ما المنهج الذى يكون فنياً قادراً على أن يعمل؟ وما هى المهمة المطلوبة بشكل خاص؟ فمثلاً أن معرفة ماذا يمكن أن تستخدم فيه السكين. من تقطيع البازلاء قطعاً متساوية إلى تخريط الطعام إلى فتح المظاريف الخاص بالخطابات أو زبح العنق أو فى العمليات الجراحية، فهى لا تخبرنا عما تفعله فى موقف محدد ما لم نعرف الهدف ومقصد أو نيه المستخدم.

وبالمثل فهناك قليل من النوعية المتلازمة فى آداة البحث لذلك، وما هى المسائل المستخدمة والتى يختار الباحث الاجتماعى لوصفها. ولكى نفهم إستخدام أساليب جمع البيانات يجب أن نفهم السياق المستخدم فيها، هذا السياق غالباً ما يوحى بفهم المهام المعرفية والوجودية للباحث.

وفى الواقع أن أى نوع من إنتاج المعرفة للكائنات البشرية تعتمد بشكل كبير على وجوديتك (تعريفك لموضوعك بشكل واقعى) أو ما هى الحقيقة التى يجب أن يكون عليها، ومعرفتك (أى ما يعتبر كمعرفة- يعتمد على ما أنت تريده من المعرفة) علاوة على ذلك فإن تحديد طبيعة المعرفة غالباً ما يعتمد على المنهجية والمناهج المستخدمة فى إكتسابها، ودعنا نضرب أمثلة غير إجتماعية لتوضيح هذه العلاقات.

بعض المقارنات: للتعرف على المرض.

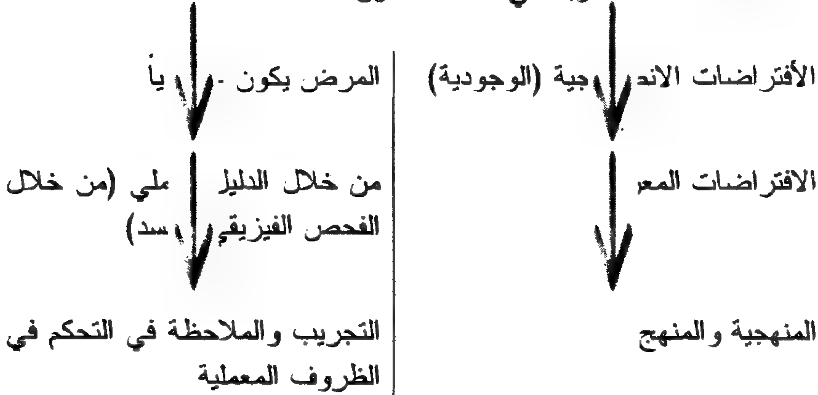
Knowing About illness: some Comparisons

فى ثقافتنا عندما يشعر الناس بالمرض نحن غالباً ما نفترض أن هناك شيئاً ما يعانى منه الجسم، فالمرض فى العادة له أصول أو جذور عضوية، علاوة

على ذلك ومن أجل إكتساب المعرفة عن هذه الأمراض العضوية نحن نستخدم إجراءات من الفحوص الطبية لكى نكتشف السبب أو الدليل الواقعى على وجودها.

وهذا يتطلب أن الدليل يتطابق مع إحساسنا الإنسانى، وهذا الدليل يجب أن يكون نتيجة فحوصات فيزيقية للظواهر الجسمانية مثل الدم، وتحليل البول أو عينات من الأنسجة العضوية التى يعتقد أنها مصابة بالمرض.

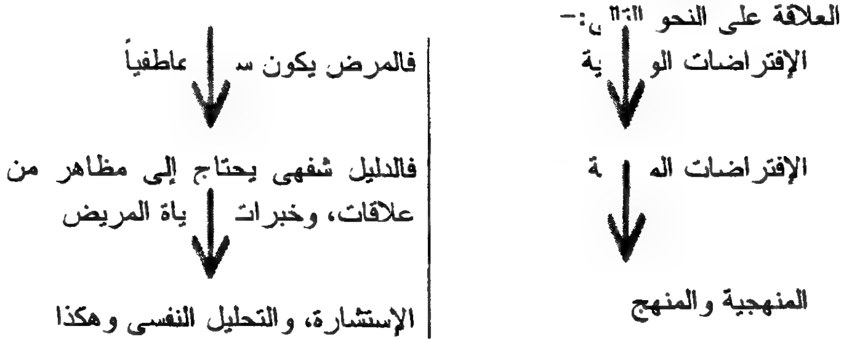
هذه الإجراءات تهدف إلي الكشف عن طبيعة المرض العضوي **Organic Lesion** الناجمة عن الشعور بالألم الصحي، والعلاج يستخدم معايير طبية مضادة مثل الأدوية أو العقاقير**Drugs** او التدخل الجراحي لذلك لو حدث التهاب للحلق، فمن المفترض أن هناك شيء خطأ في الجهاز التنفسي **Respiratory system**، ومن أجل الحصول علي دليل فيزيقي لهذا، فلابد من أخذ عينة من الحلق وتفحص محتوياتها في معمل للتحاليل المرضية، والاعتقاد هنا يوضح عن وجود باكتيريا سببت المضاعفات، ولا بد من إستخدام مضاد حيوي **Antibiotic** مناسب، وبالتالي فالعلاقة تكون هكذا:-



وحتي في ثقافتنا فإن هناك أساليب أو طرق بديلة للمعرفة وكذلك التفسير، لنفس الظاهرة التي تؤدي إلي الإلتزام بإجراءات متباينة، فلو نحن إستشارنا المعالج النفسي في المرض بدلاً من الممارس العام **GP** فإن برنامج العلاج الملتزم به سوف يكون مختلفاً بسبب إختلاف نوع الإفتراضات الإنطولوجية عن الطبيعة الواقعية المتصلة بهذا المعالج.

فالعلاج النفسى **Psychotherapy** فى إفتراضاته مبنى على علاج مختلف من نظرية السلوك الإنسانى **Theory of human behavior** فى المرض بشكل خاص، التى تهتم بالعقل ومدى تأثيره على الجسم، ومن وجهة

النظر هذه فإن إمكانية أن الشرط الفيزيقى مثل إلتهاب الحلق له جذور عقلية التى يجب أن تكتشف. فى هذه الحالة فإن التدخل الفيزيقى لإستئصال البكتيريا فى الحلق فإنها لن تعالج السبب وإنما سوف تخفف فقط من الأعراض، بينما المعالج النفسى يرى أن المرض العضوى له عرض عقلى مثل الضغوط، والتوتر والاكتئاب **Depression** وبالتالى فإن التدخل فى الظواهر يكون ضرورياً، فكثير من المعالجين النفسيين يصرون على أنه بينما الأعراض الفيزيقية تعالج فيزيقياً كالتدخل القائم على العقار، إلا أن أسباب هذه الأعراض تعالج على المستوى غير فيزيقى، وعلى مستوى الوعى الإنسانى من خلال الإستشارات العلاجية مثل التحليل النفسى **Psychoanalysis** من خلال العلاج المعرفى **Cognitive therapy** (القائم على التدخل فى النمط والمحتوى لتفكير المريض) أو العلاج السلوكى **Behavior therapy** (من خلال تعديل سلوك المريض) وهنا تكون العلاقة على النحو التالى:-

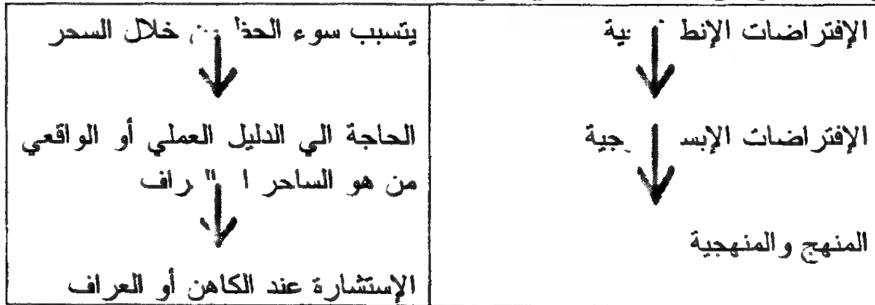


ففى قبيلة الزند **The Azande** وهى قبيلة إفريقية مشهورة فى التراث الانثروبولوجى، وحتى الاختلاف الأكبر فى الإفتراضات الانطولوجية عن الواقع الذى يؤدى إلى إكتساب أشكال مختلفة من المعرفة لكى نبنى تفسيرات عن هذا العالم، ففى قبيلة الزند فإن أكثر أشكال سوء الحظ تشمل المرض الذى يحدث بسبب السحر **Witchcraft** والتى تسمى مانجيو **Mangu** هذا إعتقاد سائد بوجود فيزيقى يعيش بداخل الكائنات البشرية، فسحر الإنسان يمتنع ليس بالإحتياج إلى الوعى بوجود السحر ولكن لأن المانجيو هى السبب فى سوء حظ الآخرين، فسعادتهم تعتمد على المعرفة بوجود السحر بينهم، وهذا يكون على وجه الخصوص فى حالة المرض، فالشخص المريض لا يمكن التوقع أن يكون أفضل حتى يتم التعرف على السحر وأخذ إجراءات ملائمة لذلك، لأن أعمال السحر يكون لها فاعلية عظمى فى المسافات القريبة، فمن المحتمل الأكبر أن مجموعة المانجيو

المسببة لمرضك ترتبط بشكل ما إجتماعياً أو فيزيقياً بالشخص المصاب. وحتى فإن سوء الحظ مثل المرض عندئذ ليس الأمر متعلق بالبحث عن أسباب عضوية أو عاطفية ولكن بالتماثل لما بداخل فرد ما فى المانجيو بجسد آخر.

وهذا يفعل من خلال إستشارة الكاهن **An oracle** والتأثير الأكبر للكاهن هو فى الكاهن المؤذى أو الضار أو ما يسمى **Benge** أنه يقدم معرفة مطلوبة من خلال الإجابة بنعم أو لا للأسئلة التى توضع له، فالفكرة تتعلق بطرح السؤال التالى هل السم يغذى الكتكوت الصغير؟، وهنا فإن القدر المحتوم للكتكوت يقدم الإجابة، وهنا يجب ان تسأل أن الكتكوت سوف يموت لو أنت عندك شك في السحر، ولو أنه عاش فإن شكك يكون خطأ، وانت يجب ان تحاول مرة ثانية، ولكن لو أنه مات فانت علي صواب، و يجب أن تنفذ عملية الإختبار حتي تحصل علي الدليل.

وللوصول إلي الحقيقة، تكون في عدم الشك بالسحر، ومع هذا فإن هناك شعور مخيف من السحر، وفي حالة سوء الحظ مثل إنهيار المحاصيل وفشلها فليس يوجد تفسير لذلك حتي الأن، أما في حالة المرض يمكن لأن نتوقع أن يكون أفضل أو بخير، وبالطبع فالناس تعالج أو تشفي تلقائياً من معظم الامراض، وهذا ما يدعم الإعتقاد في النظام التفسيري، ومع هذا فلو إستمر المرض فمن المفترض إما أن الجذور السحرية لم تصدق في محاولاتها للتخلص من المانجيو أو السحر الآخر الذي يستولي علي إستمرارية سوء الحظ. وأما الكاهن يعمل علي إعادة جمع إثبات برهان آخر. وفي حالة أن المرض يؤدي الي الموت فإنه من الضروري أن نكتشف السحر في النهاية، وهذا يتطلب إستشارة خبير من الطبيب المشعوذ أو الدجال **Witch doctor** لممارسة سحرة ضد السحر الخفي، وعلي الرغم من إستغرابنا فإن هذا النسق التفسيري أو التعليلي يحتوي علي نفس العناصر علي وجة الدقة ونفس العلاقات كأنساق أكثر تشابهاً مثل:-



والجدير بالذكر في هذه النقطة أنه علي الرغم من التباينات الكبيرة في المحتوي بين الأنساق التفسيرية الموجودة، والتي تاخذ نفس الشكل، فإننا يجب الأن أن نعرف أي الأنساق التفسيرية يكون حقيقياً والمستخدمة في المعرفة الاجتماعية.

النظريات الاجتماعية: المضمونات المعرفية والوجودية.

فالنظريات الاجتماعية التي تم بحثها في هذا الكتاب تتطابق مع الإفتراضات الإبستمولوجية والوجودية، ونحن سوف نلخص هذه العلاقات في الجدول الموضح بإختصار: -

النظرية	الوجودية	الإبستمولوجية
١. دور كايم والوظيفيون	الواقعية معيارية أو نسق ثقافي (نسق من الافكار) والتي تنتج الحياة الاجتماعية والتي تعمل مستقلة عن الوعي الإنساني	المعرفة الملائمة هي الناجمة عن الدليل الإمبريقي من القوي البنائية التي تنتج السلوك والمعتقدات.
٢.ماركس والماركسيون	الواقعية هي الانساق الاجتماعية المهيمنة إقتصادياً وأعمالها هي: أ- مستقلة عن الوعى الإنسانى (الألتسورية والماركسية). ب- مستقلة عن الوعى الإنسانى فيما عدا الفعل السياسى الذى ينجم عن التغير البنائي.	أنماط الإنتاج هى القوى الحقيقة للحياة الاجتماعية ولا يوجد دليل إمبريقى لذلك، والمعرفة الملائمة هى الفهم النظرى لأعمال هذه الأنساق.
٣. ماكس فيبر و الويبيرون	الواقعية هى التفرد التاريخى ولكن المعنى الكامل ينشئ من الظروف البنائية.	المعرفة الملائمة هى الفهم **Verstehen** المتولد عن الأنشطة الاجتماعية والتى ينجم تاريخياً عن التشكيلات البنائية الفريدة.

٤. النسائيون Feminists	الواقعية تتحدد بأوضاع مختلفة من القيود البنائية التى تظهر المرأة وتجعلها تابعة.	المعرفة الملائمة هى التى تسمح للمرأة أن تعبر عن نفسها أكثر من المعرفة بعالم الرجال التى تعبر عن عالم المرأة أيضاً.
٥. التفسيريون وأصحاب نظرية الفعل.	الواقعية هى المضمون المصاحب للفاعلين الاجتماعيين.	المعرفة الملائمة هى فهم الدوافع والمناهج الأساسية للمعنى الخاص بنشأة التركيبات الاجتماعية.
٦. جيدنز والنظرية البنائية.	الواقعية لها شخصية مزدوجة فالبناءات كلاها معوق وممكن للقوى الإنسانية لتمارس الإختيار وتعيد إنتاج وتحديد هذه الأبنية.	المعرفة الملائمة هى التى تسمح بشرح البناءات الاجتماعية وتقدم الفهم للقوى الإنسانية التى تحل محل هذه الأبنية فى هذا السياق.
٧. ما بعد البنائية.	الواقعية هى صورة الممارسات المنطقية التى تحدد الموضوعات (وبخاصة ممارسة السلطة).	المعرفة الملائمة هى المستمدة من الدليل المعاصر والتاريخى لأسلوب الخطابات التى تشكل الهوية والواقعية الاجتماعية.

والجدير بالذكر هنا أن السؤال الذى يطرح نفسه أى هذه المعارف الوجودية أو المعرفية ترتبط بمختلف النظريات الاجتماعية والتى تؤدى إلى إستخدام منهجيات محددة (خاصة الإستراتيجيات البحثية) والإستخدامات الخاصة بأساليب جمع البيانات وهنا فالأشياء ليست واضحة ومحددة المعالم تماماً، وإحدى الأسباب لهذا أن معظم الإسهامات الجديرة بالملاحظة هى فكرية وعقلانية بطبيعتها تهتم حصرياً بالجوانب الوجودية والمعرفية أكثر من الإنغماس فى جمع الدلائل بشكل منظم، وقد أطلق السيررايت ميلز على هذه النظريات الكبرى والتى تتمثل

فى بعض أعمال دوركايم، وماركس، وفيبر وبعض علماء القرن العشرين مثل بارسونز، وجيدنز، والتوسير التى تنحدر فى هذه الفئة بشكل واضح.

ولكن حتى فى رواية علم الاجتماع التى تعتمد على جمع البيانات من أجل الدليل، والإرتباط بين النظريات النوعية ومناهج لمعينة ليس غالباً متجه مباشرة للأمام ويمكن تلخيص هذه الإرتباطات على النحو التالى:-

١- أن الإلتزام الصارم نظرياً يمثل السبب فى إختيار الإجراءات البحثية.

٢- ولكن أحياناً تختار المناهج والمنهجية بدون اسباب غير نظرية خاصة فى البحوث السياسية والعملية.

إن الإندماج بين العناصر النظرية القديمة أعطى فى السنوات الحديثة قوة دفع لإستخدام مناهج معينة.

ولفهم السبب فنحن فى حاجة إلى نبذه عن التطورات فى البحث السوسيولوجى فى القرنيين التاسع عشر والعشرين.

نبذة عن تاريخ البحث الاجتماعي

A Brief History of Sociological Research

ولكي نقدم هذه النظرة التاريخية فلابد من عرض العناصر التالية بشكل واضح:-

١) في كلا القرنين التاسع عشر والعشرين كان أنتاج المعرفة السوسيولوجية: هي العامل الرئيسي المؤثر علي نشاة العلم الاجتماعي.

٢) كان الشكل المميز للعلم الاجتماعي مبني علي فلسفة أطلق عليها الوضعية **Positivism** تلك الفلسفة التي سيطرة علي البحث الاجتماعي خلال النصف الاول من القرن العشرين، وهذا كان أساسياً بسبب أن الإنشغال المعرفي والوجودي بالوضعية مرتبط بالنظرية المسيطرة علي علم الاجتماع في ذلك الوقت، نظرية التوافق، والوظيفية، بسبب الالفة السائدة في علاقاتهم ثم دخلت الوظيفية بعد ذلك في هجوم شرس في حقبة الستينيات كما فعل بالوضعية.

٣) أعتمدت الفلسفة الوضعية علي مبدأين أساسيين هما:-

أ- قابلية تطابق الدليل الأمبريقي مع الخبرة الأنسانية (التي نحصل عليها من خلال الحواس) التي تعتمد علي تقديم أثبات واضح للحقيقة.

ب- هذه المعرفة بالواقع يجب ان تعتمد علي الطريقة الموضوعية،التي تتعامل فقط مع الحقائق وتتحرر من أي تأثير للقيم أو الأحكام الذاتية، وبالتالي فالوضعية تصر وتؤكد أن أي أدعاء للمعرفة يجب أن يبقي منفرداً علي ماذا يكون، ولابد من إستبعاد كل الآراء والتفضيلات والأختيارات الشخصية تماماً.

٤) منذ عام ١٩٦٠، فصاعداً فهذين المظهرين للفلسفة الوضعية بدأوا يتعرضوا للإنتقاد سواء من داخل علم الاجتماع أو من خارجه علي النحو التالي:-

أ- **الوضعية المضادة لعلم اجتماع الفعل.**

فنظرية الفعل تعارض الإعتماد علي الدليل الامبريقي في علم الاجتماع الوضعي، فتؤكد الاهتمام بأفكار الفاعلين وتفسيراتهم، - بدون ظواهر عقلية وأمبريقية - تمثل محور اهتمام المشروع الاجتماعي وبالتالي فعلم الاجتماع ليس علماً وضعياً.

ب- **الوضعية المضادة للواقعية.**

فالواقعية هي فلسفة العلم التي تؤكد أن الوضعية تعطي وصفاً زائفاً للنشاط العلمي، لأن العلم الاجتماعي لا يعتمد فقط علي الدليل الامبريقي، فالواقعيون يقولون أن المظاهر أو الجوانب لأي شكل واقعي تظل باقية في خفاء من وجهة النظر الأمبريقية، وتحت السطح لما هو قابل للتجريب، لذلك فمن وجهة النظر هذه أن الحقيقة هي أن علم اجتماع الفعل يتطلب التركيز علي الظواهرغير الامبريقية، مثل الأفكار، والمعتقدات، والواقعيون يرون أن كل العلوم يجب أن تتعامل مع هذه الظواهر.

٥) **الوضعية المضادة لتوماس كوهن Thomas Kuhn** تنتقد نظرية الفعل فكر علم الاجتماع الوضعي النظري والمنهجي الذي فصل بين علماء الاجتماع التفسريين والبنائيين، التي سادت أفكارهم طوال الستينات، في ذلك الوقت، لذلك يمكن القول في الحقيقة أن المناهج التي أختيرت بسبب التحيز لجانب ما أو لآخر في الصراع الدائر، ومنذ السبعينات فصاعداً تم التمييز بين ثلاثة محاولات أساسية حدثت في نهاية هذه الحقبة هي:-

أ- **التعدد المنهجى Triangulation**

والذى أصبح يميز البحث الاجتماعى كثيراً الأن، ويشير هذا المصطلح إلى الإستخدام الهادف لنماذج نظرية متنوعة وإجراءات بحثية عديدة خاصة فى المشروعات البحثية، لكى نحقق التكامل المنهجى والمعرفى والوجودى لكل من نظريات الفعل والنظرية البنائية.

ب- **الحاجة الي ضمان التمويل Funding**

من أجل البحث للمساهمة في كلا الجانبين في البحث عن أسلوب السلام إذا لم يكن يوجد إتفاق، بينما في الستينيات فإن التوسع في علم الاجتماع البريطاني صاحبة دعم مالي كبير للبحث في هذا الموضوع، وأثناء السبعينات، خاصة أثناء بداية الثمانينيات، وفي مثل هذه الظروف بدأت المناهج تختار بناءً علي فاعلية تكلفتها اكثر من توافقها أو أنسجامها، مع الاهتمامات النظرية بشكل خاص.

بالاضافة الي أن تصميم المشروعات البحثية بدأ يتجه نحو الجوانب السياسية (لاستحالة ما تهدف اليه الوكالات التمويلية) - (وهذا غالباً نتيجة الضغط الحكومي) اكثر من تخصيص الدعم للموضوعات المنهجية والنظرية علي وجه الخصوص.

ج- **أما علي المستوي النظري أو التنظيري**

فقد قدم انتوني جيدنز مفهوم البنائية **Structuralism** الذي قصد به تحويل الفكرة الي أن كلا من البناء والفعل هما المحددان للحياة الاجتماعية، وقد أكد جيدنز أن البناءات ليست فقط تعوق الفاعلين ولكن ايضاً تمكنهم من جعل الاختيار والفعل له معني.

علاوة علي ذلك بالرغم من أن دوافع الفعل هي مجرد إعادة انتاج السياقات البنائية التي يعيش الفاعلون فيها حياتهم، فهي ايضاً شكلت من خلال هذا الفعل.

٦) هناك ثلاث تطورات أخري في الممارسة للبحث الاجتماعي من عام ١٩٨٠ فصاعداً يجب أن يتم ذكرها ايضاً.

أ- التحليل الثقافي الذي يستخدم العلامات **Semiotics** (دراسة الاشارات) لحل شفرات الاستخدام الاجتماعي للعناصر الثقافية بوصفها أشكال رمزية للتمثيل.

ب- في نفس الاتجاه فإن ما بعد البنيوية أنهم أكدوا أن الشكل الاساسي للتمثيل الرمزي – اللغة – يستمد من الحياة الانسانية والتقسيم التقليدي بين النظم مثل الفلسفة، وعلم الاجتماع والتحليل الادبي والتحليل النفسي والتاريخ، وكل هذا في النهاية يتعلق بالكشف عن استخدام اللغة في كل من النص والفكرة.

ج- بعض النسويين قد طوروا إستراتيجيات وأساليب بحثية خاصة التى توصى بإعطاء المرأة صوتاً اجتماعياً ملائماً، ومن هنا فإن المناهج البحثية يتم إختيارها علي أساس قدرتها لتحقيق هذا الغرض السياسي.

د- ودعنا الأن نبحث هذه الإتجاهات المختلفة مبتدأين بدور العلم في نطاق علم اجتماع القرن التاسع عشر.

الفصل التاسع

علم الاجتماع والعلم

Sociology and Science

الحداثة والعلم Modernity and Science

لان فكرة الحداثة أساسية وتعني وتهتم بعوائد التفكير العقلاني والتفكير العلمي والممارسة الخاصة، فانه ليس مثيرا للدهشة أن يعتقد الكلاسيكيون في المجتمع الحديث من خلال رؤية علمية أو اهتمام علمي.

وكما رأينا فلقد اتبع دوركايم معلمه كونت في الاعتقاد لتأسيس علم الاجتماع كعلم وضعي للمجتمع مستخدما في ذلك الإجراءات الوضعية بهدف التوصل إلى علم حقيقي كوسيلة لإيجاد قوانين للحياة الاجتماعية، وهذه المعرفة العلمية كما أشار دوركايم يمكن أن تكون هي الأداة السياسية التي من خلالها التوصل إلى مجتمع يسوده السلام والتناغم والاستقرار المجتمعي.

ويرى ماركس أيضا انه لابد من استخدام العلم لتحقيق نمو وتقدم سياسي، وثمة اختلافين أثنين عن دوركايم فيما يتعلق بالمنهج الوضعي كعلامة واضحة في إسهاماته.

أولا: إنه لم يكن إمبريقي في المنهج الوضعي حيث أنه لم يبحث على الدلائل الناتجة عن الملاحظة للقوى البنائية من خلال المقاييس المتعلقة بمنطقية التفكير والفعل، بالأحداث القابلة للملاحظة وغير قابلة بالتالي للرصد الإمبريقي ولكنها قاصرة على التفهم عند مستوى النظرية فقط، وهذا النموذج من العلم يعرف باسم الواقعية **Realism** ويعتمد على رؤية الواقع من حيث يراه العلم وميكانيزمات هذا الواقع التي ينتج عنها سلوك قابل للملاحظة والفعل ولكن ليس كلاهما يمكن ملاحظته بشكل مباشر.

ثانيا: إن ماركس مثله مثل فيبر استخدم المقارنات التاريخية كمصدر رئيسي للأدلة لإثبات رؤيته حول المادية التاريخية ولم يتمكن ماركس من إجراء التجارب لتنفيذ المسوح التي كان يحتاج إليها عند دراسة مختلف المجتمعات من خلال القيام ببساطة بعملية مقارنة لإقناعنا بالحقيقة المتعلقة بتحليله التاريخي.

ويعتقد فيبر أيضا في استخدام أسلوب التحليل التاريخي المقارن وهو أيضا ممن كتب أنه يمكن إن يستخدم التحليل التاريخي المقارن في منفعة البشرية ولكن اهتمامه العلمي كان ينحصر في الكشف عن دور الفعل الاجتماعي في تشكيل الحياة الاجتماعية وتقديم وعرض الأحداث التاريخية.

ويرى فيبر أيضا أن التحليلات السابقة لعلم الاجتماع يجب أن تكون سببية **Casually** وذات معنى موضحاً كيفية تفسير الناس للعالم والتي تنتج الفعل ذات المعنى وأيضا سبب تشكيل الدلائل الاجتماعية الامبريقية القابلة للملاحظة.

وبالنسبة لفيبر فأن العلم يعني اختبار العالم الحقيقي من خلال استخدام الفهم **Verstehen** بهدف إرساء أبنية مثالية متطابقة ولها صلاحية لدى علماء الاجتماع على عكس الوضعية.

ويرى فيبر أن الموضوعية للعالم تبنى أساساً على الأختيارات الذاتية (النمط المثالى) من الواقع اللانهائى. والموضوعية لاتكون ممكنة عند مستوى الانتقاء وبالتالي هي مقبولة عند مستوى القابلية للاختبار ووضع الفروض للملاحظ ناجمة عن الفهم.

ولقد اختلف فيبر عن كل من ماركس ودوركايم في قضية العلم بطريقة أخرى حيث انه يرى أن العقلانية في العالم الحديث تعنى القدرة على الحساب والقياس والإحصاء وهذا هو العلم الحقيقي.

الوضعية وعلم الاجتماع
Positivism and Sociology

في النصف الأول من القرن العشرين وعبر أعمال الأمريكيين وعلى وجه الخصوص مثل بارسونز ودوركايم وما قدموه من تنظير واهتمامات خاصة بنظرية المعرفة، فهل كانت رؤيته بخصوص الإجراءات المنهجية الوضعية معبرة عن معرفة كافية بالقوى الاجتماعية – دعونا نتفحص التفاصيل في طبيعة هذا المشروع الوضعي.

علم الوجود Ontology (الوجودية)

بالنسبة للوضعية فأن أي شكل من أشكال الواقع هو مكون من الظواهر في علاقتها بين أجزائها بعضها البعض- علما بان العالم يتكون من أشياء مسببة لأشياء أخرى – ووجود ظاهرة خاصة إنما يعني ضرورة تفسير ظاهرة أخرى كسبب لهذه الأولى -بل وأكثر من ذلك فان تأثير هذا السبب ربما بدوره يعد سببا لظاهرة ثالثة وعليه فان الأشياء لامتناهية.

ويعد هذا العالم كيان فاعل وشعورنا بخصوصه لايتغير سواء احببناه أو لم نحبه فالماء سوف يتجمد عند درجة معينة سواء أردنا أو لم نرد، وأوراق الأشجار سوف تقع من على فروع الأشجار في الخريف عن فصل الشتاء – وبالنسبة للاتجاهات والقيم البشرية عن الواقع عندما تترابط لتتأصل لايمكنها ذلك ولامن خلال علاقة السبب بالتأثير حيث يتم صناعتها. ومايبنغي أن يكون هو وثيق الصلة بطبيعة الواقع – ولهذا فإنه على العلم أن يهتم بالهدف وان نستبعد الذاتية القائمة على أحكام إنسانية وقيمية **Human Values-Judgments**.

علم المعرفة Epistemology

أن المعرفة المرتبطة بهذا العالم الموضوعي يجب أن تكون إمبريقية (ميدانية) وقابلة للإدراك عن طريق الحواس فلو أننا حاولنا إقناع الأخريين بحقيقة اعتباراتنا فإن الاثبات الظاهر لتفسيراتنا فقط عن الواقع هو مقبول بسؤال الأخرين عن الصدق فى إجابتنا، لكن فصدقنا فى الإدعاءات على أنها صحيحة، فهذا ليس له مكان فى العلم، ولكن علينا أن نقدم دلائل أمبريقية على إدعاءاتنا.

المنهجية Methodology

إن الطريقة المنهجية المفضلة من قبل الوضعية تعرف باسم الاستدلال الفرضي وتتحدد مراحل هذه المنهجية فيما يلي:

من خلال المعرفة الكائنة (ما هو) يبدأ العالم في الشك في ماينبغي ان يكون وهذا مايطلق عليه الفرض الاستدلالي- فعلى سبيل المثال لنقل أننا نعرف وندرك أن معدل الإصابة بسرطان الرئة لدى الرجال أكثر منه لدى النساء ولنفترض أننا نعرف أن الرجال يدخنون السجائر أكثر من النساء فأنه بمعرفة هذه الحقيقة يمكننا أن نستنتج أن التدخين يؤدي إلى الإصابة بمرض سرطان الرئة وليس أنه هناك أسباب جوهرية أخرى لهذه الحقيقة- فعلى سبيل المثال فانه من المحتمل أن يكونوا الرجال يعملون في أعمال تؤثر على الرئة وتؤدي إلى إصابتهم بالسرطان أو ربما يكونوا هؤلاء الرجال لديهم أسباب بيولوجية أخرى محفزة لمرض سرطان الرئة بينما لاتوجد هذه المحفزات لدى النساء – فهناك دائما كم من الاحتمالات تتنافس حول كونها فروض مسببة لهذه الأشياء – وعلى العلماء أن يختاروا التفسير الأكثر احتمالا.

ومن أجل الوصول إلى فرضية معينة فأن العالم في هذه المرحلة عليه أن يتحقق من صدقها من خلال اختبارها امبريقيا وبالنسبة للقائمين على الإثبات يقع عليهم عبء جمع اكبر كم ممكن من الدلائل لإثبات صحة الفرض وفي معظم الأحيان يمكن إثبات صحة الفرض بدليل واحد فقط وهو كاف تماما.

وبالنسبة للاختبارات الدحضة فان من خلالها يحاول العالم أن يثبت خطأ هذه الفرضية وكما يرى كارك بروبر فانه الأمر ليس بعدد المرات التي يحاول فيها العلماء إثبات الفروض وإنما يجب أن يثق العالم انه بعد ان اثبت صحة الفرضية من الممكن ببساطة ان يثبت خطأه في مرحلة قادمة ولهذا فإنه منذ اللحظة لإثبات صحة الفرض فإنه علينا العودة مرة أخرى لعنوان الدراسة ومحاولة إثبات خطأ الفرضية وكما يرى **Popper** فإنه قد تكون لديك معلومة مؤكدة بكون أن الاوز ابيض اللون، ولكنك في يوم ما قد ترى وتلاحظ انه هناك اوز اسود اللون وعليه تنهار الحقيقة الأولى في مقابل هذه الملاحظة الأخيرة ففي مجال العلوم الإنسانية لا توجد حقيقة قاطعة.

ولقد لخص اينشتين ذلك عندما قال انه في حين أن آلاف العلماء لايمكنهم إثبات صحة فرضية إلا أنه قد يكون هناك عالم واحد يمكنه أثبات خطاؤها.

ولهذا يجب أن يكون العلم بصدد بحث كل ماهو جديد وكل ماهو مشكوك فيه لإثبات صحة أو خطأ شيء ما مع عدم الجزم أيضا بالسلب أو الإيجاب.

المنهج Method

ان الاستقصاء العلمي يتطلب اختبار صلاحية الفرض وصدقه من خلال استخدام وسائل التجريب المختلفة وعليه فأن بعض فروع العلم مثل علم الفضاء وعلوم القياس تختبر الفرض من خلال ملاحظة الظاهرة في مجالها الطبيعي واغلب العلوم تتطلب التجريب.

ويتطلب التجريب العلمي تحديد الجانب المراد التحقق منه في الظاهرة من خلال تحديد متغيراتها وذلك تحت ظروف تحكم خاصة فى المعمل والفكرة تكمن في أن الفرض عبارة عن علاقة سبب وأثر بين متغيراته، حيث يمثل المتغير التابع السبب ويمثل المتغير المستقل التأثر أو النتيجة. ويجب أن يتم اختبار هذه المتغيرات بعزلها عن المتغيرات الأخرى، والهدف من التجربة هو قياس أو

حساب إلى أي مدى يمكن أن تقول أن العلاقة السببية بين متغيرات الدراسة قائمة بالفعل وذلك وفقا لما يراه كاف باين وآخرون ١٩٧٩ **Cuff Payne et al.**.

انه في التجارب المثالية يمكن للعالم أن يتحكم في كافة المتغيرات الهامة فيما عدا واحد فقط ويلاحظ ما الذي يحدث عندما يتغير هذا المتغير – فعلى سبيل المثال إذا ما أردنا أن ندرس تأثير بعض الكيماويات على نمو جذور الحبوب فإننا قد نركز على تأثير هذه الكيماويات على التجذر وفي هذه الحالة فان باقي العوامل يتم إبعادها مثل ضوء الشمس والماء والبذور والتربة ويجب ان يكون هذا هو حال كل العينات وفيما بعد فان التحقق من تأثير كم الكيماويات هو مجال آخر للاختبار لقياس معدلات التجزر المختلفة عند زيادة نسبة الكيماويات أو نقصها.

وعموما نحن لدينا أساليب الملاحظة والمقارنة التى تسمح لنا بالدخول فى معرفة العلاقات السببية المحددة.

وعليه فإن الوضعية تعد مدخل يركز على الخبرات لتفسير الواقع ويعد موضوع الاستقصاء هو بمثابة قصة حول ما يضعه العلماء بالواقع. وينتج الفرض من خلال الملاحظة ويتم اختباره من قبل الملاحظ وبالنسبة للظواهر الحسية التي تضع من قبل الملاحظ، وبالنسبة للظواهر الحسية التي تضع من قبل العالم بشكل طبيعي ليس لها خصائص محددة ولكنها خاضعة تماما لطاعة القوانين العلمية والمعرفة العلمية تدور حول النظريات لخبراء القائمين بعملية الملاحظة ومن يجندوهم لجمع البيانات.

والافتراضات العلمية والإجراءات المنهجية التي يفترض أن تعمل بكفاءة عالية في العلوم الطبيعية يجب أن يتم تطبيقها على الحياء الاجتماعية وهذه هي الأسئلة المحتملة.

أ- هل الحياة الاجتماعية مفهومة بشكل كامل ووجودي كعالم من الظواهر السببية ذات العلاقة بين السبب والنتيجة؟

ب- هل يمكن لنا أن نفسر السلوك الإنساني من خلال الاعتماد بشكل كامل على الأدلة الامبريقية؟

ج- هل يمكن للعلماء الاجتماعيين أن يوفقوا ما بين صرامة التجارب العلمية واكتشاف العالم الاجتماعي؟

د- والاهم من ذلك كله هلي يجب علينا أن نتجاهل نظرياتهم حول الواقع الاجتماعي والناتجة عن اعتبارات مرتكزة على الملاحظة؟

ومثل هذه الرؤية العلمية يجب أن تطبق حينما وجدنا الظاهرة وهل يمكن معها تطبيق كل أغراض وأهداف الإبستيمولوجيا وعلم الوجود وكيفية التفكير في موضوع الظاهرة؟

ولقد أجاب علماء الاجتماع الوضعيين على جميع الأسئلة السابقة بكلمة نعم ولكن منظرى نظرية الفعل أجابوا بكلمة لا.

علم الاجتماع الوضعي Positivist Sociology

علم الوجود Ontology

على الرغم من أن جوانب الفلسفة الوضعية تعمل من خلال تنوع المداخل البنائية إلا أن معظم المتشددين الوضعيين في علم الاجتماع من المنظرين الذين رأوا بوجود هوية وجودية بين الطبيعة والمجتمع ومنظرى نظرية الإتفاق وكما رأينا من قبل فى رؤية نظرية الإتفاق، انه على الرغم من أن الكائن البشري له نظرياته الخاصة حول عوالمه المختلفة والتي تمارس من خلال الوعي وهذه الكيانات غير الأمبريقية يمكن تجاهلها لصالح النظريات الملاحظة للقوى البنائية والتي بدورها تنتج المعتقد والسلوك.

وذلك تماما مثل الظاهرة التي بدورها تشكل طبيعة العالم ولكنها لا تختار كيف تكون ولا حتى عبر منظرى الإتفاق، فإن فعل الإختيارات، والتفسيرات، وأفكار الكائنات البشرية، تتم وفقاً لما يتراءى لهم للكشف عن طبيعة حياتهم الإجتماعية – وبالنسبة لنظرية الإتفاق لا نختار أن نصدق ونؤمن بالأشياء وإنما تقوم بما تقوم به ونتعلم كيف نمارس هذا الشيء وكيف نتعلمه ولكن أحكام ومحددات الثقافة هي التي تحدد أفكارنا وسلوكنا من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ولهذا فإنه بنفس الطريقة فإن الظاهرة الطبيعية هي نتائج قوانين الطبيعة ولكن أفكار البشر وأفعالهم تتكون من خلال قوى خارجية اجتماعية هي التي تشكل الأبنية الاجتماعية بسبب التشابهات الوجودية بين الطبيعة والمجتمع، وبالنسبة لمنظرى الإتفاق فإن هذا يعنى أن التفسير يجب أن يكون متشابهاً أيضاً.

علم المعرفة Epistemology

هنا نجد الحاجة ملحة للإثبات فى التجريبية هي مفتاح التأكد العلمي الاجتماعي كما هو الحال في العلوم الطبيعية، وبالنسبة لعلماء الاجتماع الوضعيين

فان الأصل هو الدلائل الامبريقية للحقائق الاجتماعية في حياة الشعوب. وكما سماهم دوركايم هو حصر كل ماهو معتاد من السلوك والمعتقدات وبما ان السلوك والمعتقد يحددان من قبل قوى بنائية خارجية ويجب علينا جمع الدلائل من خلال عد المرات التي يقوم بها الإنسان بأعمال وسلوكيات معينة في مسألة ما أو كيف يفكر في أشياء ما وما لدينا بعد ذلك هو الإحصاء التي تساعدنا في تفسير هذه القوى التي تنتج لنا المعتقدات والسلوكيات.

المنهجية Methodology

عندما تقاس الحياة الاجتماعية وتحسب إحصائيا فان العلم الاجتماعي يمكنه ان يقدم ما تقدمه العلوم الطبيعية عندما تستخدم منهج الاستدلال (الإستنباط) الفرضي، والفرضية يمكن اختبارها مقابل الأدلة الامبريقية، وعلى أيه حال فان الإجتماعيين الوضعيين يفضلون استخدام ثلاثة أدوات بحثية خاصة عند التوصل لهذه الأدلة وهي التجربة والملاحظة وأكثرها استخداما المسوح.

المناهج في علم الاجتماع الوضعي

Methods in Positivist Sociology

التجربة Experiment

توجد مشكلات واضحة فيما يتعلق باختبار الفروض الاجتماعية من خلال المنهج التجريبي.

أ- لو أن الأفراد يعلمون أنهم يخضعون للتجربة فربما يغيرون من سلوكهم طالما هم ملاحظون.

ب- لو أنهم تجاهلوا أنهم يخضعون للتجريب فهم قد تتغير سلوكياتهم وفي هذه الحالة قد تحدث مشكلات أخلاقية متعلقة بما يصلح للتجربة من عدمه.

ج- والتجربة يمكن فقط أن تعني بمستوى بسيط جدا من التفاعل.

وبالتالي معظم علماء الاجتماع القائمين بالبحث لا يمكنهم تجنب هذه المشكلات وعلماء الاجتماع لو أنهم مهتمون بالسلوك الأسري أو بالإنجاز فى التعليم أو بالسلوك في مجال العمل وهكذا، فسوف تظل هناك نقاط فارقة مثل ضرورة اقتلاع أفراد من الأسرة او أطفال المدرسة او بعض العاملين من أماكنهم الطبيعية الاجتماعية لملاحظتهم وإخضاعهم لظروف التجريب وللتوصل إلى دلائل إمبريقية لسلوكهم.

ومن الواضح أنهم سوف يمارسون سلوكهم الذي نهتم به ونركز عليه في كل ماهو محيط بهم في الأسرة او المدرسة او في مجال العمل وذلك بهدف كسب كل الأدلة المؤثرة على البناء الاجتماعي عبر الحياة الاجتماعية اليومية. ويستخدم علماء الاجتماع الوضعيون الملاحظة كتكنيك خاص لجمع البيانات.

الملاحظة Observation

وفي بعض مجالات مناهج البحث يوجد ميل لافتراض مؤداه ان استخدام تكنيك الملاحظة يقتصر فقط على العلماء الذين يعملون في مجال العلوم الاجتماعية حيث أنهم يلاحظون سلوك معين ويبحثون عن إجابة لهذا السلوك ومعنى وتفسير عبر الحياة الاجتماعية – ولكن على ايه حال هناك حد معين نحدده لعملية الملاحظة حيث أنها لابد أن تقتصر على عدد محدود يمكن مشاهدته للوصول إلى دلائل هامة وذات معنى ودلالة لإمكانية الحكم على الفرضية التي يتم اختبارها.

وبالنسبة للملاحظة بخصوص أغراض وضعية فإنها تستخدم فقط من قبل الانثروبولوجين حيث أنهم يميلون للوظيفية وأرائها ومايقمون بالتطبيق إنما يتم على جماعات صغيرة أو حياة الوجه للوجه في المجتمع خاصة بين الشعوب العائلية او العشيرية، والملاحظة بالمشاركة تعني انه لابد من مشاركة المجتمع في قضاياه.

فلقد قام مالينونفسكي عام ١٩١٤ بعد انتهاء الحرب متوجها إلى استراليا لمعايشة سكانها وبحث أوضاعهم إلا أنهم رفضوا ذلك ولقد حاول إقناعهم من خلال كبار العشائر والقبائل للسماح له بالإقامة إبان فترة الحرب في جزيرة تروبرياند، وهذه هي الخطوة الأولى التي تبدأ منها عملية الملاحظة بالمشاركة ويعد مالينوويسكي نموذجا للانثروبولوجية في مجال البحث.

وقريبا من الوطن هناك تجارب مشابهة للملاحظة داخل المجتمع المحلي سواء في الولايات المتحدة الأمريكية او المملكة المتحدة ولقد كانت دراسات طولية لمجتمعات صغيرة –ويلاحظ ان اختبار هذه المواقع الدراسية إنما ينم عن صعوبة التطبيق في كشف النقاب عن هذه الحياة الاجتماعية ولكن أي جماعات بسيطة يتم التطبيق عليها أنما تتطلب أيضا إجراء بعض المعالجات الإحصائية البسيطة – وبما أن هذه المجتمعات تعد مجتمعات ريفية إلى حد كبير فإنها وما يتبعها من مناهج البحث كانت شائعة الدراسة في كل من الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وذلك على يد كل من بانبري ووارنر **Banbury and Warner.**

وفي مناطق أخرى في علم الاجتماع البنائى فإن الملاحظة بالمشاركة اتجهت للإستخدام فقط فى الأبنية بشكل أكثر أو أقل مساواة مع المجتمع الصغير Small Community فعلى سبيل المثال كالعمل مع الجماعات على يد توم ١٩٦٣ وهاو بينونو ١٩٧٣ أو دراسة العصابات مثل عمل ويليام فوت هويت عن مجتمع ناصية الشارع (١٩٤٣) Street Corner Society وجميعها نماذج حديثة طبقت عليها الملاحظة بالمشاركة كأداة اثنوجرافية وهي أداة وصفية تستخدم فقط من قبل علم اجتماع الفعل، وكان علم اجتماع الفعل والانثربولوجيا الإجتماعية لهما باع طويل فى إستخدام الملاحظة بالمشاركة.

مشكلات الملاحظة لأغراض الوضعية

بالنسبة للباحثين الوضعين فان المشكلة هي كيفية الالتزام بالموضوعية بعيدا عن لب الموضوع أو القضية ولهذا فان حقيقة القوى الاجتماعية يمكن تقبلها. والملاحظة ليست قاصرة على جعل الباحث ينظر للواقع على انه مجرد فعل ولكنها تتطلب إضافات الباحث النظرية كخبير ولهذا فان الملاحظ الوضعي عليه اتخاذ قراران هما:

أ- انه إذا ما كانت المخاطرة بالموضوعية عبر المشاركة في معيشة الفاعلين عما إذا كانت ستؤثر فإنه يجب وضع حدود لهذه المشاركة.

ب- وإذا ما كانت المشاركة ستؤثر على سلوك الفاعلين فإنه يقرر الملاحظ إما أن يبلغهم بذلك أو يخفي حقيقة وسبب تواجده معهم.

وثمة أربعة بدائل متاحة في هذا السياق وهي:

أ- استخدام الملاحظة الخفية أو عدم المشاركة على الإطلاق.

ب- المشاركة من خلال الملاحظة الخفية.

ج- عدم المشاركة ولكن مع استخدام الملاحظة الخفية.

د- المشاركة من خلال الملاحظة المعلنة.

ولكن كل هذه البدائل لديها مشكلات خاصة بها.

- بالنسبة للبحوث الخفية -فإنها تزداد بها خطر المشكلة الأخلاقية بالنسبة للباحث. أ-ب.
- بالنسبة للبحوث العلنية – فإنها تتعرض لمخاطر تأثير الملاحظ. (ب – د) القضية المدروسة.

بالنسبة لبحوث المشاركة فإنها تتعرض لمخاطر الصدق الداخلى Internal Validity والصدق الخارجى External Validity وفى الصدق الداخلى، فإن المشاركة فى الأبنية الإجتماعية تعنى أن الملاحظ يلعب دوراً في نمط واحد أو آخر، وحينما يفعل هذا فإنه يجعل حضورها أو وجودها أكثر قبولاً من الفاعلين والخطر البحثي الذي قد يتعرض له هو أنه بعد ان يتعايش معهم سوف يرى الأمور من وجه نظرهم، ولا ينظر لها بشكل حيادي وبالتالي لن يكون قادراً على التعرف على النظام الاجتماعي الذي يعايشه ولن يستطيع تعريفه.

وبالنسبة للصدق الخارجى، فإن التهديد يكون من قبل إختيار الفعل فى البناء الاجتماعى سواء فى المشاركة أو الملاحظة، فالملاحظين المشاركين الوضعيين يحتاجون إلى سلسلة من الادلة من القوى البنائية الاجتماعية التى تشير إلى كل الابنية الاجتماعية المتشابهة. والمشكلة تتعلق بعملية التمثيل Representativeness فكيف يتأكد الملاحظ المشارك من اختيار هو أو هى كمثال ويكون ممثلاً؟ والمشكلة الثانية الأكثر حجماً للملاحظة وفقاً للاغراض الوضعية تتعلق بعدد الاشخاص الملاحظين، فهذه الملاحظة وسيلة غير كافية ولابد من البحث عن ادوات آخرى لقياس سلوك الاعداد الكبيرة لاختبار الفروض.

المسح Survey

في أغلب الأحيان تتم المسوح من خلال طرح الأسئلة بدلا من ملاحظة الأفراد بشكل مباشر، فالمسح يطلب من المبحوثين الإجابة على الأسئلة المتعلقة بحياتهم أو في بعض جوانبها، والفكرة هي تكمن في جمع كافة البيانات ثم تحويلها إلى أرقام عبر الإحصاء ثم تحليل الإجابات للوصول إلى أية دلالات أو لاستخلاص العلاقات الحرة بين المتغيرات وهذا يطلق عليه التحليل المتنوع أو المتعددMulti-Variate Analysis .

فعلى سبيل المثال نفترض أنك تقوم بدراسة أو بحث حول السلوك الانتخابى Voting فإن جانباً من هذه الدراسة تفترض وجود علاقة بين النوع والسلوك الانتخابى، ففي المسح تقوم بسؤال المبحوث (الحالة) حول كيفية القيام بالتصويت في الانتخابات السابقة – وبمجرد ان يتم دمج الإجابات مع بعضها البعض وفي هذه الحالة ومن خلال الإجابات يبحث الباحث عن كل إجابة تدعم فرضيته، ومنها قد تتوصل إلى أن (أ) نسبة من الرجال يصوتون لحزب التورى

المحافظ، و (ب) تمثل نسبة لحزب العمل، (ج) تمثل نسبة للحزب الديمقراطى الليبرالى بينما (د) يمثلون نسبة من النساء المصوته لحزب المحافظين (تورى) (ه) وتمثل نسبة من حزب العمل، (و) وتمثل نسبة من الحزب الديمقراطى الليبرالى. وهكذا وبالتالي يمكنك ان تضع يدك على العلاقة بين النوع والتصويت عبر التوصل إلى دلائل إحصائية تعبر عن هذه المتغيرات المحتملة.

وحتى لو كان ذلك فعليك أن تقرر لو أن هذه العلاقة سببية وعلى سبيل المثال ربما تجد ان النساء يصوتن أكثر من الرجال وهذا لكونهن نساء وأن السبب الآخر فقد تكون النساء لا يعملن في وظائف او مهن صناعية وكما قلنا من قبل هناك العديد من الفروض ارتباطا بالمهنة والتصويت ويستنتج الباحث ان هذا الفرض هو الأولى بالتفسير.

ومثلما هو الحال في جميع العلوم فان مهمة الباحث هي اختبار أكبر عدد ممكن من الفروض والتفسيرات بهدف التوصل إلى الروابط الوثيقة بين المتغيرات ولهذا أطلق على هذا الأسلوب التحليل متعدد الجوانب وبالتالي فان اختبار اقرب التفسيرات يعد قائماً على أدلة وليس بمحض الصدفة.

ونتيجة هذا التحليل المتعدد في علم الاجتماع الوضعي فإنه يأخذ نفس شكل النتائج في البحوث العلمية عبر الجداول والرسوم البيانية والأشكال البيانية المجسمة وهي معبرة عن العلاقة بين المتغيرات وفي بعض الأحيان فإن الدلائل التي نرغب في التوصل إليها بهدف اختبار الفروض تحدد من قبل معاملات إحصائية محددة أو من قبل أساليب إحصائية كالإحصاء الرسمي الحكومي وهي إحصاءات تم جمعها من قبل مؤسسات وكيانات متنوعة ومخصصة لهذه الأغراض – ويتم تنفيذ التعداد كل عشرة سنوات وهو مصدر أساسي ورئيسي للإحصاءات الأساسية عن السكان في بريطانيا بوجه عام وبالإضافة إلى ذلك هناك كم هائل من الإحصاءات لشرائح مختلفة وهي تستخدم لأغراض بحثية مثل الإحصاءات الجنائية والإحصاءات الصحية والتعليمية وإحصاءات الطلاق وجميعها تستخدم لتخدم الفروض والتفسيرات العلمية.

وفي معظم الأحيان قد لا تتاح الإحصاءات الرسمية لبعض القضايا المتعلقة بالأفكار او بالسلوكيات التي يهتم بها علماء الاجتماع وفي هذه الحالة فان المسوح تطبق للتوصل إلى دلائل، علما بان بعض هذه البيانات قابل للتحليل وبعضها لا.

أشكال المسوح.

كما سبق وان ذكرنا أن أسهل طريقة يمكن بها تحديد نوعية التحليل الإحصائي المناسب هي طبيعة بناء المسح فبعض المسوح تطبق من خلال استخدام أسئلة مطبوعة في استمارة استبيان عادة ما ترسل بريديا. ومن الواضح أن كل الاسئلة فى الاستبيان **Questionnaire** تتبع نفس الاسئلة بالضبط لكل مبحوث والتى تكون مقننة تماماً **Structured**.

وفي المقابلة التي عادة ما يتم الاعتماد عليها فى المسوح ويتم توجيه الأسئلة لكل مبحوث بنفس الطريقة وتتضمن أسئلة مفتوحة النهايات وأسئلة مغلقة النهايات وفي هذا النوع فإن المبحوث لديه بدائل عديدة يختار فيما بينها.

وفي الأسئلة المفتوحة يجيب المبحوث بطريقة شفهية وليست كتابية.فعلى سبيل المثال:-

لو أن هناك غداً انتخابات عامة فلمن سوف تصوت له؟

- حزب المحافظين،
- حزب العمل،
- الحزب الديموقراطى الليبرالى،
- حزب التحالف،
- الحزب القومى،
- أحزاب أخرى....
- لا أعرف،
- صغير جداً على التصويت،
- سوف لا اصوت لاحد،
- رفض

ولكن فى الاسئلة المفتوحة النهاية، فالمبحوثين يجيبون على اى طريقة يحبونها، والاسئلة المفتوحة يتم تسجيلهافى موقف المقابلة. فعلى سبيل المثال، متى سمعت عن شخص ما ينتمى إلى الطبقة العليا، فما نوع الشخص الذى تعتقده؟ وما نوع الافراد الآخرون الذين تعتقد أنهم فى الطبقة العليا؟

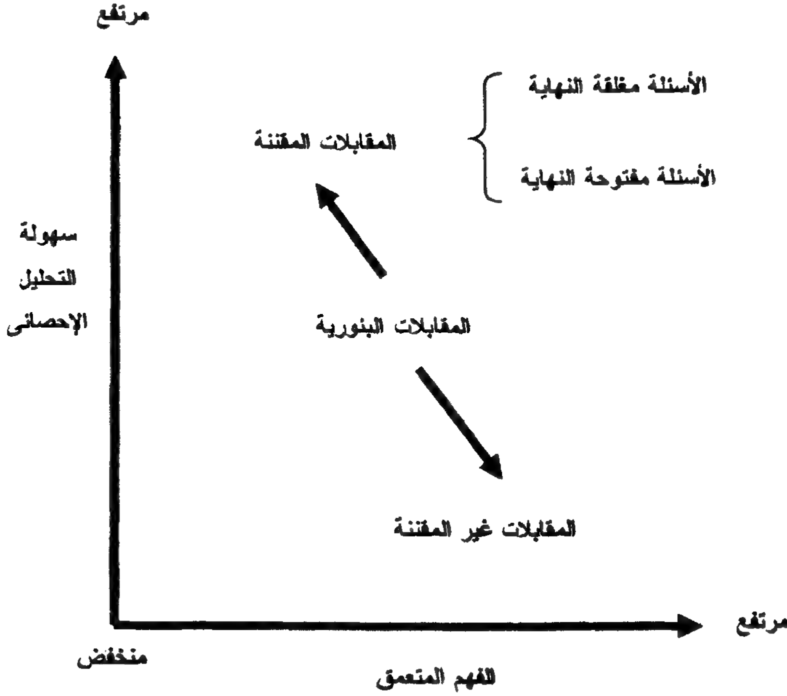
وبالنسبة للأسئلة مغلقة النهايات فهي تسمح للباحث بتصنيفها وتكويدها لسهولة اختبارها إحصائيا من خلال الكمبيوتر وهذا يسمح بالتحليل المتعدد أو المتنوع فعلى سبيل المثال، كيف يكون معيار انتماء الفرد للطبقة التي يوجد بها؟

١. بالميلاد فيها- بالميراث- الاسرة.
٢. بالقدرة الفطرية.
٣. بالعمل الجاد والانجاز.
٤. العمل- الوظيفة- المركز.
٥. التعليم.
٦. الدخل- مستوى المعيشة.
٧. ممتلكات آخرى مثل ملكية الاسرة.
٨. آخرى تذكر.

وهذا النموذج من الأسئلة المقننة لايسمح للمبحوث بأن يجيب بأية معاني أخرى أو حتى لابتداع طريقة للإجابة، وعلى أية حال فأن فهم المبحوث بشكل أعمق يبدو عملية هامة جدا أكثر من مجرد تحليلات إحصائية، وعليه فان المقابلات يفضل استخدامها في هذه الحالة - وتدور المقابلة المتعمقة حول موضوع أو قضية معينة ولكن ليس هناك ترتيب ثابت للأسئلة ولاتوجد محاذير إلى أي مدى يصل هذا التعمق في القضية او موضوع الدراسة. والمقابلة غير المنظمة ليست إلا حديث موجه وفي بعض الأحيان تُستخدم من قبل الوضعيين من اجل تحقيق أهداف كشفية أو استطلاعية حينما يكون الباحث ليس لديه معلومات كافية عن الموضوع والمقابلة الغير منظمة كافية للحصول على أكبر قدر ممكن من البيانات والتي يمكن بعدها تنفيذ مسح ما.

وثمة سبب آخر حول لماذا المقابلات المقننة كاملة اقل استخداماً؟ وهو أن تلك المقابلات لا تقدم الكشف الكافي عن الاتجاهات والأفكار، لأن الأسئلة مغلقة، ولكن المقابلة غير المقننة تقدم قدراً أعمق من الفهم للبيانات المتحصل عليها من الافكار اكثر من السلوك باستخدام المقابلة غير المقننة.

ومن اجل الفهم الاعمق خاصة للافكاروالاتجاهات يمكن الاختيار من الرسم التوضيحى مثل هذا:-



أسلوب العينة Sampling

وهناك عنصر آخر يحدد طبيعة المسح المطلوب تنفيذه، وهو موضوع البحث ذاته. وعادة ماتتم المسوح على عينات سكانية كبرى أو ربما المدينة أو الدولة ككل أو ربما كل العملاء أو ربما كل المستهلكين لمنتج معين أو لكل مشاهدي التليفزيون. وفي مثل هذه الظروف فإن الضرورة تقتضي سؤال فئة ممثلة فقط لأنه يستحيل سؤال كل أفراد المجتمع أو ماشابه والمطلوب هو اختيار عينة ممثلة من المبحوثين وفي معظم الظروف يجب ان يتم اختيارها وتحديد حجمها بشكل عادل لتحقيق مبدأ التمثيل، وهذا أيضا يشجع على استخدام المقابلة المقننة حيث أنها تستهلك وقتاً اقل من المقابلة غير المقننة.

أشكال العينة Forms of Sampling

أ- العينة العشوائية البسيطة Simple Random Sample

هي التي من خلالها يكون هناك فرصة لكل مفردة للتمثيل في العينة ولكن كيف يتم تطبيق هذا النوع من العينات يتم ذلك من خلال اختيار الرقم المطلوب من الأسماء المراد استبيانها دون تحديد أي مؤشر آخر للاختيار.

ب- العينة الطبقية العشوائية Stratified Random Sample

وهي نوع من أنواع العينات العشوائية ويتم سحبها من شرائح مختلفة من البشر او من السكان ويمكن استخدام هذا التكنيك لو أن الباحث شعر ان العينة العشوائية البسيطة لن تضمن تمثيل بعض الفئات الهامة من البشر ويمثلون لدى الدراسة عناصر هامة – فعلى سبيل المثال لو ان لدينا (٥٠) اسم من المسجلين في قوائم الانتخابات في المدينة والذين تزيد أعمارهم عن ١٨ سنة يمثلون آلف شخص أو أكثر، فإننا يجب ان نراعى في اختيار من هم مسجلون أن يمثلوا اتجاهات سياسية وأقليات دينية. ورواد من كبار السن او المهاجرين إلى المدينة.

وعلى أيه حال إن تحديد العينة العشوائية البسيطة كان يمكن ان يكون بديلا لو ان الدراسة لا تتطلب تمثيل فئات مختلفة.

ج- العينة بالحصة Quota Sample

وهو تكنيك يستخدم عادة من قبل الباحثين في مجال السوق او الصحف أو التليفزيون، وهذا يتطلب منح كل فرد في المقابلة حصة من التمثيل وذلك من خلال تحديد شرائح محددة للدراسة من الذكور والإناث والكبار والصغار، وهكذا وفقا لحجمهم الحقيقي في المجتمع مع ترك الحرية الكاملة للمبحوث للموافقة من عدمها.

وبوجه عام يعد الهدف من جميع أشكال العينات هو تأكيد تمثيل المجتمع المدروس تفاديا للتحيز، ويجب ان تكون الفئة المدروسة ممثلة لحجم المجتمع قدر الإمكان لأنه هناك آخرين لن يتم معهم إجراء المقابلات – علما بأن إجراء المقابلة مع شخص معين وإدماجه ضمن للعينة عن قصد يعد تحيزاً لصالح هذا الشخص.

ولتفادي التحيز فان ثمة اعتبارات يقوم بها القائمين بالمسح وهي:

١- تحديد إطار سحب العينة من خلال الوصول إلى قائمة السكان التي سيتم من خلالها سحب العينة.

٢- يجب أن يتم تحديد حجم العينة بشكل واضح وأن تكون ممثلة للمجتمع.

٣- إن تنفيذ المسح يتطلب التعامل فقط مع الفئة المحددة ولو أن المحاولة الأولى لم تتاح فيها الفرد الأول فأنه لا يمكن للباحث أن يقابل الشريك سواء كان ذكر أو أنثى أو حتى الجيران ولكن يجب إعادة المحاولة لثلاث مرات أو يتم استبدال المفردة بشكل كامل بمفردة أخرى -ولتحقيق هذا الأمر بشكل مثالي فأن هذه المفردة الجديدة تحسب ضمن حجم العينة الأساسي ولا تضاف عليه.

٤- ولكن ثمة بعض الحالات و التي بالفعل أن يستطيع فيها الباحث الوصول إلى المفردة وهنا لايمكن استبدالها مثل وفاة المفردة أو الانتقال إلى منزل جديد أو الخروج في إجازات أو رفض المبحوث لعملية المقابلة من الأساس...إلخ) وفي المسوح البريدية يمكن القيام باستبيان إعداد اكبر من تلك التي تتم عن طريق المقابلة.

ويجب أن تتم المقابلة في اقصر فترة زمنية ممكنة قدر الإمكان، ولهذا تعد البحوث بمثابة لقطة فوتوغرافية للسكان مع العلم أن الإطالة في إجراء المقابلة تؤثر على الوقت وتؤثر على نتائج البحث.

وبفرض أنه تمت مراعاة جميع الاعتبارات السابقة لتجنب التحيز فلقد أشار علماء الاجتماع الوضعيون على أن المسح بالعينة يعد أداة لا غنى عنها لجمع البيانات في مجال علم الاجتماع ولأنه يسمح بأقصى قدر ممكن لاختيار أقلية ممثلة للمجتمع، ولان النتائج المتحصل عليها من الاستبيان يمكن تحليلها شأنها في ذلك شأن العلوم الطبيعية التي من الممكن إخضاعها للتجربة المعملية.

علم الاجتماع التفسيري Interpretive Sociology

إن المنظرين السلوكيين هم ضد الوضعيون فالعلماء المفسرين يرون الأشياء بطريقة مختلفة تماما حيث يرى الوضعيون أن العلم يجب أن يستخدم لتفسير الحياة الاجتماعية وذلك نظرا لأنه هناك كم من المتشابهات بين المجتمع والطبيعة ولكن السلوكيين على العكس تماما فهم يرون أن الحياة الاجتماعية لاتشبه الطبيعة في شيء وان علم الاجتماع يجب أن يكون بعيداً عن مصاف أى محاولة علمية بهذا الإسلوب.

علم الوجود Ontology

بالنسبة للعلماء السلوكيين فإن سلوك الكائن الحي لايمكن أن يحدد بشكل وضعي ولكنه هو نتاج لكيفية تفسير الشعوب للعالم من حولها وبالتالي فان السلوك المناسب يتم انتقائه في ضوء تعريف الناس للمواقف التي يمرون بها.

علم المعرفة Epistemology

ينتقل الموضوع من اهتمام الوضعيين بنظريات ملاحظة الصدق الامبريقى إلى الاهتمام بفهم نظريات الفاعلين، وإن إدراك وتفسير الواقع يتم من خلال المشاركة في المواقف الاجتماعية، ولقد أصبح هذا هو الشغل الشاغل لعلم الاجتماع، وطبقا لنظرية الفعل فلأن السلوك متأصل في التفسيرات الواقعية للفاعلين فإن البحث في مجال علم الاجتماع يجب أن يعني بتفهم هذه التفسيرات.

المنهجية Methodology

ويمكن استخدام المنهج في حالة كون الفرد إنسان حيث يوضع في مكان الفاعلين ويتم تحديد النظريات المفسرة لهذا السلوك ويطلق على هذه العملية الفهم **Versthen** وهذا يختلف تماما عن الموضوعية التي تضاهي الدلائل الامبريقية، وبالنسبة لعلماء نظرية الفعل فأن علم الاجتماع لايجب أن يكون علمي بحت لأن الحالة لدى الفاعلين تكمن في فعل الأفراد وليست هي عملية إمبريقية – والعلماء الطبيعيين لا يستخدمون اساليب صعبة فى دراسة الصخور أو الذرة كي يصلوا إلى تفسير السبب والنتيجة حول الظاهرة بشكل قائم على الدلائل الإمبريقية، وفي الحقيقة ثمة طريقة واحدة فقط هي التي يمكن من خلالها أن يصل التفسير إلى مرحلة العلم الطبيعي وذلك من خلال الحفاظ على المسافة بين الباحث والمبحوث، وهذه الموضوعية بالنسبة للمنظرين من اصحاب نظرية الفعل، فلأننا جزء من الحالة كبشر فإننا بالفعل غير قادرين على تفهم أسباب قيامنا بهذا السلوك.

ومن هذا المنطلق فان تناول البحوث في مجال علم الاجتماع لايختلف كثيرا عن تناول معيشة الفاعل الاجتماعي في العالم، فان كل هذا التفاعل بين البشر يتضمن أن تضع نفسك مكان الآخرين وأن يعيش ويتفاعل كل واحد مع الآخر ونحن نستخدم الفهم فى كل وقت من حياتنا لكى نعرف كيف نتفاعل مع افعال (الآخرين) شخص ما لكى نفهم هذه الافعال.

ولهذا فانه على النقيض فان هدف الوضعيين هو قياس البيانات الكمية التي تم جمعها، ومن هم ضد الوضعيين فهم يهتمون بالجوانب الكيفية في البيانات أو البيانات الاثنوجرافية، ونحن سوف نلقي الضوء على مناهج الاثنوميثودولوجية والتفاعلية الرمزية بصورة منفصلة،والفهم يعتبر المبدأ التفسيرى للباحث التفاعلى والموضوع المستخدم فى الاثنوميثودولوجى.

المناهج الخاصة بعلم الاجتماع غير الوضعي

التفاعلية الرمزية: إستخدام الفهم

المقابلة **The Interview** جميع أشكال التفسير تتطلب جعل الأشياء لها معنى ولكن إصدار التقرير على أن شيء ما له معنى فإننا بعد البحث عن سبيل اتصالي ما يمكن من خلاله إيجاد هذا المعنى وهذه الوسيلة الاتصالية هي اللغة. ولهذا السبب فإن البحث التفاعلي يهتم دائما بما يقوله الناس، ومن الواضح ان الحديث يمكن ان يحل محل المقابلة، ولكن على حد سواء فان الوضعية تستخدم المقابلة والبحث عن أدلة حول الأفكار والأنشطة التي تقرر أننا سوف نتقصى عنها ولكن هذه الحالة نحن لانقوم بتقديم أسئلة إيحائية لجذب المبحوث لمناطق معينة – ولكننا نرغب في ان يقودونا هم إلى حيث يريدون – ولو انه تم استخدام المقابلة في التفاعل الرمزي فانه في معظم الأحيان يستخدمها بشكل غير مقنن قدر الإمكان.

بالنسبة لمعظم التفاعليين الرمزيين فانه حتى لو لم يكن هناك حديث غير منظم بين العالم الاجتماعي والفاعل فان ذلك يعني أننا يجب ان نتجنب خطرا ما. يتمثل في توجيه الاسئلة المحرمة أحيانا او من أي نوع فبوجود الباحث تماما وبالفعل مثل تأثير الملاحظ على سلوك الملاحظين وبالتالي فان القائم بالمقابلة قد يؤثر بشكل ما أو بآخر على سلوك المبحوث او على ما يقوله.

وفي الآونة الحديثة يجد ان علماء النفس الاجتماعي وعلماء الاجتماع قد قدموا دلائل واضحة تتعلق بان المبحوثين يميلون بالفعل إلى إعطاء او تقديم إجاباتهم على الأسئلة المتعلقة بسلوكهم ومعتقداتهم ليس لان هذه الإجابات تعبر عن الحقيقة ولكن لأنهم يرغبون في سماع إجاباتهم على الأسئلة الموجهة لهم. ويرى الرمزيون انه هناك مقابلات عامة لها تأثير على المبحوثين أكثر من ذلك وعليه تتوقع ان يكون هناك نقص في إبداء الرأي او تحيز ما حتى في كل المقابلات العادية.

ويعد هذا الرأي قائما على معرفة كما هو مفترض نظريا في كون ان كل حالة أو مفردة حتما ستشارك رمزيا. وبما أننا وصلنا إلى انه هناك آخرون سوف يفسرون سلوكنا وقدراتنا بما يسمح لنا تنظيم هذه التفسيرات لكى تتناسب مع رؤيتنا الخاصة.

كما إننا نستخدم قدراتنا الانعكاسية بهدف تقديم الشخص بالشكل الذي يجب ان يراه الآخرون به.

ولو أن هذا جزء من التفاعل الاجتماعي فان التفاعليين يرون أنهم يتوقعون بالكاد ان هذا لو حدث فإننا لايمكن أن نطلق على هذا الحوار مقابلة وفي الحقيقة بما ان المقابلات تتم بين أشخاص أغراب تماما عن بعضهم البعض فان هذا الانطباع يتم التحكم فيه كما قال جوفمان ليكون تفاعلاً أكثر من كونه حوارا بين أشخاص متقاربين من قبل. وبالتالي نحن نتوقع الاستجابات على الأسئلة كما يرغب المبحوثون في قولها. علما بان هذا الذي يريدوننا أن نسمعه هو ما سوف نفسره. ولكن ياترى ما الذي يتوقعوه منا كأفراد وما الذي سوف يقرر ان نكون؟

وعلى الرغم من انه هناك البعض ممن يرغبون في ان نفكر فيهم تفكيرا سيئا وقد يحرجوننا او قد يبحثون عن سلوك ما لكي يحظى بإعجابنا وتأييدنا وهذا يعني ان الشيء الأساسي الذي يفسر المقابلة هو مايسمى بالرغبة التأثيرية **Desirability Effect** حيث يرغب المبحوث او المبحوثة في كسب تأييد الباحث

وبالنسبة للكثير من التفاعليين تعد هذه المشكلة معضلة حقيقة في جميع المقابلات التي تمثل مصدر البيانات وهذا هو الحال إذا ما تم استخدام الاستبيان بالمقابلة.

ولهذا السبب فان كثير من التفاعليين يعتبرون ان توجيه الأسئلة يجب ان لا يصاحبه أي تأثير يذكر فهو مجرد تكنيك لجمع البيانات.

بينما يرى البعض انه بدلا من ذلك يستخدم أسلوب **Vertehen** للحصول على نتائج منطقية. فالباحث لكي يتفهم ويقتنع بوجه نظر المبحوث فانه عليه ان يضع نفسه مكانه ويتفهم رؤيته.

الملاحظة بالمشاركة (الاثنوجرافية)
Participation Observation (Ethnography)

ان السبب الرئيسي وراء استخدام الملاحظة بالمشاركة على حد سواء شأنهم في ذلك شان الوضعين هو رغبتهم في كشف النقاب عن القوى البنائية

المحددة للسلوك والمعتقدات وهذه الدراسات خير مثال على استخدام الملاحظة بالمشاركة دراسة هواردبيكر عن الحياة فى المدرسة الطبية ودراسة جوفمان عن الأولاد ذوى الزى الابيض(١٩٦٣م)، والدراسة الزائعة الصيت عن الحياة فى مستشفى الامراض العقلية (١٩٦٨) ولقد قدمت هذه الدراسات رؤية حقيقة لرغبة التفاعليين في تفهم سلوك المبحوثين والاستجابة لمتطلبات المشاركة.

ولقد كتب بيكر(١٩٦٨) أن هدفي الحالي هو القيام بعمل ميداني في شارع إليزابيث وهي محاولة لتعلم العالم الاجتماعي داخل إحدى المستشفيات حيث أقوم بمشاركة طبيب داخل المستشفى كمساعد خاص، ولقد تجنبت دور المريض حتى يتسنى لي متابعة الحياة الاجتماعية، ولقد قضيت يوماً في تجنب أي اتصال مع فريق العمل ولكى اندمج مع المرضى وأنا لم انم في مواجهتهم إلا ان إدارة المستشفى كانت تعلم اسمي الحقيقى ولقد ظللت معتقداً ومؤمناً بان جميع نزلاء المستشفى يماثلوا السجناء إلا ان إقامتهم كجماعة داخل المستشفى أصبح لها معنى، وأي محاولة للتقرب والتعرف على هذا العالم ماهي إلا التحاق بصحبه هؤلاء وان تصبح فاعلا مثلهم.

ويقوم الباحث بالملاحظة بالمشاركة من خلال تسجيل كافة البيانات بمشاركته في الحياة اليومية للجماعة او المنظمة المدروسة فهو يلاحظ مبحوثيه ليرى المواقف الحياتية اليومية التي يعتادون القيام بها، وكيف يمارسوها وقد يتدخل في هذه المواقف ليحدد تفسيراتهم لها حتى ولو كانت أحداث كبرى.

وفي كلية الطب توجهنا مع الطلاب لحضور المحاضرات للسنتين الاولتين واللتان تتضمنان دراسة أسس العلم والعمل في المعامل ولقد تتبعنا هؤلاء الطلاب في المنازل التي يسكونها، ووقفنا من خولهم لنستمع على اختباراتهم الدراسية، ولقد تابعنا هؤلاء الطلاب في سنوات الطب وحتى استعداداتهم ليكونوا أطباء وتابعنا تفقدهم لمرضاهم سواء كان الكشف شفهياً أو فعلياً، ولقد تناولنا معهم الطعام وتجاذبنا أطراف الليل معهم، كما أننا أقنعنا الجدد والمقيمين بقدرات هؤلاء الأطباء العلمية الطبية والتعليمية، ولقد جلسنا مع مجموعات صغيرة من هؤلاء الأطباء لمدد تتراوح ما بين أسبوعين إلى شهريين وعايشناهم معايشة كاملة.

ويعتمد التفاعليون على التفهم الكامل للحقائق غير الامبريقية فسوف يهتمون بمعنى السلوك. وهذا شيء بسيط يمكن القيام به إذا ما وضعت نفسك ككائن بشري في مكان الآخرين.

واستنتاجا من هذا التعايش فانه حتى الآن فانه يبدو من المعقول ان التفاعليين يحبذون الملاحظة بالمشاركة بالإضافة إلى المقابلات غير الرسمية.

ولكن الاكتفاء بذلك فقط يضع التفاعليون أمام مشكلات متعددة منها ان الباحث التفاعلي يجد نفسه منغمسا في عالم المبحوثين ولن يستطيع الانتهاء من عمله إلا إذا شعر بالرضي الكافي عن أداؤه كما قال جوفمان ولكن كيف يمكنهم أقناع الآخرين بأنهم قد انتهوا بالفعل وكيف هؤلاء العلماء ان يثبتوا أنهم قد حصلوا على دلائل وخبرات متعلقة ومرتبطة بموضوع الدراسة. وعلى الرغم من ان فيبر هو رائد عملية الفهم **Verstehen** وهو يؤكد انك لا تحتاج لأن تكون قيصر لكي تفهم قيصر فأنه الرغبة في الإثبات واظهار الصدق لفهم الآخرين وان الباحثين كانوا بالفعل متواجدين في هذا السياق فأنهم قد يلجئون إلى استخدام عينات مسحية لعرض نتائج رقمية.

ومن بين القائمين بالتفسير فان المنهجيين الشعبيين لا يواجهون هذه المشكلة على الإطلاق فى الاثبات، ولماذا هذا؟

المنهجية الشعبية. تفسير الفهم

وتعني المنهجية الشعبية أن القيام بالبحث في مجال علم الاجتماع ليس أكثر او اقل من انجاز بارع لدراسة حياة اجتماعية من قبل أعضاء في العالم الاجتماعي، ويستخدم هؤلاء الآخرون المعرفة الفطرية للحس الجمعي **Common-Sense** الذي يمكنهم من تفهم المبحوثين وهم في ذلك يستخدمون النظريات الاجتماعية، ولكن في حالات أخرى هل للفهم الكامل أن يعطي الرؤية الشاملة للشئون الصغيرة والأشكال البسيطة من التفاعل – وبوجه عام يعد التفهم مجرد قدرة شخصية لإعطاء معنى للأشياء والأحداث. ولهذا فبالنسبة للمنهجيين الشعبيين عليهم الربط ما بين البحث وطبيعة الموقف الاجتماعي المدروس وعليه فإننا من الممكن أن نصل إلى التفسير الكامل للموقف الاجتماعي.

ولهذا وكما رأينا فى الفصل السادس، لماذا تغير أداء الأثنوميثودولوجيون المركز والمهتم بالمشروع الاجتماعى بوصفهم أعضاء فى الوسط الاجتماعى، إن علماء الاجتماع يعتقدوا أنهم لن يستطيعوا بأى حال من الاحوال تقديم تفسيرات مؤكدة عن أسباب الظواهر الاجتماعية. إلا انهم يستطيعوا كشف الاجراءات

والطرق التى عن طريقها يعطى البشر معنى للمواقف او الأحوال التى يجدون أنفسهم واقعون فيها.

بالتأكيد وبما إن البحث الاجتماعي هو مثال أخر على دقة تلك النشاطات، فان عمل البحث نفسه يمكن أن يتخد كبيانات. وبالرغم من أن علماء الاجتماع لن يستطيعوا التوصل لاى نتيجة أخرى سوى تفسير ذاتى للحياة الاجتماعية، فهذا لا يعنى عدم استطاعتهم وصف كيفية توصلهم لوجهة النظر تلك باختصار، وبدلا من استخدام الفهم **(Verstehen)** كأداة مستخدمة اجتماعيا لفهم وتفسير معانى الفاعلين، أصبح الموضوع – هدف البحث – سواء استخدمه علماء اجتماع أو غير علماء اجتماع.

كيف يذهب علماء المناهج فى الكشف عن المناهج التى يستخدمها البشر لفهم بعضهم بعضا؟

بالرغم من اختلاف ممارسيه فيما بينهم حول كيفية القيام بذلك.

التجربة: The Experiment

كما رأينا فى الفصل السادس، فى التجربة الاثنوميثودولوجية النموذجية، فإن التوقعات للمعرفة الفطرية للأعضاء بسلوك الآخرين مرتبك أو مشوش بشكل متعمد، وذلك لتوضيح أنواع الأساليب التى يعتمد عليها البشر لفهم المواقف الواقعين فيها.

وفى تجربة أخرى شهيرة لجارفنكيل عام ١٩٦٧، وعلى سبيل المثال صدرت تعليمات للطلاب بالتظاهر بكونهم نزلاء فى منازلهم، فى مواجهة علاقات أقاربهم يتصرفون كغرباء حيث توقع**garfinkel** ان بقية أفراد العائلة قد تصرفوا بطريقة غريبة فى كل حالة. وذلك لحرمانهم من احدى ضروريات الحياة الاجتماعية.،والتوقع بأن الأخرين سوف يؤكدون أن العالم هو كما تعتقد. حتى وإن وجد شك مؤقت فى المشاركة فى المهمة الدائمة على تأكيد حقائق الكينونة، وفى تلك الحالة،فإن قضاء (١٥) دقيقة فى رفض التصرف بطريقة تؤكد العلاقة الأسرية، لابد وان تؤدى إلى الحيرى والأسى للمشاركين الأخرين فى هذا الموقف.

ملاحظة المشاركين / "الإثنوجرافيا":

يزعم علماء الإثنوميثودلوجيا الأخرين أهمية وفوائد الوصف أو "الاثنوجرافيا" كما يطلقون عليها، للوسائل التى يعملها البشر لاختفاء معنى للمواقف

الاجتماعية اعتمادا على الملاحظة. ويرتبط ذلك بأغلب الأمور الدنيوية، المسلم بها. ويعد ملاحظات "فن المشي" أحد أشهر تلك الاعتبارات. والفكرة هي إظهار أنه حتى في كفاءة القدرات المسلم بها،فإن الكائن البشرى يعمل على تحقيق إنجاز إجتماعى من النوع المعقد.

تحليل المحادثة: Conversational analysis

فيما يتعلق بأن اللغة هي الأسلوب الرئيسى الذى يستخدمه البشر لبناء عالمهم الاجتماعى، فإن وصف كيفية إعمال هذا الأسلوب يمثل بؤرة إهتمام الإثنوميتودولوجية، وهذا هو المعروف باسم "تحليل المحادثة". وتعد دراسة **harveysacks** للانتحار (١٩٦٧) مثال جيد لهذا الطريق لأساليب الأعضاء. كما تظهر أن الاعتبارات الإثنوميثودولوجيا للأنشطة الاجتماعية تحتمل قدرا قليلا من التشابه أولا تتشابه نهائيا مع اعتبارات نفس الأنشطة من منظور أى نظرية أخرى.

ولم يكن ساكس فى بحثه مهتما بالانتحار بأى حال من الأحوال، كما فى الدراسات الإثنوميثودولوجية الأخرى، فإن الأنشطة المحددة الواقعة تحت مجهر الفحص مفيدة فقط لكونها مجالات يمكن الكشف عن الموضوع الحقيقى فيها - كيف يتم إنجاز الحياة الإجتماعية - هذا، وقد أجرى**sacks** بحثه عن طريق فحص تسجيلات المكالمات الهاتفية المسجلة بين الشخص المحتمل إنتحاره والموظفين فى مركز الوقاية من الانتحار. وتمثل المكالمات الهاتفية الجهد المبذول من المتصلين لإيصال بأسهم للموظفين في المركز. وبالنسبة لساكس أظهرت تلك المكالمات كيف:

أ- توصل كل من المتصلين والموظفين لفهم بعضهم البعض.

ب- كان لزاما على ساكس نفسه الانخراط فى نفس النوع من الأساليب العقلية وذلك لفهم معانى التسجيلات.

تلخيص العلاقة بين النظرية والمنهج فى البحث الوصفى والبحث التفسيرى: The relationship between theory and method in positivist and interpretive research

والمثال على ذلك، دراسة ماكسويل اتكنسون عن الطب الشرعى وتصنيف الوفيات على أنها حالات انتحار: التغير فى المنظور كميزة لعملية البحث.

أثناء إجراء بحثه فى الانتحار غير اتكنسون موقفه النظرى تماما باستخدام قصة اتكنسون نفسه عن تطوره النظرى، وبتعريف أنواع التأثيرات على تطوره،

يمكننا أن نلقى الضوء على العلاقة بين النظرية والمنهج فى علم الاجتماع، وعلى الفرق بين الوضعية الايجابية والوضعية المضادة لاجراءات البحوث الإجتماعية

المرحلة الأولى: الوضعية Positivism

أهتم اتكنسون فى بداية بحثه بإكتشاف الأسباب البنائية للانتحار **Structural Causes**، وعلى هذا فقد انخرط فى البحث الوضعى العادى.

وكما رأينا من قبل،فإن معظم البحوث الوضعية تنطوى على تحليل الإحصاءات التى تم جمعها عن طريق المسوح الاجتماعية. ولكن نتطلب دراسة الانتحار توظيف طرق مختلفة لتلك الأدلة التجريبية. هذا وقد استخدم ايميل دوركايم فى واحدة من أول الدراسات والتى تعد إلى وقتنا الحاضر مشهورة.

إحصائيات رسمية للإنتحار لأعوام (١٨٦٦-١٨٧٨).

الإنتحار عند "دوركايم": Durkheim's Sucide

بفحص تلك الإحصاءات، يمكن مباشرة استخلاص ثلاثة استنتاجات:

(١) فى المجتمعات الواحدة يظل معدل الإنتحار ثابتا بشكل ملحوظ.

(٢) يختلف المعدل باختلاف المجتمعات.

(٣) يختلف المعدل بين الجماعات المختلفة فى المجتمع الواحد.

ووفقا لدوركايم ١٩٧٠، فإن الإستنتاج الوحيد الممكن إستخلاصه من ذلك هو أن للانتحار أصول هيكلية أو بنائية، أى أن التغير فى معدل الانتحار يعكس التاثيرات البنائية المختلفة على أعضاء المجتمعات المختلفة وعلى الفئات المختلفة داخل المجتمع الواحد.

وهذا مايؤدى لهذا الاستنتاج العام عن طريق فحص الإحصاءات، وقد افترض دوركايم فروض أكثر تفصيلا للطريقة التى تحدد الانتحار هيكليا أو بنائياً. يوضح هذا الفرض أى من المجموعات الاجتماعية ذات معدلات الانتحار الاعلى من غيرها. ويقترح ان معدل الانتحار فى المجموعات او المجتمعات المختلفة يعتمد على درجة من "التكامل الاجتماعى" و "القواعد الأخلاقية" **moral regulations**.

يشير دوركايم بلفظ "التكامل الإجتماعى" **social integration** إلى الدرجة التى يتقاسمها أو يشترك فيها كل من القيم، المواقف، المعتقدات، أنماط السلوك بين أعضاء المجموعة الاجتماعية.

ويشير بلفظ "القواعد الأخلاقية" إلى الطريق الذى عن طريقه يتحكم المجتمع فى رغبات الأفراد من خلال التنشئة الاجتماعية، أى الطريقة التى تقيد بها المعايير والقيم سلوك الافراد.

ولتحديد مفاهيمه، افترض دوركايم أن الانتحار يختلف باختلاف درجة اندماج المجموعة الاجتماعية التى يكون فيها المنتحر جزءاً من الأشكال الفردية والمبينة لفحص صدقها الأمبريقى. وقد فعل ذلك عن طريق دراسة علمية تفصيلية للإحصاءات المرتبطة بالانتحار وذلك وفقا لشرائع البحث العلمى.

وكما هو الحال مع عالم المختبر، قاس دوركايم العلاقة بين ما افترضه كمتغير سببى أو مستقل - درجة الاندماج والتنظيم الاخلاقى فى المجموعة الاجتماعية - والمتغير الذى افترض تأثره بهذا العامل - المتغير التابع - معدل الانتحار فى الجماعة.

كما قام بفحص العلاقة بين المجموعات المدرجة فى الإحصاءات: العائلة، الدين، المجموعات السياسية والمهنية، والمجموعات الموجودة على مر أوقات مختلفة من التاريخ المجتمعى، والمجموعات فى المجتمعات المختلفة على مدار أوقات مختلفة من التاريخ. وصف كف وآخرون (١٩٧٩) جزء من التحليل متعدد المتغيرات كالاتى:

بدأ دوركايم بدراسة المعلومات المتاحة للجميع، الاحصاءات الرسمية، معدل الانتحار فى دول أوربية مختلفة. ولاحظ ان الانتحار أكثر شيوعا فى الدول البروتستانتية أكثر منه فى الدول الكاثولو كية. وفى محاولة لتحديد إلى أى مدى يرتبط الوازع الدينى بالميول الانتحارية.

وتشبه مشكلة دوركايم مشكلة الباحث فى المعمل: كيف يمكن التحكم فى الظروف فى المثال السابق، ويمكن أن يكون هناك ارتباط شبه تام بين الفرد البروتستانتي بميل الفرد للانتحار. كما يمكن ان يكون كون الفرد ألمانيا يمكن أن يكون السبب المحدد والحقيقى.

ما يفعله دوركايم هو ارتباط متغير الجنسية بشكل دائم. فهو يتحكم فى تأثير متغير "الجنسية" وذلك بمقارنة تأثير الديناتين فى محيط مجتمع واحد.

ومثال ذلك، أنه يرى ان فى ولاية بافاريا أقل عدد من حالات الانتحار فيما بين ولايات ألمانيا، كما أن لديها أكبر عدد من الكاثولكيين. وبهذا فهو يقوى

الافتراض التجريبي وذلك من خلال إظهار أنه إذا قارنا سكان ولاية بافاريا، فإنا سنجد ان نسبة الانتحار فى علاقة مباشرة مع عدد البروتستانت وعلاقة عكسية مع عدد الكاثوليك. أى حيث وجد الكثير من الكاثوليك وجد القليل من حالات الانتحار، وحيث يكثر البروتستانت، يكثر الانتحار.

ولم يثبت دوركايم بأى حال من الاحوال أن كون الفرد بروتستانتيا يرتبط بميل الفرد إلى الانتحار إرتباطا سببيا. وكلما زاد عدد المرات التى يوضح فيها.

بالرغم من ذلك. أن هذين المتغيرين يسيران جنباً إلى جنب فى المواقف المختلفة وكلما استبعد المتغير الثالث مثل: الجنسية (المانى)، المنطقة (بافاريا)، كلما كان هناك تأييداً تجريبياً على وجود ارتباطاً سببياً.

منتهياً من تحليله، حيث كان دوركايم مقتنعاً بأن فرضه قد ثبت صحته مستنتجاً أنه يمكن تصنيف الانتحار إلى ثلاثة أنواع، إما بسبب (أ) عدم الاندماج فى الجماعة أو (ب) زيادة الاندماج فيها أو (ج) النقص الحاد فى المعايير الأخلاقية

أطلق على الانتحار (أ) فى عدم الاندماج، الانتحار الانانى؛ (ب) فى زيادة الاندماج، الانتحار الايثارى، (ج) النقص الحاد فى المعايير الأخلاقية، الانتحار الأخلاقى أو الأنومى.

الانتحار الأناني: Egoistic Suicide

إن النقص الحاد في الاندماج داخل الجماعة، وفقا لدوركايم هو السبب فى لماذا الغرباء، الارملة، والمطلقة أكثر عرضه للانتحار من الأفراد المتزوجين، أو لماذا الأفراد المتزوجين ولكن بلا أطفال أكثر عرضه من الأفراد المتزوجين ذوى العوائل.

ومرة أخرى، ووفقا لدوركايم، يفسر هذا لماذا البروتستانت هم أكثر عرضة للانتحار من الكاثوليك. وتؤكد أن كثيراً من الحرية للبروتستانت فى اتخاذ اختياراتهم الشخصية والأخلاقية في حياتهم أكثر من الكاثوليك الذين ينتمون إلى إعتقاد يرشدهم ويوجه أعمالهم إلى درجة أكبر بكثير.

الانتحار الايثاري: Altruistic Suicide

وهنا، وفقا لدوركايم، يزداد ميل الناس للانتحار كلما زاد اندماجهم فى الجماعة التى ينتمون إليها.

ومثال على ذلك، الارملة الهندوسية التى تلقى بنفسها فى محرقة زوجها المتوفى، حتى لا تكون عبء على عائلتها لكونها صارت وحيدة. ويعرف هذا باسم "الإيثار" **Suttee**. ومثال آخر، هو الجنود الذين يضحون بأنفسهم من أجل زملائهم الجنود أو من أجل بلادهم.

الانتحار الأنومي: Anomic Suicide

ووفقا لدوركايم، من المرجح حدوث هذا النوع من الانتحار بين الناس الذين وبشكل مفاجيء لم تعد تنشئتهم الاجتماعية مناسبة للظروف الجديدة التى يجدون أنفسهم فيها. فبعد تعلمهم نوع معين من التنظيم المعيارى أو الاخلاقى لم يعودوا يستطيعون التصرف أمام التغيرات الدراماتيكية فى حياتهم والتى أدت لكون تلك القواعد بلا قيمة. وهذا، كما يقول دوركايم يجعلهم أكثر عرضه لليأس والانتحار ويجادل بأن هذا يمكن أن يحدث فى أوقات الاضطرابات الاقتصادية الكبرى، خلال فترات الركود أو الطفرات السريعة.

وفى جميع تلك الاحوال وحسبما ذهب دوركايم، أوضح الأسباب الخارجية المؤدية للانتحار والدافع للسيطرة على حياتهم لا يكمن بداخلهم، كما هو الحال فى بعض انواع الظواهر السيكولوجية أو البيولوجية الخالصة. وعلى العكس من ذلك، فإنه بتأثر نوع الجماعة أو المجتمع حيث ينشأ الافراد الذين تشجع خصائصهم الثقافية والمعيارية هذا النشاط.

ولأن تلك هى الحالة النظرية، فقد أكد دوركايم (١٩٧٠)،بأن الاجراءات الميثودولوجية العلمية فقط – دراسة الافتراضات ضد الادلة التجريبية – يمكن أن تزودنا بالادلة وذلك بقوله "الافتراض الاساسى بأن الوقائع الاجتماعية هى الهدف..... تجد دليلا قاطعا جديدا فى الاحصاءات وخاصة فى إحصاءات الانتحار".

وقد تم نقد عمل دوركايم من داخل الوضعيين. على سبيل المثال: قيل أنه فشل فى التعرف على الأهمية المؤثرة للموقع الجغرافى. هذه الانتقادات تشير إلى أن بعض الناس الذى اعتبرهم دوركايم أكثر عرضه للانتحار من غيرهم سواء من هؤلاء الذين يعيشون بمفردهم، أو من المؤمنين البروتستانتيين هم الأكثر عرضه للعيش في مناطق الحضر أكثر من العيش فى الريف، مما يشكل عاملاً مسبباً آخر حاسماً.

وهذا النوع من النقد لا يتعارض مع مبدأ التحليل الاحصائى للانتحار. ولكن مع الطريقة التى استخدمها دوركايم في تنفيذه. وبمجرد أن بدأ بحثه فإن اتكينسون باعتباره وضعياً أيضاً فقد وجد ضعفاً فى تفاصيل عمل دوركايم، إلا أن التوجه العام كان صحيحا ويمكن تحسينه. وصاغ اتكنسون عام ١٩٧٧م ذلك فى قوله " بالتركيز على الوسائل التى تم جمع الإحصاءات الانتحارية بها..... فالأمل معقود على إمكانية حساب أفضل للمعدلات بحيث تختبر نظرية دوركايم بشكل أكثر شمولية ".

المرحلة الثانية: التفاعلية. Interactionism

مع تقدمه فى عمله وبالرغم من ذلك، بدأ اتكنسون فى تغيير الأسس النظرية والميثودولوجية بعيدا عن الافتراضات البنائية والوضعية بالاتجاه نحو التفاعلية وضد الوضعية ويرتبط نقد التفاعلية للاتجاهات الموضعية للانتحار بعمل ج.د.دوجلاوس (١٩٦٧)

دوجلاوس: المعانى الاجتماعية للانتحار
The Social meanings of suicide

أكد دوجلاوس فى كتابه، المعانى الاجتماعية للانتحار، بأن المؤشرات الموضوعية التى استخدمها دوركايم كدليل على المحددات الخارجية للسلوك الانتحارى فى الاحصاءات الرسمية لمعدل الانتحار فى الجماعات والمجتمعات المختلفة. هى فى الحقيقة ليست كذلك بالنسبه له، وبعيدا عن كونها حقائق إجتماعية موضوعية، إلا أن تلك الاحصاءات هى فى الحقيقة (مثل كل الظواهر الاجتماعية) نتاج التفسيرات الذاتية لأشخاص معينين ويوضح قضيته على مر الاسطر التالية.

إن طريقة الموت كى تصبح إنتحارا هي عملية معقدة التفسير تنطوى على تعريفات خاصة لمواقف بواسطة افراد معينين (كل ما علينا هو أن نتذكر المثال السابق فى الفصل الأول) عن كيفية تفسير ضابطين لحالة وفاة سائق سيارة والتقدير لذلك. وبما أن الأمر كذلك، فقد أخطأ دوركايم لحد كبير حين رأى ان الاحصاءات هى بمثابة مؤشرات صحيحة على معدلات الانتحار والتى يمكن تحليلها علميا وكأنها حقائق غير إشكالية وموضوعية. ويمكن أن تؤخذ فقط على كونها انعكاسات لتفسيرات ذاتية معينة لوفيات لا يمكن التنبؤ بها أو غير معتادة تم

التوصل إليها عن طريق أناس معينة، وبخاصة هؤلاء الذين ترتبط وظائفهم بمثل تلك التعريفات مثل رجال الشرطة والمحققين.

وعلى هذا، فإن البحث فى الانتحار ينبغى أن يأخذ شكلاً مختلفاً تماماً بعيدا عن تأكيد الوضعيين على الأدلة الأمبريقية التى أصر عليها دوركايم وفى البداية من قبل اتكنسون. وفقا للتفاعليين يصبح الانتحار انتحاراً بسبب الصفات الملصقة على الموتى بواسطة أشخاص معنيين وعلى هذا فاننا لن نتمكن أبدا من معرفة "حقائق" تلك المسالة – كون الوفاة كانت إنتحاراً من عدمه – ولكن ما يمكننا معرفته هى أسباب كون بعض الوفيات يتم وصفها بأنها انتحاراً. يمكن أن نكتشف كيف تم التوصل إلى تعريف الموت كاعتداء على الذات. ومن المفارقات أن مؤشرات دوركايم للمعدل الحقيقى للانتحار – الاحصاءات الرسمية – يمكن أن تساعدنا فى ذلك حيث تصبح الوفاة انتحارا ولهذا تتضمن فى الإحصاءات، نتيجة لعملية وضع مسميات رسمية عليها. وبما أن الأمر كذلك، فإنه يجب على البحث الاجتماعى ان يشتغل بتفسير كيف ولماذا توضع تلك المسميات المتصلة بها – وكيف يتم جمع الإحصاءات. ولا يعد هذا بالتأكيد بناءاً للأدلة الأمبريقية للمحددات الاجتماعية الخارجية للسلوك. إنما هو تحليل لنشاط غير تجريبى حقا – كثيرا ما تستخدم الاجراءات التفسيرية من قبل الناس وبشكل روتينى لصيغة معنى الموت غير المتوقع.

وفقا للتفاعليين، وعلى الرغم من أن الادلة تبقى نفسها التى استخدمها الوضعيين – معدلات الانتحار – إلا أن الموضوع قد يتغير من كونه اهتمام بالمسميات إلى كونه اهتمام بواضع المسميات (البطاقة الملصقة)

وكما يحكى اتكنسون عن إحدى محادثاته مع التفاعليين (١٩٧٧)

السؤال عن كيفية وصف بعض حالات الوفاة على أنها انتحار تبقى بؤرة الاهتمام دون أن يتعارض مع أفكار المنظور الجديد. فى حين أنه فى الأصل كانت النية أن يساعدنا البحث إلى الوصول إلى طرق أكثر صرامة لتطبيق وضعية دوركايم. فالآن أصبح موجها إلى الأسئلة التى تناقش التعاريف المختلفة المتاحة للمواقف الانتحارية والمعانى الاجتماعية للانتحار.

وكنتيجة للتغير العام فى الموضوع، تغيرت وسائل اتكنسون أيضا، وإن كان هذا التغير بطيئا ومؤلماً وإلى حد بعيد غير متعمد وهو ما يفسره كالاتى:

لم يقدم هذا التغير العام فى التوجه – مع ذلك – أى حل فورى لمشكلة أى نوع من البحوث التجزيبية يجب أن يعمل الان، والذى يعتبر على الأرجح سببا لماذا لا تزال أجزاء التراث الوضعى باقياً حتى الان.

وربما كان الاخر ذا علاقة واضحة جدا بالصعوبات الواضحة التى ينطوى عليها إستخدام ملاحظات المشاركين لدراسة ظاهرة الانتحار. إلا إنى احتفظ بالشك فى الغموض والارتباك الواضح الذى يظهر أنه يتصف به بعض الاستراتيجات البحثية التى يتبناها التفاعليون: ربما يجدر بنا ذكر قصة مضحكة هنا، وهى اقتباس من "موضوع" هناك – مقتطفات من صحيفة او تلفاز – وهذا كان مختلفا تماما عن الطريقة التى تم بحثها فى المسح، ولم يكن من السهل اتخاذ قرار بنسيان بعض المبادىء التى تم تعلمها بصعوبة واستبدالها بما يطلق عليه محددات أو بدائل غامضة. ولهذا بدأت فى تجربة بعض وسائل تنظيم البحث التى من شأنها أن تكون منهجية وذات علاقة وثيقة بالاهتمامات الجديدة على حد سواء. وعلى سبيل المثال. عند دراسة التقارير الصحفية عن الانتحار، ستصبح الصحيفة ثابتة فى بحث موضوعات مختلفة لصحيفة معينة على مدار فتره ثابتة من الوقت. كما استخدم الترميز فى جمع البيانات من سجلات الأطباء الشرعيين، واستخدمت كروت **IBM**، واستمرت العينات الكبيرة فى كونها ضرورة.

وبينما استمر استخدام أساليب وضعية مختلفة للسعى فى الوصول إلى أجوبة على أسئلة التفاعليين، تم جمع وبشكل منتظم بيانات ومعلومات كيفية من خلال الحصول على تصريح بالاطلاع على سجلات الأطباء الشرعيين نتيجة لعرض قد تلقيته من مقاطعة تحقيق إيسكس. ولكن فى كثير من الأحوال حينما أجريت مناقشات مطوله معه، لم يشعر أنا أو هو أننا فى وسط "مقابلة بحثية" قد حدثت.

المرحلة الثالثة: الاثنوميثودولوجيا Ethnomethodoligy

فى نهاية المطاف ومع ذلك فقد إتجه التفاعليون فى طريقهم إلى الاثنوميثودولوجيا بدأ اتكنسون فى الاعتقاد بأن "حقيقة" الانتحار لا يمكن الحصول عليها وبدلا من ذلك وكما فى الأبحاث الاثنوميثودولوجية أصبح الموضوع فى الآليات أو المناهج التى يستخدمها البشر (علماء الاجتماع وغيرهم) لإضفاء معنى كل منهما للأخر، وبالتالى لبناء حياة اجتماعية.

وتلك هى الطريقة التى يصف بها اتكنسون (١٩٧٧) تحوله النهائى:

كان التحول إلى الاثنوميثودولوجية أكثر إيلاماً من التغير السابق فى هذا المنظور، حيث لم يتضمن فقط التخلى من بعض المبررات التقليدية الاكثر رسوخا وعمقا للقيام بعلم المجتمع (مثال: بناء أوصاف غير تضمينية **decontextualised** ونظريات الفعل الاجتماعى والتى تختلف بصورة أفضل عن الوصف العملى اللائق ونظريات الأعضاء)، ولكن بالإضافة إلى ذلك كان الاهتمام التحليلى الجديد داخلا فى موضوع الإجراءات الوصفية أكثر منه فى الانتحار فى حد ذاته. ولم تعد المعلومات عن الظواهر الانتحارية أكثر أو أقل ملائمة من المعلومات حول أى موضوع آخر موصوف من قبل الأعضاء.

العناصر الأساسية فى محاور النظرية الوضعية ونظرية الفعل التى يلخصها الجدول التالى:

ضد الوضعية فى علم الاجتماع التفسيرى	الوضعية فى علم الاجتماع	الوضعية فى العلم	Ontology الوجودية
المجتمع يتكون من أعضائه، والواقعية الاجتماعية تتشكل من فرص التفاعل الفردى المصاحبة للفاعلين بحيث تتضمن القدرة على: التفاعل - الفعل ذو المعنى	المجتمع هو موضوعى، الحقيقة معطاه وأن وجود البناء الاجتماعى يظهر فى الفاعلين والأفكار والأفعال	طبيعة الموضوع، الحقيقة معطاه وتكون الظواهر هى من علاقات سببية غير متغيرة	

المعرفة التفسيرية ومعنى الفعل ممكنة فقط من خلال اكتساب فهم أساليب الفاعلين فى رؤية العالم واكتساب فهم المعنى للفاعلين أو فهم نظريات الفعل من خلال اكتساب الدليل الكيفى	المعرفة فى تأثير القوى البنائية حياة الفاعلين ممكن من خلال جمع الدليل الأمبريقى لقواعد الفكر وأنماط السلوك والصدق فى نظريات الملاحظ من خلال الدليل الإحصائى والكمى لمدى الفكر وأنماط السلوك	فالمعرفة بقوانين الطبيعة ممكن فقط من خلال جمع البراهين الظاهرة لوجودهم من خلال جمع الدليل الأمبريقى (تكمبم مدى العلاقات)	الأبستمولوجى Epistemology
استخدام الفهم، فالباحث يجعل استخدام الحقيقة مثل الفاعلين الذين يهتموا بالموضوع هو الفاعل الاجتماعى الخلاق القادر على التفسير، والوعى الذاتى بالتفاعل الاجتماعى	استنتاج الفروض ومحاولة دحضهم امبريقياً – من خلال المنهج الافتراضى الاستنباطى النظرية ← الفروض ← الاختبار ← النتائج ← النظرية	استنتاج الفروض ومحاولة دحضهم امبريقياًمن خلال المنهج الافتراضى الاستنباطى النظرية ← الفروض ← الاختبار ← النتائج ← النظرية	المنهج Methedology

١- البحث التفاعلي الرمزى(استخدام الفهم – كأسلوب للتفاعل اليومى للفهم والشرح: أ- الحديث مثل المقابلة ب-الملاحظة بالمشاركة مثل استخدام جوفمان ومشكلات إثبات الفهم عند فيبر ج- البحث الاثنوميثودولوجي استخدام الوصف لما يستخدمه الناس في الحياة اليومية لأساليب التفاعل لفهم كل واحد للآخر لخلق النظام الاجتماعى مثل تجربة جارفينكل والملاحظة الإثنوجرافية وتحليل المحادثة.	١- التجربة صعوبات عملية – المشكلات إشكاليات أخلاقية تأثير الملاحظ ٢- الملاحظة في الإنثروبولوجيا بدون مشاركة ___ المشاركة أدوار خفية ___ معلنة ٣- المشكلات نطاق محدود – مجال صغير – حدود على النتائج الموضعية – تأثير الملاحظ – التعاطف مع الموضوعات – الصدق الداخلى(الصورة الكلية) الصدق الخارجي (تمثيل دراسة الحالة) – المسح أنماط الأسئلة – اختيار المبحوثين (العينة) – تأثير القائم بالمقابلة – التحليل المتعدد المتغيرات.	التجريب تحت الظروف المضبوطة لكى يقيس أى مدى من العلاقات السببية بين المتغيرات	Method المنهج

علم الاجتماع والعلوم: تطورات أخرى

إبتداءا من ١٩٧٠، تطورت قصة العلاقة بين علم الاجتماع والعلم بطرق جديدة. ويمكن تلخيص التطورات التى توصل إليها حتى الان على النحو التالى:

(١) العلم الوضعي يؤكد على:

تتكون الطبيعة من ظواهر فى العلاقات بين السبب والتأثير والتى تكون:

١- قابلة تماما للوصف التجريبى والقياس.

٢- يمكن توضيحها بطريقة خالية من القيمة تماما.

(٢) علم الاجتماع الوضعي يؤكد على:

بالرغم من امتلاك البشر لعقول، وبالتالى لأفكار ونظريات، إلا أن تلك الظواهر غير التجريبية ليست ذات صلة كمؤثرات على الحياة الاجتماعية لأن؛

أ- تتكون المجتمعات من قوي بنائية موضوعية منتجة للسلوك والمعتقد التى؛

ب- يتم إظهاره وقياسه تماماً بطريقة تجريبية؛

ج- وخالية من القيمة تماماً.

(٣) نظرية الفعل: في المقابل تؤكد على أن:

أ- الأفكار ونظريات الفعل هي جوهر الحياة الاجتماعية

ب- بما أن تلك الظواهر غير تجريبية، وبما أن العلوم الوضعية تتطلب دليل عن طريق وسائل الإثبات التجريبي

ج- لا يمكن أن يكون علم الإجتماع علماً وضعياً

ويجب علينا أن نضيف الآن عنصرين آخرين

(٤) العلم الواقعي يؤكد بأنه

أ- لا يوجد علم تجريبي تماما في المنهج

ب- بالرغم من أن علم الاجتماع يجب أن يشغل نفسه بالظواهر غير التجريبية، مثل أفكار الفاعلين والنظريات

ج- هذا لا يعني أن يكون علم الاجتماع غير تجريبي - علم واقعي.

(٥) يحاول علماء الاجتماع والمؤرخون المتأثرون بعمل ت. أس كوهن بأن

أ- أخطأت الوضعية حين أدعت أن العلوم خالية من القيمة، حيث أن

ب- كل الأعمال العلمية يمكن أن يظهر تأثرها بممارسات التحيز البشري المسبق، والتفضيل والحزبية

ج- بما أن الأحكام والاختيارات محددة ونتاج إجتماعي وتاريخي بشكل عام.

د- فإنه يجب الاعتراف بالمعرفة العلمية. كجميع ألوان المعرفة الإنسانية، كنتاج إجتماعي وتاريخي.

الوضعية المضادة للعلوم الواقعية: التفسير والوصف.

وفقاً للوضعيين، يعني العلم بالكشف عن القواعد في العلاقات السببية بين الأشياء الملحوظة. لاكتشاف مدي حدوث شيء ما عند حدوث شيء آخر. علي سبيل المثال، ينص قانون نوبل علي أنه عند حدوث درجة الحرارة عندما يحدث شيء. زيادة في الضغط. يحدث شيء آخر. يعتبر في حجم الغاز. ويمثل الكشف عن العلاقات السببية للظواهر الملاحظة هدفاً للعلوم التجريبية.

ولكن، بالنسبة للواقعيين، وبالرغم من أن اكتشاف العلاقات الملاحظة بعداً هاماً، إلا أنه غير كافى. علي سبيل المثال يجب علينا أن نذهب أبعد من وصف العلاقة من أجل إعطاء وصفاً دقيقاً للعلاقة بين ضغط الهواء وحجم الغاز فإننا فى حاجة إلى أن نعرف كيف يعمل الغاز فى الواقع، نحن نحتاج إلى معرفة تركيب /مكونات الغاز التى تنتج التغير فى الضغط الذى يحدث التأثير الممكن ملاحظته ومعرفة التركيب الجزئ للغاز ما هو إلا معرفة نظرية للمواصفات التركيبية التى تختفى وراء ما هو ملحوظ لنا.

وعلى هذا فإن الواقعيين دائماً ما إنشغلوا بفهم التركيبات، الآليات أو العمليات التى تقوم عليها الأحداث الملحوظة والتى تسمح للعلاقات السببية أن تحدث، ولكن وفى كثير من الأحيان لا يمكن ملاحظة تلك المعالم البنائية على الإطلاق وهو ما يناقض المتطلب الأساسى للعلم التجريبى ويصيغ كلٍ من كات، شاروك وفرانسى (١٩٩٠) هذا كالتالى:

يمكننا أن نلاحظ النمط المنظم والذى يتمثل فى نضج الكائن البشرى – النمو من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ– ولكننا وبنفس الطريقة لا نستطيع أن نلاحظ عمل الشفرة الوراثية المحمولة على الحمض النووى، بالرغم من كون الشفرة الوراثية هى الآلية التى تنتج نمو الكائن الحى. يتضمن عمل العلم الواقعى فى العادة التحرك من مجرد إختيار الآثر، السلوك المعتاد الملحوظ للظواهر، إلى البحث فى تركيباتها الأكثر عمقاً وذلك للكشف عن كيفية أن يعمل التركيب كآلية أى كيف يخدم لجعل الأشياء تؤدى وظيفتها كما تؤديها.

وتوضح نظرة خاطفة على التفسيرات الماركسية المعتادة، لماذا يدعى الواقعيون أن الفكر الماركسى يمثل الواقعية فى تطبيق العلمية الاجتماعية. وعند ملاحظة رجل يقطع القمح فى الحقل، ثم ملاحظة شخص آخر– فإن الماركسى يؤكد بقوله أنه يمكننا فقط أن نفهم هذا الفعل إذا ما عرفنا كون هذا العمل يؤديه عبد، أو

مستأجر أو عامل بأجرة. أى أنه، فقط عن طريق معرفة أشكال الانتاج، الطبقات، والعلاقة بين القاعدة والبنية الفوقية يمكننا من تفسير مانلاحظه فى الحياة الاجتماعية.

وتلك السمات البنائية الكامنة لا يمكن رؤيتها- هى كيانات نظرية-ولكن بالنسبة للماركسيين مازالت الحقيقة أو الواقع الذى يجب فهمه من أجل إضفاء معنى على هو مايمكن رؤيته فقط.

وبمعنى آخر، يرغب الماركسيون لإدراك محورية العلاقات المؤسسية فى المجتمع الرأسمالى، ولهذا فنحن مطالبون بالاعتراف على سبيل المثال بأهمية العلاقة بين صاحب العمل والموظف، صاحب الأرض والمستأجر، ومديرى الشركة وحملة الأسهم وهكذا. وتلاحظ تلك العلاقات، على سبيل المثال، عندما يمد صاحب العمل يده بالأجر للموظف أو عندما يدفع المستأجر الأجرة لمالك الأرض، وعندما يستلم حملة الأسهم حصصهم، ولكن بالنسبة للماركسيين، من أجل تفسير مثل تلك العلاقات يجب أن نذهب إلىٰ ما وراء الملاحظ، فنفهم السياق البنائى الذى يجعل تلك العلاقات ممكنة. فرؤية صاحب العمل يعطى الاجر للموظف هو ما يحتاجه الماركسى فقط لإضفاء معنى على العلاقة وذلك لمعرفتهم بالسمات البنائية الكامنة فى المجتمع الرأسمالى- فوجود العمل المأجور عمال، العلاقة بين الطبقات، السعى وراء الربح وهلم جر. فهم يدركون ما يرون لمعرفتهم بتركيب المجتمع الرأسمالى.

بالنسبة للواقعيين، تلك هى الطريقة التى تعمل بها جميع العلوم، بدلاً من الوصف المطرد للقواعد الملاحظة، والتفسير للظواهر غير الملاحظة دائماً ما يكون ضرورياً.

وفقط لأنه يجب على علم الاجتماع أن يتعامل مع أفكار وتفسيرات كامنة وراء أفعال ملاحظة، أو علاقات بنائية كامنة وراء أفكار وتفسيرات، لا تؤهله ليكون غير علمى كما يؤكد الوضعيين، بالنسبة للواقعيين التعامل مع تلك العمليات الكامنة هو ما تقوم به العلوم الآخرى.

الوضعية المضادة لتى إس كوهن

The Anti-positivism of T. S. Kuhn

فى عام ١٩٦٢، نشر توماس كوهن، مؤرخ العلم، عمل يسمى " تركيب الثورات العلمية" والذى كان له آثراً عميقاً فى طريق العلم، فمنذ نشره تم فهم المعرفة العلمية.

وأكد كوهن في الواقع ضد الادعاء الوضعى بأن العلم يجمع المعرفة بطريقة موضوعية بحته، ويتعامل فقط مع الحقائق ويستبعد الأحكام.

وحجته هى أن نتاج الحقيقة العلمية دائماً ما يتأثر بالموضة والهوى، بالسياسة وممارسة السلطة والاختيار حول ما ينبغي أن يكون معروفاً عنه وبين ما لا ينبغي، كما هو الحال مع أى نتاج بشرى آخر.

وبما أن جاذبية العلوم لمشروع الحداثة كانت فى ادعائها بكونها مختلفة عن أشكال المعرفة الأخرى – التعامل فقط مع الحقائق- وتقديم دليل ملموس للوصول إلى بعض المعارف فإن قضية كوهين تمثل اعتداءً واضحا على الأسس العلمية التى على أساسها بنيت نظرية الحداثة.

ولفهم أفكار كوهين يجب العودة إلى كتابات فيبر المنهجية التى سبق وأن أشرنا إليها (أنظر ص ٧٠-٧١)

وفقاً لفيبر يجب تذكر السمات التالية بشأن المعرفة الاجتماعية:-

١) يمكن للكائنات البشرية أن تختار جانباً واحداً فقط من الواقع من أجل المعرفة، ومن المستحيل للكائن البشرى أن يعرف كل شئ عن الواقع.

٢) هذا الاختيار لا يحدد فقط الموضوع المبحوث، أى ما هو جانب الواقع الذى اختير ليكون موضوعاً للبحث. فهى تحدد أيضاً الأسئلة التى اختيرت لتسأل عن هذا الجانب من الواقع من خلال استخدام الاتجاه النظرى.

٣) يعتمد اختيار الموضوع والنظرية لا محالة على قيم الباحث أى على ما يعتقده هو أو هى جديراً بأن يعرف عنه كما يصفها فيبر.

٤) وبما أن تلك القيم فى حد ذاتها من سمات المجتمع فى فترة محددة من فترات التاريخ، فعليه فإن المعرفة الاجتماعية ليست فقط اختيارا، إنما هي دائماً نتاج إجتماعى نتج عن استخدام أحكام قيمية " للجدارة" والأهمية.

ومناظرة فيبر لماركس بخصوص طبيعة المجتمع الرأسمالي توضح وجهه نظره بالرغم من اتفاق فيبر وماركس على كون معرفة المجتمع الرأسمالي كانت مشروعاً جديراً بالقيام به ومهم للغاية، إلا أن نواحي الرأسمالية التى أختارها كل منهم للبحث تعكس اهتمامات نظرية مختلفة فكما رأينا، أهتم ماركس بدور القوى الاقتصادية في التغير الاجتماعي، وتأثير نوع الإنتاج على شخصية المجتمع الرأسمالي. وأهتم فيبر بدور الأفكار في التغير الاجتماعي وتأثير عملية العقلانية على شخصية المجتمع الرأسمالي. ولكن كما رأينا سابقاً، لا يدعى فيبر أنه على

صواب وأن ماركس أخطأ. فقد ركز كل منهم على جزء واحد من الواقع الرأسمالي، فمن المستحيل الوصول للكل.

وهذا كما رأينا، أدي فيبر. لاستخدام النماذج المثالية **Ideal Types** في تقديم اعتباراته الجزئية لنواحي مختارة من العالم، لتفخيم خصائص الواقع الذي أهتم به، وحتى لا يدع مجالاً للشك لدي الآخرين فيما هو مهم له في الحقيقة، بني قضيته علي أن كل المعرفة مرتبطة بالنموذج المثالي.

ورغم أنه لا يدعي ذلك، نجد أن كوهن قد جمع ذلك النوع من الجدال بشأن طبيعة المعرفة الاجتماعية وطبقها علي عملية إنتاج المعرفة الطبيعية في العلوم الطبيعية والفيزيقية. وأدعي أن البحث في تاريخ تلك العلوم، يظهر كيف أن هذا النوع من عمليات الاختيار دائماً. ومايحدث يجب أن يختار العلماء أي ظاهرة سوف يقومون ببحثها، كما يجب أن يختاروا الاتجاه النظري الذي سوف يسلكونه للقيام بهذا البحث. ولكن يؤكد كوهن بأن تلك الاختيارات دائماً ما تحدث في إطار إجتماعي، أي أنه دائما ما يكون هناك تأثير إجماعي وسياسي علي الطريقة التي يقوم العلماء بتأدية عملهم بها. ويصف ذلك بقوله أن أي معرفة علمية تنتج في إطار تقليد معين أو نموذج **paradigm**، والذي يحدد أي نوع من البحث قد نفذ وبأي طريقة يمكن تنفيذه. وينتمي العلماء لأي من تلك التقاليد، أي أن العمل العلمي دائماً ما يتم من خلال نموذج **paradigm** أو آخر.

إن تاريخ العلم هو تاريخ قيام وسقوط تلك النماذج **paradigms**. ففى فترات معينة من الزمن يهيمن نموذجاً **paradigm** ما، وكل فكر يمكن أن يعارضه أو يهدده، يبعد سريعاً من دائرة الاهتمام. وفي مثل تلك الأزمنة، يتخذ العمل العلمي للعلماء الشكل الذي أشار إليه كوهن بقوله " علم طبيعي أو عادى " تقريباً، بعمل معظم العلماء في إطار هذا النموذج **paradigm** السائد، وتنظر الطرق المختلفة الأخري ينظر إلي العالم بازدراء.

وبهذه الطريقة، يمارس النموذج paradigm السائد القوة والسيطرة التامة كعقيدة (dogma).

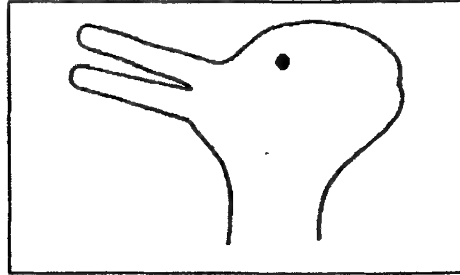
ويعطي الطب مثال عصري جيد لتلك الحالة من العلاجات. بالرغم من كثرة العلاجات المتاحة مثل المعالجة المثلية **Homeopathy** والمعالجة بالتنويم المغناطيسى والمعالجة المائية العلمية والمعالجة بالوخز والإبر والعلاج بالإيمان إلخ....

فإننا نجد أن نوعاً واحداً من الحقيقة الطبية تسيطر علي الطب الغربي وأنه يسيطر علي الهيئات الطبية (متمثلة في بريطانيا في الجمعية الطبية البريطانية)، والجهات المانحة، معاهد الأبحاث، والمستشفيات التعليمية الطبية. إن كل الممارسات والعلاج يعد إنتاج نوع واحد من أنظمة العلاج، هناك نظرة واحدة سائدة عند النظر إلى الأمراض (كعضوية المصدر ويمكن علاجها بالتدخل الطبي. عن طريق الأدوية أو الجراحة علي سبيل المثال). ولهذا عندما تحول إلى عرض عيادة دكتور، لا يكون لديك المجال للاختيار بين أنواع متعددة من وسائل العلاج الأخرى المتاحة، يجب عليك أن تستشير طبيب مؤهل بطريقة واحدة فقط، مع استقصاء الآخرين من الاختيار. أي أنه وفقاً لمفهوم كوهن، هناك نموذج طبي سائد **paradigm**. بالرغم من ذلك، نجد أن الأشياء تتغير في مجال الطب، فما كان يطلق علية المعالجين بالإيمان وبالتنويم المغناطيسي بالأمس " دجالين "، يطلق علية اليوم " بدلاء " أو ممارسين **Practitioners** معاصرين فربما يعرض ممارس عام بريطاني اليوم العلاج بالطريقة المثلية أو الإبر الصينية كجزء من العلاج الطبي المقبول – حالة من العلاجات لم تكن ليفكر فيها منذ عشرين عاماً. الأدوية المستبعدة سابقاً تصبح ببطء أكثر احتراماً فى تصورهم مما يجعل الناس مرضي وكيف يجب معالجتهم يكتسب يوماً بعد يوم شرعية. في الحقيقة، يمكننا أن نري أو نشهد فى الواقع بداية زوال الطب التقليدي باعتباره النموذج المهيمن، وبزوغ تحول بديل فى عالم الحقيقة الطبية الجديدة يتنافس مع بعضها البعض علي قدم المساواة، من أجل المرضي، والتمويل واكتساب الشرعية والسلطة. يصف كوهن كيفية السقوط من نعمة النموذج المهيمن في أي علم ينتج عنه وقت من الهياج وعدم اليقين في العلم... وهذا مايوصف فى هذا الوقت بالثورة.

كما في كل الثورات، يتم تجاهل الحقائق القديمة. والاتجاهات المتنافسة للحقيقة والفضيلة تتضاعف. ويسود الارتباك. ويندلع السلام واليقين مرة ثانية فقط عندما يظهر منتصر من الصراع فيما بين هؤلاء الذي سيصبح من بينهم ملكاً. ومع ذلك، يمكن أن يحدث هذا فقط عندما تتضخم قوة أحد هؤلاء الأدعياء بحيث يهزم أحد المتنافسين، وخروجاً من موقع هيمنته المكتسب حديثاً، يستطيع النموذج المنتصر أن يفرض ممارسته فى العلم والمعرفة والتقدم فى التسابق مرة أخري، في الواقع، يعني ظهور نموذج مهيمن جديد، ظهور وإصدارات جديدة من الحقيقة

والواقع. وفقاً لترج **Trigg** (١٩٨٥) في أحد الأوقات أعتقد العلماء في مادة تسمي "الاهوب" **Phlogistion** والآن لا يعتقدون فيها، ومرة أحد اعتقدوا بعدم إمكانية انشقاق الذرة بينما الآن بحثهم عن جزيئات في الذرة الفرعية **Sub Atomic**.

ويستخدم كوهن هذا الرسم الشهير، الذي يمكن رؤيته علي أنه بطة أو أرنب ولتوضيح أن العالم يبدو مختلفاً بعد تدمير النموذج السائد القديم، وظهور نموذج جديد. فإن كوهن يقول (١٩٦٢)، "ما كان بطاً في العالم العلمي من قبل الثورة أصبح أرنباً بعدها".



لماذا يغير العلماء نماذجهم؟ لأن ظهور النموذج السائد هو نتاج تأثيرات اجتماعية. من خلال ممارسة سياسة الإقناع فإنه يجب أن نتوقع أن تلك التأثيرات كانت وراء قرار كل فرد من العلماء أن يهجر ما كان يؤمن به في السابق إلي معتقدات جديدة. يقول كوهن (١٩٦٢) أن العلماء يختارون نموذج جديد من أجل كل أنواع الأسباب، في العادة لكثير منها في وقت واحد، وبعض تلك المسببات يعتمد علي خصوصيات السيرة الذاتية، وطبيعة الشخصية. حتي أن الجنسية أو الشهرة السابقة للمبتكر وأساتذته يمكن أن تلعب دوراً حيوياً. وعلي هذا، فإن العلم بدلاً من أن يكون نتاج حقائق ثابتة وذات قيمة متحررة أكثر وأكثر تراكماً فيما يخص الواقع، ما هو في الحقيقة إلا ما دفع مجتمع العلماء في فترة معينة من التاريخ وتحت مجموعة معينة من الظروف الاجتماعية أن يمارسوه. وعلي هذا، فإن هيمنة لأحد النماذج ومعرفة ممارسيه به لم يحدث نتيجة احتكاره للحقيقة التي ربما قد يكون قد أكتسبها ولكن نتيجة احتكاره للسلطة ونتيجة لهذا، فإنه يهيمن اجتماعياً علي ما يعد حقيقة.

وعلي هذا، فإن نتاج المعرفة العلمية غير مدعوماً بالاختيار، أو الأهواء، أو الأحكام التي يختارها العلماء بحرية، ولكنه ينمو ويزدهر عن طريق النشاط

السياسي للجهة العلمية. وبهذا، فإن المعرفة العلمية ليست قوية لأنها صواباً، ولكن لأن الصواب في حد ذاته قوي.

فالعلوم الاجتماعية- تعمل على تفسير الأصول الاجتماعية والسياسية كنموذج ما، من المسلمات أو الحقائق. وعلي هذا يصبح شديد الأهمية. وهذا ما أشار إليه تريج (١٩٨٥) بقولة: إن المجتمعات أو التقاليد تحدد ما نعده معرفة، فما نعتقده أو ندعي معرفتهِ ما هو إلا نتاج قوي اجتماعية والتي قد نجهلها تماماً.

وهذا يمكن أن يحدث علي المستويين البنائى والتفسيرى. فعلي المستوي البنائى، تحاول الوسائل المؤسسية والأيديولوجية للهيئات العلمية أن تمارس سيطرة سياسية واجتماعية علي نتاج المعرفة طبقاً لاهتماماتهم.

وعلي مستوي التفسير والفعل، فإن تركيب أو بناء المعرفة العلمية ما هو إلا نتاج تفاعلات وتفاوضات هادفة في البيئة العلمية ذات الاهتمام.

ووفقاً لما يتح به كوهن، فإننا نعود إلي موضوع النسبية المشار إليها في الفصل السابع. ويتضح هذا في حجج فيلسوف العلم بول فيرابند التي تدعم كوهن.

وفقاً لترج (١٩٨٥): فيرابند:

يري أنه لا توجد وسيلة نهائية للإشارة إلي الواقع إلا عن طريق المعتقدات الخاصة التي نؤمن بها. وبدلاً من أن يتحكم الواقع في معتقداتنا. علي الأقل إلي حد ما. يبدو وكان إيماننا في المعتقدات يحدد ما نعتقده واقعياً. في أي منهم، يمكن أن تكتسب الوهم بأن المعرفة يمكن أن تكون وأنه قد تم التوصل إليها.

إلا أنه عندما نري أن العديد من المعتقدات المتضاربة لديها نفس الدلالة، ندرك علي الفور – كما يدعي- أن أحكام الحقيقة تمتلك مصداقية نسبية. نتمسك بهم كرفقاء للمعتقدات التي نرتبط بها وليس المعتقدات الخارجة عن ذلك الإطار.

ووجهة النظر المضادة لنظرية المعرفة الوضعية تلك تتعارض مع ضد المعرفة الوضعية للواقعية في الجزء الأخير. وهنا وكما يصفها تريج (١٩٨٥).

ليس للواقع معني بعيداً عن ما يعتقده بعض المجموعات وحقاً. لقد أختفي مفهوم العالم الموضوعي، المستقل عن كل وجهات النظر. الإنطولوجيا بالتالي أصبحت تعتمد علي نظرية المعرفة وبالنظر إلي ما هو موجود كنتاج لإستراتيجيتنا

لفهم الأشياء، إذا ما تغيرت نظرية معرفتنا. كما نتحرك من عالمٍ إلي آخر. فإن إعتقادتنا عن ما هو حقيقي تتغير. سنسمع قريباً أصداء مدوية لهذا الإدعاء من مكان غير متوقع عندما ننظر إلي ما بعد البنيوية البحثية في اللغة والنص.

[redacted] وهذا جزء من الفصل الأخير من الكتاب، حيث ننظر إلي بعض التطورات الحديثة في النظريات والممارسات في علم الاجتماع.

الفصل العاشر

التطورات الحديثة في النظريات الاجتماعية والممارسات البحثية

Recent developments in sociological theories and research practices

لقد إستمر الجدال بين منظرى النظرية الوضعية و منظرى نظرية الفعل علي مدي الستينات وإلي بداية السبعينات. ولقد جدت محاولات منتظمة خلال النصف الثاني من السبعينات وبداية الثمانينات لوضع حد للصراع، مع نتائج مهمة بالنسبة للعلاقة بين النظرية والمنهج.

التعددية المنهجية Triangulation(50)

لقد استمر الجمع بين النظريات والمناهج، وإن كان ليس بالفكرة الجديدة، بنشاط جديد من قبل الباحثين اللذين أسخطهم التصلب في المواقف وعدم التسامح الذي أظهره المتعصبين علي جانبي الصراع. وبحلول السبعينات، بالنسبة للعديد من علماء الإجتماع، أصبح تحديد الإهتمام في نشاط جمع المعلومات واكتساب المعرفة حاجة ماسة، علي عكس الإدعاء بازدياد المناقشة المذهبية العقيمة. لو أن هذا عَني عن قصد بناء مشاريع لإرضاء مختلف مدارس الفكر النظري والمنهجي، فإنهم كانوا سعيدين للقيام بذلك.

ويصنف هذا الإتجاه دراستين معروفتين للغاية: دراسة هوارد نيوباي **Howard Newby** للعمال الزراعيين لسوفولك، "العامل المثالي" ١٩٩، **The Deferential worker**، ودراسة آيلين باركر(**Eileen Barker**) للمونيز **Moonies** "صناعة الموني:إختيار أم غسيل مخ" **Making of a Moonie: Choice or Brainwashing.**

وتُظهر مقتطفات من مذكرات ابحاثهم عزمهم علي التخلي عن تصلبات الرأي السابقة؛ بالنسبة لنيوباي عن طريق الجمع بين المناهج، وبالنسبة لباركر بالجمع بين النظريات والمناهج.

هوارد نيوباي Howard Newby

لقد تم إنتقاء المنهجية بشكل عمدي، والتي تتضمن دراسة روتينية للإحصائيات الزراعية وإحصائيات التعداد السكاني، بحث عن المصادر التاريخية (الوثائقية والشفوية)، الملاحظة بالمشاركة ومسح تفسيرى. ولأن العديد من

(50) يعرف التعدد المنهجى بوصفه استخدام أكثر من ملاحظ أو أكثر من منهجية أو إستخدام أكثر من مصدر للبيانات أو اكثر من أداة من ادوات جمع البيانات أو استخدام أكثر مـــن نظرية لتفسير بعضها أو كلها. "المترجم"

اهتمامات الدراسة تتضمن العلاقات المتبادلة بين الفلاحين وعمال المزارع والعلاقات المتبادلة بين عمال المزارع وبعضهم البعض، فإنه كان واضحاً من البداية أن درجة من الملاحظة بالمشاركة ستكون ضرورية. وعلي الرغم من ذلك، فإن شبه عدم وجود بيانات اجتماعية ذات صلة، حتي ولو بيانات إحصائية تستخدم لوصف الظواهر الاجتماعية قد جعل من المستحسن إجراء مسح. وفي الواقع، فإن المسح وفترة الملاحظة بالمشاركة أصبحوا يكملوا بعضهم البعض بشكل متزايد. فالرؤية المكتسبة من الملاحظة بالمشاركة من الممكن أن تفحص من خلال بيانات المسح، ومن ناحية أخري فإن الكثير من هذه البيانات يمكن أن يصبحوا ذات معني غالباً من خلال الخبرات المكتسبة من العيش مع عامل المزرعة وعائلتة في كوخ مُصفد لمدة ستة أشهر واكتساب المعرفة الأولية عن الفعل والموقف الاجتماعي.

آيلين باركر Eileen Barker

يوجد فى علم الإجتماع إنقسام متمتع بقداسة القدم بين هذه المدارس التى تركز على الفهم التفسيرى وتلك التى تؤكد على طرق أكثر سلوكية، وضعية وعلمية. ما هو الذى يكون منهجي؟ ربما ينبغى على أن أصبح إثنوميثودولوجياً واستفسر من عالم المونى المُسلم به، أو ينبغى على أن اعتبر المونيز كفئران وأنه على أن انظر إليهم بلا عطف وهم يركضون نحو متاهاتهم، باعداً عن ذهنى أى مفاهيم ذات غرض هام ومتعمد والتى لا يمكن أن يشملها حافز / إستجابة أو نماذج الإشتراط المؤثر للسلوك الأكثر تطوراً؟ أو ربما ينبغى على أن أنسى مثل هؤلاء الأفراد وأبحث فقط عن الهياكل والمهام على صعيد المجتمع؟ أينبغى على أن أتبنى أنثربولوجياً فلسفية أفترضت أننا معقدون ولكننا مع ذلك روبوتات (إنسان آلى) مصممين وتفاعليين: أم أننا أحرار، مبدعيين، خلاقيين، وقادرين على تقرير مصائرنا؟ من ينبغى أن أصدق عندما يتعلق الأمر بأوصاف كنيسة التوحيد؟ من منهم كان جدير بالثقة، المونيير أنفسهم الذين تم غسيل أدمغتهم أو النقاد المتشككين؟ أيمكننى أن أتعلم أكثر كدخيل أو كعالم بدخائل الأمور؟ ماذا كان الواقع الحقيقى، وكيف يمكننى أن أتعرف عليه؟ أأسترشد بالحقيقة أم بالنظرية أو كلاهما؟ ولكن حينئذ، أى نظرية، وكيف يمكننى الحصول على الحقائق؟

لقد بدأت أن أدرك أنه لا يمكن أن يكون هناك إجابة واحدة ٠ فالعديد من وجهات النظر بدت ضرورية، فى حين أنها لم تكن كافية لأى أغراض ٠ لقد كنت

مقتنعاً انه بدون وجود منهجية علمية بقدر الأمكان فإنه سيكون من غير المرجح أن ينتج الفرد مساهمة إجتماعية تضيف شيئاً بكل المطالب والمطالب المضادة التى كانت موجودة بالفعل ولكنه قد بدا أيضاً انه بدون فهم (**Verstehen**)، أو بعبارة أخرى نوع من الفهم التعاطفى، لا يمكن للمرء أن يأمل فى العثور على بيانات فرد فى المقام الأول – أو الأخير.

وفى النهاية لقد قررت بُناءً على ثلاثة محاور رئيسية هى: المقابلة المتعمقة، والملاحظة بالمشاركة والإستبيان. ولقد أملت أن أفهم من المقابلة الفرد كفرد. لقد تم إجراء ما يزيد قليلاً عن ثلاثين مقابلة على أساس عينة عشوائية من الأعضاء. ولقد كانت تسجل على أشرطة وعادة ما استمرت ما بين خمس وتسع ساعات. ولقد إستمرت أطول مقابلة لمدة إثنى عشر ساعة. ولقد أملت أن أرصد من الملاحظة بالمشاركة، أى من العيش فى مراكز جامعة كاليفورنيا**UC** وحضور مختلف الدورات، التعرف على مستوى العلاقات الشخصية، ومن الإستبيان كنت أأمل أن أري الأنماط والعلاقات التي كنت ربما أشك في وجودها ولكنه كان من الصعب فقط التعميم حولها من عدد كبير من المجيبين. إن كل الأعضاء البريطانيون و العديد من الأعضاء الأوربيون والأمريكان تم أعطائهم استبيان من واحد واربعين صفحة يحتوي علي كل من أسئلة "مفتوحة" و"محددة مسبقاً" (مغلقة – منهية).... وأضيف إلي هذه الأسئلة أكثر من (١٠٠) رد لإستبيان مماثل، مملوء من قِبل مجموعة ضابطة، أي من غير أعضاء جامعة كاليفورنيا الذين كانوا مماثلين في العمر والخلفية (الطبقة –التعليم– الدين) لأعضاء جامعة كاليفورنيا.

لقد كانت هذه منهجية ضرورية لو كان لي أن اكون قادراً علي تقييم مدي أن الظاهرة التي كنت احللها، بالنسبة لأعضاء جامعة كاليفورنيا، تعد غريبة..... فبالطبع، إن الثلاثة أساليب قد ألقوا الضوء علي الجوانب الأخري التي كنت مهتم بها. وبالتأكيد لولا أنني قضيت عامان أُجري عدد كبير من المقابلات، أعيش مع الأعضاء وأُخضعهم بما يسمي بعملية "غسيل المخ" لما تمكنت من انتاج هذا الإستبيان. لقد كان هذا ضرورياً لتشكيل الفروض لكي يتم فحصها من قبل الأستبيان ولتعلم اللغة التي كان من المقرر أن تصاغ بها الأسئلة. ولقد تعلمت، بالتأكيد، الكثير عن الأفراد وتداخلهم من خلال الاستبيان، مثلما من خلال الملاحظة بالمشاركة، حيث تمكنت حقيقة من رصد الأفراد وهم يتفاعلون مع الأخرين وحيث تمكنت من محاولة الحكم علي التداخل والاختلافات بين عرضهم للذات في مقابلة وفي سياق اجتماعي فعلي.

السياسة و التمويل Politics and Funding

وبحلول الثمانينات، ركز ظهور عدو معاد لأي إتجاه من علم الأجتماع عقول المعارضين السابقين بشكل رائع، مشجعاً اياهم علي نسيان اختلافاتهم المذهبية من أجل تقديم جبهة موحدة. ولقد طافت التاتشرية **Thatcherism** الأرض، بالعلوم الاجتماعية عموماً، وعلم الاجتماع علي الأخص، في مشاهدها. ولقد جدت محاولات متعددة لإضعاف العمل الاجتماعي.إن تصريح الليدي نفسها أنه "لا يوجد ما يسمي بالمجتمع"، اعطي نكهه للفكر الفردي الذي يُشترك فيه عن طريق أي "فرد منا". ولقد كانت المعارضة الوجودية شاملة؛ فعلم الإجتماع يسعي لشرح الحياة الفردية والمميزات أو العيوب علي الأقل في جزء منها عن طريق رؤيتها تنشأ في هياكل اجتماعية غير متساوية؛ فبالنسبة لتاتشر، مع ذلك، يوجد فقط الأفراد وعائلتهم، ولا يوجد سوانا لنهنيء لنجاحاتنا أو نلوم لسوء حظنا. ومن وجهة النظر هذه، تتعامل "العلوم" الاجتماعية مع مواضيع وهمية وتسعى إدعائتهم الواهية للمركز العلمي ببساطة إلى إلتماس الشرعية للتصريحات الإعتذارية التي تعفي المسئولية الفردية. لقد أطلقت نيران البنادق علي علم الاجتماع؛ فلقد أجبر السير كيث جوزيف **Sir Keith Joseph** – بعدئذ وزير الدولة لشئون التربية والتعليم – مجلس بحوث العلوم الاجتماعية، المسئول عن تمويل بحوث العلوم الاجتماعية، علي تغير اسمها إلي مجلس البحوث الاقتصادية والاجتماعية وتعاقد مع اللورد روتشيلد **Rothschild Lord**، أكاديمي بارز، لإجراء تحقيق في الموضوع. ولقد كانت الفكرة هي كشف علم الاجتماع نهائياً وعلى نحو حاسم و كأنه رطانة يسارية ولكن روتشيلد كان دقيقاً وحيادي جداً للعمل كجلاد تاتشر الأعلي. وبعد أن نفذوا التحقيق الذي أعتقدوا أنه من الممكن أن يؤيد التحيزات الخاصة بهم، كان علي التاتشاريين أن يهدئوا هجومهم الضارِ عندما رفضت قذيفتهم الموجهة أن تطلق النار.

ومع ذلك، تم إحداث تغيرات حقيقية في علم الاجتماع بسبب هذه التجربة. فمن أجل البقاء في عالم تسيطر عليه القيم التاتشرية، تعلم العديد من علماء الاجتماع في بريطانيا الحاجة إلي أن يكونوا جذابين سياسياً وألا يكونوا مثيرين للجدل. فالأبحاث التطبيقية الموجهة نحو السياسات، والتي تهدف إلي نتائج عملية محددة، ظهرت أكثر وأكثر في كثير من الأحيان؛ فإسم اللعبة كان البقاء علي قيد

الحياة، ولكن لينجو مرة إحتاج الفرد إلي تمويل، ولكي يحصل علي التمويل كان لابد أن تكون البحوث " مفيدة".

وعلاوة علي ذلك، بما أن الموارد المالية للأبحاث أصبحت قليلة، أصبح الباحثين أكثر ميلاً لإختيار الأساليب غير الباهظة، بدلاً من تلك التي كانوا سيختارونها لو لم يصبح توفير الأموال هدفاً رئيسياً. وبالإضافة إلي ذلك، فلقد بدأ الحكم علي أقسام الجامعة في جميع التخصصات، بما في ذلك علم الاجتماع، بناء علي سجلات البحث الخاصة بهم مع أخذ طلبات التمويل في الإعتبار في ضوئهم. وفي مثل هذا المناخ البحثي التنافسي، أصبح سبب أخر غير نظرى مهماً لإختيار إجراءات البحث؛ السرعة التي يمكن أن تنجز فيها الأبحاث، وتنشر، وأن تصبح متاحة للمعرفة. في غضون التسعينات، من المرجح أنه ما زالت هذه المنافسة موجودة بكثافة أكثر؛ حين تصبح المعاهد الفنية و الجامعات ويصبح تمويل التعليم العالي موحد، فلقد كان هناك دعم قوي لتدرج الجامعات (يجعله مؤلف من طبقات) إلي مؤسسات "تدريس فقط" و"تدريس – زائد – بحوث"، مع توجيه الجزء الاكبر من التمويل الى البحوث الناجحة في اختيار تصنيف الإبحاث. وهناك احتمال أن الجزء الأكبر من تمويل البحوث، سيتركز إذاً في عدد محدود من "مراكز الإمتياز".

البنيوية Structuration

عرض أنتونى جيدنز **Anthony Geddens** مفهوم البنيوية في النظرية الاجتماعية في محاولة مُتعمدة لبناء توليف نظري بين الاتجاهات البنيوية ونظريات الفعل.

وتشير نظرية جيدنز إلي "الثنائية البنيوية". فلا تُقيد وتُحدد البناءات فقط أشكال معينة من السلوك ولكنها تمكن السلوك؛ فإنها توفر فرص، كما توفر قيود. وعلاوة علي ذلك، في أطار الظروف الهيكلية التي يحدث فيها العمل البشري، أو "الوكالة"، كما يسميها جيدنز، يتم استخراجها أو إعادة تعريفها عن طريق هذا العمل. هذا يعني، في الوقت الذي يحدث العمل حتماً ضمن سياق هيكلي، فإن هذا السياق بدوره يتجدد، أو يتحول، عن طريق الفعل. وبالتالي فإن هناك علاقة جدلية بين البناء والفعل. ويفسر بيلتون وأخرون **et al. Bilton**(١٩٨٧) ذلك علي النحو التالي: "من ناحية تتشكل البناءات عن طريق الفعل "ولكن من ناحية أخري" يُشكل الفعل بنائياً؛ مثل هذا المنطق يسعي للتغلب علي الأنقسام الوضعي / المضاد للوضعية".

لأن حتي الأن، حاولت إيحاث قليلة نسبياً تطبيق أفكار البنيوية علي الممارسات البحثية؛ فإن معظم محاولات تجاوز "الحرب" هي جهود التعددية المنهجية من النوع الذي ذكر سلفاً، والذي يهدف إلي الجمع بين البحث البنيوى والفعلى في مشروع، بدلاً من التطلع لتوليف حقيقي بين النهجين. وربما لا تزال تعد دراسة بول ويليس **Paul Willis** الشهيرة "تعَلم العمل" (١٩٧٧) هي أفضل مثال علي التطبيق الحقيقي لأفكار البنيوية.

إن دراسة "تعَلم العمل" هى جزء من البحث الذي يحاول التعرف علي السمات البنائية والفعلية للمستقبل التعليمي لمجموعة من الفتيان من الطبقة العاملة –"الصبيان" كما يعرفون. في الواقع، أن ويليس مهتم لمعرفة سبب لماذا أن شباب الطبقة العاملة ينتهي بهم المطاف في وظائف للطبقة العاملة – لماذا وكيف تعلمهم المدرسى "لكى يتعلموا أن يصبحوا عمالاً".

ولقد أخذ ويليس وجهة نظر ماركسية تقليدية لطبقة ما وأشار إلي المعوقات التي يعاني منها الفتيان نتيجة لوضعهم في البناء الطبقي لمجتمع رأسمالي. ولكنه أيضا كشف عن السبل التي يختار بها الفتيان أن يديروا حياتهم في نطاق هذا السياق البنائى، مبيناً كيف يفسرون حقيقة ظروفهم – كيف يضعون نظريات لعالمهم – ويتخذون الأجراءات التي يرونها مناسبة في ضوء هذه المعرفة النظرية، بقدر ما يسمح لهم وضعهم البنائى. ومن ثم فهم ليسوا ببساطة المتلقيين السلبيين لقوي البنيوية – فويليس ليس كباولز **Bowles** وجينتيس **Gintis**، في رؤيتة للتلاميذ كبيادق(أدوات لعبة الشطرنج) عاجزة في لعبة تُلعب داخل التعليم وتُحكم من قِبل الرأسمالية. لإن "الصبيان" يعلمون أنهم يتم خدمتهم بصورة سيئة من قبل المدرسة ويتخذون اجراءات مختارة بوعي للتعبير عن مقاومتهم للعملية التعليمية. فهم يرفضون التعامل مع كل ما له علاقة بالتعليم، معتنقين بحماس ثقافة مناهضة للمدرسة، ويستخدمون الوسائل الرمزية المتاحة لهم للتعبير عن تحديهم. فهم إذاً يحاولون تحرير أنفسهم من قيود البنيوية لتجربة المدرسة عن طريق استخدام الاجهزة الثقافية للطبقة العاملة – مثل السجائر والكحول – ليس ببساطة لأن التدخين والشرب ضد قوانين المدرسة، ولكن لأن بمثل هذه الوسائل الرمزية فإن بإمكانهم الإنضمام إلي عالم الطبقة العاملة البالغة. إنهم ينظرون إلي هذه الخطوة بإعتبارها ملاذاً يمكنهم التطلع اليه طالما هم بعيدين عن سيطرة النظام التعليمي. حتي واذا عَنَيَت مقاومتهم للتعليم إنهم سينتهون حيث أراد لهم النظام علي طول الطريق – غير

متعلمين وبالتالي محكوم عليهم بالحياة العملية كعمال يدويين – ونقطة ويليس هي أن رحلتهم إلي هذه الحالة ليست حتماً بنائية المنشأ؛ إنها مختارة من قبل الجهات الفاعلة لأسباب خاصة بهم، وذلك في ضوء نظرياتهم عن عالمهم. حقيقة أن بناء هذا العالم سيعاد إنتاجة بهذه الأفعال لا يقلل من أهمية الوكالة البشرية في قصتهم.

أساليب ويليس Willis' Methods

أن تحليل ليدر وأخرون (١٩٩١) **Layder et al.** لمتضمنات البحث الخاص بالبنيوية هو كالتالي: "بالنسبة لجيدنز فإن لكل الأنشطة الإستراتيجية عنصر تفسيري مُتعذر إختزاله، وبالتالي، فإن لكل البحوث الاجتماعية جوانب إثنوجرافية لها.... ونتيجة لذلك، يتوجب علي كل البحوث الاجتماعية أن تكون حساسة "للمهارات المعقدة " التي تظهرها الجهات الفاعلة في أنشطتهم اليومية....."

وبما أن الأمر كذلك، فإنه ليس من المدهش أن عمل ويليس، والذي أشاد به جيدنز نفسه كمثالاً يحتذي به في البحث الهيكلي، لابد وأن يستخدم طرق البحث التالية، التي وصفها ويليس (١٩٧٧):

"تألفت الدراسة الرئيسية من مجموعة من اثني عشر صبياً غير أكادميين من الطبقة العاملة الذين... تم أختيارهم علي أساس روابط الصداقة وعضوية نوع ما من ثقافة المعارضة في مدرسة الطبقة العاملة... ولقد تمت دراسة المجموعة الرئيسية بشكل مكثف عن طريق الملاحظة ومراقبة المشاركين فى الفصل، وحول المدرسة، وخلال الأنشطة الترفيهية، مناقشات المجموعة العادية المسجلة؛ المقابلات غير الرسمية واليوميات. ولقد حضرت كل فصول وخيارات المواد المختلفة (ليس كمعلم ولكن كعضو فى الفصل) التى تحضرها المجموعات فى أوقات مختلفة، والفترة الكاملة لفصول المهن.... ولقد سجلت أيضاً محادثات طويلة مع أباء كل المجموعة الرئيسية، ومع كل كبار أساتذة المدرسة، ومع كل موظفين المهن الذين يأتون إلي المدرسة.... ولقد تابعت كل الاثنى عشر صبياً من المجموعة الرئيسية... فى العمل. ولقد خصصت خمسة عشر فترة قصيرة من الملاحظة بالمشاركة بالفعل جنباً إلي جنب مع كل صبياً فى عمله، وأختتمت بمقابلات مسجلة على شرائط مع الافراد، ومقابلات مختارة مع الملاحظين المديرين ومديرى المتاجر."

وهكذا لقد أصبحت العلاقة بين الاهتمامات النظرية والمناهج واضحة من قبل ويليس ١٩٧٣:

"لقد استخدمت المناهج الكيفية والملاحظة بالمشاركة، والشكل الإثنوجرافى للعرض فى البحث، من خلال طبيعة إهتمامى "بما هو ثقافى". فهذه الأساليب تمت ملائمتها لتسجيل هذا المستوى ولديها حساسية للمعانى والقيم كما لديها قدرة على تمثيل وتفسير الحسابات الرمزية وممارسات وأشكال الإنتاج الثقافى. وبخاصة الوصف الإثنوجرافى... يمكن أن يسمح بقدر من النشاط، الإبداع والوكالة البشرية ضمن موضوع الدراسة لكى يأتى من خلالها إلى التحليل و خبرة القارئ."

التحليل الثقافى Cultural Analysis

إن دراسة ويليس هى واحدة من أشهر الأمثلة على تقليد "التحليل الثقافى" الذى بدأ أن يكون عصرياً فى بريطانيا فى أواخر السبعينات مروراً بالثمانيات، وينبعث أغلبه من مركز جامعة برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة **Birmingham University Centre for Contemporary Cultural studies (CCCS)**

ولقد كان يرأس هذا المركز فى ذلك الوقت ستيوارت هول **Stewart Hall** (حالياً أستاذ علم الإجتماع بالجامعة المفتوحة).

ولقد شجع هذا النوع من العمل، الذى تأثر بالفرنسى رولان بارت **Roland Barthes**، إستخدام السيميائية – دراسة العلامات – فى البحث الإجتماعى من أجل الكشف عن الطرق التى بها يمكن دفع الأعمال الفنية الثقافية إلى الخدمة فى الحياة الإجتماعية لخدمة غايات رمزية، أو تعبيرية – كأشكال لتمثيل المعنى.

وكما رأينا للتو، فإن الأسلوب التفسيرى هو فى صميم عمل ويليس: إنه يريد أن يفهم كيف يبدو التعليم "للصبيان " وكيف أن نظرياتهم حول هذه العملية تؤدى بهم إلى إظهار مقاومة لها بشكل رمزى.

- إن التحليل الثقافى مع ذلك لا يقتصر على دراسة الأستخدام المتعمد للرموز من قبل الجهات العاملة. إن الإستخدام الإجتماعى للسيميائية يوجه إنتباهنا أيضاً إلى البناء اللاواعى للمطالب الرمزية فى الحياة الإجتماعية، فهو فهمٌ يتطلب نظرة متعمقة من السيميائى من أجل فك شفرة العلامات.

على سبيل المثال، فلقد جمع باحثين مركز جامعة برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة المتخصصين فى الثقافة الفرعية للشباب مثل ستيوارت هول **Stewart Hall** و تونى جفرسون **Tony Jefferson**

(المقابلة من خلال الطقوس، ١٩٧٦)، وديك هيدباج(**Dick Hebdige**) (الثقافة الفرعية**Sub-Culture**: معنى النمط أو الأسلوب) (١٩٧٩)، التي وحدت بين المنظور الماركسي حول البنية الإجتماعية و الإهتمام السيميولوجي بالرموز المتمثلة في أشكال اللباس، الموسيقى، الطقوس واللغة / الخطاب الذى تفضله الأنواع المختلفة من شباب الطبقة العاملة؛ فيهدف المشروع إلى الكشف عن المعانى والترتيب وراء الممارسات الثقافية التي تبدو بلا معنى وبلا ترتيب. ولقد جعل تونى جفرسون **Tony Jefferson** (١٩٧٦) من نمط الثقافة الفرعية الخاصة بتيدى الصبى **Teddy boy**، الذى كانت سائدة فى الخمسينيات فى بريطانيا، كالتالى:

"على الرغم من البطالة الدورية، وعلى الرغم من الوظائف التى لا تتطلب مهارات، فلقد كان التيدز، مثل أمثالهم من المراهقين الأخرين فى العمل خلال هذه الفترة، غيروا الحياة نسبياً. ولقد أرتفع متوسط الأجر الحقيقى للمراهقين، ما بين ١٩٤٥ إلى ١٩٥٠، لضعف معدل البالغين. فلقد كان للتيدز إذاً أموال ينفقونها، ولأنها كانت بالتحديد كل ما يملكونه، فلقد كانت تولى أهتماماً كبيراً. لقد ذهبت الكثير من الأموال على الملابس... أربطة الأحذية؛ أحذية سميكة مصنوعة من السويد الرقيق المجعد؛ السراويل الضيقة جداً المتدلية (بدون ثنيات)؛ سترات أكثر استقامة ذات خصر أقل؛ ياقات فرو الخلد أو الستان للسترات؛ وإضافة ألوان زاهية."

"... إننى أرى اختيار الملابس الموحدة هذه مبدئياً، كمحاولة لشراء منزلة (لأن الملابس المختارة كان يرتديها فى الاصل الأنيقون من الطبقة العليا)... فلقد أصبح معناها الثقافى الرمزى للتيدز قابل للشرح والتفسير كتعبير عن حقيقتهم الإجتماعية (هم أساساً دخلاء وأجبروا على كسب رزقهم بأساليب بارعة ولكنها ليست دائماً شريفة) وتطلعاتهم الإجتماعية (أساساً محاولة لكسب منزلة عالية، وإن كان على مضض، لتعطيهم القدرة على العيش بذكاء، وبمتعة وأن يكسبوا رزقهم بأساليب بارعة وإن لم تكن دائما شريفة فى المناطق الحضرية)."

ويتلخص وصف شهير للمعانى وراء الإنشغالات الثقافية لفتيان لندن البيض الذين ينتمون إلى عصابات شباب عنيفة ويكونوا حليقى الرووس وغالبا ما يتبنوا معتقدات البيض السائدة من خلال مايك أودونيل**Mike O' Donnel** :

"لقد فسر فيل كوهين **Phil Cohen** السلوك العدوانى، والمعادى للمهاجرين، والمدافع عن السلوك فى الاقليم للفتيان البيض الذين ينتمون إلى عصابات شباب عنيفة ويكونوا حليقى الرووس وغالبا ما يتبنوا معتقدات البيض

السائدة فى سياق تراجع المجتمعات الشرقية من الطبقة العاملة. "فى الحقيقة"، إنهم لم يستطيعوا اعادة بناء ما كان يضيع ولكنهم، كما جاء فى عبارة جون كلارك **John Clarke**، أجروا "انتعاشه سحرية للمجتمع" بسلوكهم. فى واحده من التفسيرات السيميولوجية المستلهمة من الماركسية البارعة (لأنها حالما تذكر، تكون واضحة تماماً)، فسر كوهين "زيهم الموحد"، وأحذيتهم من نوع دوك مارتن **Doc Marten**، تقويم أسنانهم، قمصانهم التى بدون ياقة وشعرهم المحصود – بوصفه نسخه مهولة ومبالغ فيها بالنسبة للملابس التقليدية للذكور من الطبقة العاملة."

ولقد ترجم ديك هيبداج (١٩٧٩)، في مثال أخير لمركز جامعة برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة، الثقافة الرستافارية:

" يُحدث رجل الراستا (**Rastaman**)، ذا جدائل الشعر الكثيفة و"الغضب المبرر أخلاقياً"، حلاً مدهشاً للتناقضات المادية التي تطغي علي وتعرف المجتمع الهندي الغربي. فهو يفك شفرة "المعاناة"، هذا المصطلح الرئيسي في المفردات التعبيرية لثقافة الجيتو **Ghetto**، مسمياً أسبابها التاريخية (الإستعمار، الإستغلال الاقتصادي) وواعداً بالنزوح عبر طريق الخلاص إلي "افريقيا". إنه يعيش فى مجتمع بابيلون (المجتمع الرأسمالي المعاصر)، رافضاً إنكار تاريخة المسروق. فهو يحول الفقر والنفي، من خلال تحول جانح ومتعمد، إلي "علامات عظمة"، رموز قيمته، التذاكر التي ستأخذه إلي وطنة افريقيا والصهيونية عندما يتم تدمير بابيلون."

تظهر علاقة خاصة بين النظرية والمنهج، في كل هذه التحليلات. فالاهتمام بالروابط بين البناء والثقافة يتطلب فهم للسمات البنيوية – الطبقة، الجنس، والعلاقات العرقية في الرأسمالية في حالة هذه الامثلة – ومعرفة إثنوجرافية شاملة لأشكال التمثيل الثقافي المُشكلة في طرق اللبس، التحدث، والتصرف. ولكن هذه المعرفة الإثنوجرافية تعد غير كافية لتتحدث عن نفسها؛ فيمكن فهم معناها الرمزيِ فقط من قبل عالم إجتماع قادر علي عمل الروابط الصحيحة بين الرموز الثقافية والبنيوية الاجتماعية.

البحث ما بعد البنيوي Post-Structuralist Research

إن الاهتمام بالاشكال اللغوية والمنطقية للتمثيل هي، بالتأكيد، من سمات ما بعد البنيوية. ومع ذلك، بالنسبة لما بعد البنيويون، فإن تحليل اللغة ليس مسألة جعل الامور" صحيحة" أو الكشف عن "الحقيقة". ففي هذا التقليد، ليست الرموز اللغوية مشبعة بالمعني من قبل الفاعلين ذو المعرفة، كما أنها ليست ذات معني

بالنسبة للخبراء اللذين يستخدموا التحليل النظري والسيميولوجي. ولكن الامور تجري عكس ذلك؛ فكل من الفاعل والخبير يتشكلون من اللغة التي يختارون استخدامها، لذا فإن فكرة أن أي مواطن بشري يمكنه أن يكشف "الواقع" أو "الحقيقة" من خلال خطاب لغوي تعد هراء.

إن الاختلاف بين المواقف السيميولوجية وما بعد البنيوية في هذا الصدد واضحة في تعليقات سيلفيا ولبي (١٩٩٠) **Sylvia Walby** حول فك رموز الصور النسائية من قبل جانيس وين شب (١٩٨٧) **Janice Winship**. وتجادل وين شب أن بعض الصور المعاصرة للسيدات في الاعلانات تمثل نوعاً من المقاومة الرمزية للسيادة الذكورية، كما في واحدة من صور نماذج "حكماء الشوارع **Streetwise**" وهم يرتدون مجموعة من الملابس الداخلية المغرية، ومعاطف وأحذية ضخمة، موضوعة في شارع تنتشر فيه القمامة. ولكن هذا التفسير، من وجهة نظر ما بعد البنيوية، لا يمكن اعتباره صحيح "موضوعياً": فكما تقول ولبي، أنه لمن الخطأ الافتراض بأنه يوجد معني واحد فقط في مثل هذا الموضوع:

"إنه لمن الأنسب إعتبار أن هناك عدداً من القراءات الممكنة التي سيتم تشييدها في العلاقة بين النص والمشاهد... فالجماهير المختلفة تستحضر مجموعة من التجارب للمشاهد، وبالتالي فإنهم يفسرون النص بصورة مختلفة، منتجين معان مختلفة."

إذاً، علي عكس المحلل الثقافي الذي يستخدم التقنيات السيميولوجية، فإن ما بعد البنيوي ينفي أنه بإمكان أي مفسر بشري للخطاب أن يدعي أنه قد حصل علي معناه بشكل "صحيح". ولعل أعمال الفرنسي جاك دريدا **Jacques Derrida** هي أكثر الأمثلة شهرة (واكثرها جدلاً) لهذا المشروع ما بعد البنيوي.

وتبعا لما بعد البنيوي، تتشكل الهوية والحقيقة عن طريق الخطاب. فالخطابات هي طرق لتمثيل العالم، وعندما تأخذ شكل مادي فأنها عادةً ما تفعل ذلك كاللغات والصور المستخدمة في النصوص. وبالتالي فإن أغلب أبحاث ما بعد البنيوية تتخذ شكل التحليل النصي. ومع ذلك، فإن النقطة التي يجب تذكرها – وهي نقطة يمكن أن يكون من الصعب فهمها (أو تَقبُلَها) – هي أن ما بعد البنيويون لا يرون أن مؤلفوا النص يخلقون تمثيلات للواقع الذي ينتجونه. مثلما أن هوياتنا ليست من خلقنا – أنها مخلوقة بتضميننا في الخطابات المتنوعة التي نواجهها ومجبرون لإستخدامها – لذا فإن العالم كما هو مرسوم من خلال نص هو ليس من إختراع الكاتب، وإنما هو خلَق اللغة التي يختار هو استخدامها.

لذلك فإن المعضلة بالنسبة للمؤلفين – سواء كانوا علماء أو روائيون، معلنين أو صانعي افلام، فلاسفة أو علماء اجتماع – الذين من الممكن أن يدعوا أن بأمكانهم تصور الواقع بشكل صحيح هي: بما أننا، كبشر، ينبغي علينا استخدام اللغة لتصوير العالم، لأنفسنا وللأخرين، وبمجرد أن نفعل ذلك، فأننا بالضرورة نفقد السيطرة علي المعاني التي تنقلها تقديراتنا لأن اللغة تُنتج المعني بالنسبة لنا. لأنه يجب علينا قول أيما نعتزم قوله بإستخدام اللغة، فإننا لا يمكننا أن نكون مسؤولين ابداً عما نقول في النهاية. لذا، فإن التفكيك، كما يسميه ديريدا، يكون دائماً ضرورياً لإكتشاف المعني في النصوص، علي الرغم من أن هذه الجهود التفككية، كما في النصوص نفسها، يمكن بالتالي فهمها فقط عن طريق تفكيكها من قبل الاخرين، وبعد ذلك وصفها عن طريق تفكيك الاخرين، وهكذا، إلي مالا نهاية. ويعد هذا هو سبب إستحالة وجود وصف حقيقي للواقع من خلال وصف منطقي.

مثل هذه النسبية هي إذاً لعنة كوننا بشر. وينفي الإثنوميثودولوجيون إحتمالية وجود أعضاء يمكنهم عمل معني موضوعي للمواقف الإجتماعية لاننا معاقين بذاتيتنا. ولقد نفي كون **Kuhn** أن العلماء يمكنهم الكشف عن الواقع بشكل موضوعي، وذلك لأنهم متضمنون في نماذج مشكله اجتماعياً، وينفي فوكو **Focault** أن التابعين يمكنهم أن يخلقوا هوياتهم. ولأن ما بعد البنيويون بإسلوب دريدا ينفون أن البشر لا يمكنهم أن يفسروا الواقع إلا بطرق منطقية، فإنهم يجادلون أن هذه الطرق تُستخدم علي الفور، لأنها تخلق حتماً إمكانية التفسير من قَبل اخرين بسبل لم تكن مقصودة من قَبل المستخدم. لذا، علي الرغم من أنه يمكن أن تكون هناك حقيقة، فإنه لا يمكن فهمها أو تصورها من قبل البشر، اللذين عليهم أن يكونوا دائماً مستخدمين للخطاب، وبالتالي عاجزين في وجهه. ومع ذلك، فإن إدراك هذه النسبية الحتمية لا تعفي، بالتأكيد، ما بعد البنيوي من واجب جعل مساعيه الشخصية التفككية متاحة فى حسابه (أو اعتباره).

ما بعد البنيوية النسوية Feminist Post-Structuralism

ويقدم بحث ما بعد البنيويين النسويين مثل جيد للتفككية في الممارسة العملية. ويعد جزء من المشروع بالنسبة لما بعد البنيويين النسويين شبيه بذلك بالنسبة للنسويين السود – لمعارضة الجوهرية **Essentialism** (فكرة أن معني الأنوثة واحد بالنسبة للمرأة في كل مكان) – لكشف تنوع وغموض الأشكال

المختلفة التي يمكن للأنوثة، أو "كونها إمرأة"، أن تتخذها. لإن معني المصطلح" إمرأة"، بالنسبة لما بعد البنيويون النسويون، يُبني بأشكال مختلفة في الخطابات المختلفة، فإن وظيفة الباحث هي أن يستعيد المعاني الخاصة التي يجدها هو بنفسه في الأنقاض الناجمة عن تفكيك هذه الخطابات. فكما وضعتها سلفيا ولبي ١٩٩٠ فإن: " المشروع بالنسبة لما بعد البنيويين النسويين هو استكشاف الأشكال المتنوعة للأنوثة والذكورة. فالتركيز الموضوعي يعد عادةً استقصاء لأشكال تمثيل الجنوسة في النصوص الثقافية مثل الافلام، الأدب، المجلات، والصور، فمثل هؤلاء الكتاب يحاولون العثور علي الفوارق الدقيقة للأشكال المختلفة للأنوثة...."

ومع ذلك، يعد هذا الوصف للأشكال المتنوعة للتمثيل الواردة في النصوص (سواء بالكلمة أو الصورة)، بالنسبة لما بعد البنيويون النسويون، غير كاف. تابعين لدور فوكو فإنهم أيضاً يريدون أن يَعرفوا عن بعدهم السياسي، أو النفوذي. والسؤال هو من المستفيد من هذا النوع من التمثيل؟

ويعد الجواب واضحاً، بالنسبة لما بعد البنيوي النسوي. فمثلما أشار النسويون المتطرفون للطريقة التي تسمح بها الخطابات حول "الحياة الجنسية الطبيعية" للرجال بإستخدام الجنس المشتهه للمغاير (أفراد الجنس الأخر) والحاد لإستغلال وممارسة السيطرة علي النساء، فلقد أثار ما بعد البنيويون النسويون قضية مماثلة حول الخطابات المتعلقة بجسد الأنثي. فالنساء، بالنسبة لهم، يُستغلوا عن طريق إحساسهم بالحاجة إلي التطلع لصور جسدية بعيدة المنال؛ ويُعد الضغط الإستطرادي المعاصر للنساء الغربيون لينخرطوا في سعيٍ دائم للنحافة مثالاً واضحاً. وعلي الرغم من أن الذكور الغربيين يتعرضون لبعض الضغط " لمراقبة أوزانهم" فإن هذا الضغط ليس بشيء يقارن بالقصف الذي يلاقية نظرائهم الأناث فيما يتعلق " بجمال الجسد". تاريخياً، لقد سادت خطابات مختلفة؛ علي سبيل المثال، إفتخار شخصيات روبن **(Ruben)** النسائية بشهوانيتهم وثروتهم الجسدية. وعبر الثقافات أيضاً، تتطلب نظريات أخري خاصة بجمال جسد الأنثي ولاءً؛ علي سبيل المثال، في بعض المجتمعات القبلية اليوم، تُخصب الفتيات بصورة نظامية قبل دخولهم النسوية من خلال الزواج.

ومع ذلك، فإن الشباب والنحافة، يُروج لهم، في الغرب، بلا توقف كَونَهم يُشكلون ما هو مثالي، مع فوائد مالية ضخمة لصناعة النحافة. ومن وجهة النظر هذه، فإن "أمراض" فقدان الشهية والشره المرضي، في حين أنها تشير بشكل

واضح للتعذيب النفسي، لا يجب النظر إليها علي أنها غير عقلانية. فمثلما يري النسويون المتطرفون أن العنف الذكوري تجاه النساء ليس بقدر أفعال العقول المنحرفة ولكن كنتيجة حتمية للتمثيل العام المنطقي للنساء، في النص والصورة، كدُمي مُطوعة في إنتظار إسعاد الذكر، لذا فإن ما بعد البنيويون النسويون يرون فقدان الشهية والشره المرضي كعواقب حتمية مساوية، مبنية اجتماعيا، للضغط القاسي الإستطرادي الذي يشعر به الأناث " ليتطوروا ".

ويرفض علماء اجتماع نسويون أخرون، مع ذلك، النظرة ما بعد البنيوية للمرأة التي تعتبرها عاجزة، ومهمشة والتي عُصف بهويتها ووجودها هنا وهناك من خلال التغيرات الهائلة الناجمة عن الخطابات المختلفة. فبالنسبة لهم، فإن النساء اللذين يُمنحوا المعرفة الصحيحة لديهم الفرصة لتخطيط تقدمهم عن طريق مياه الحياة، ويجب علي علم الاجتماع أن يكون الأداة التي يستطيعوا إستخدامها لتحقيق ذلك.

البحث النسوي: البحث الاجتماعي كمشروع سياسي

Feminist Research: Social Research as a Political Project

بالنسبة لهؤلاء النسويون، لقد خذل علم الاجتماع التقليدي النساء، ولقد زعموا أن هناك حاجة لبحوث حصرية موجهة نحو المرأة، تُشغل نفسها بأنواع المواضيع والمشاكل التي تواجهها النساء فقط. إن تبرير البحث بمثل هذا الإنحياز المُتعمد يُعد سهلاً بالنسبة لهؤلاء النسويون، لإنه بالنسبة لهم تُعد معظم الأبحاث الأخري ما يسمونها "بالذكورية" – فهي مهتمة بالبحث في العالم الذي يسكنة الرجال، ولكنها تُولي إهتماماً أقل لذلك العالم الذي تسكنة النساء.

ويجب علي تلك الأبحاث الخاصة بالجنوسة، كما يقال دائماً، أن تستخدم الأساليب التي تسمح للنساء أن يتحدثوا عن أنفسهن. وعلي الرغم من أنه يتوجب علي الباحثين الإناث أن يستفيدوا من تجاربهن الخاصة (لأنهن، كنساء، جزء من موضوع بحثهن)، فإن هذا لا ينبغي بأي طريقة أن يعني أن مثل هذه الأبحاث متركزة علي الخبرة، بطريقة وضعية، وتتضمن البحث في الأحاسيس الباطنة والفروض من قبل واضع النظريات الاجتماعية المتخصصة.

إن الهدف من البحث النسوي يجب أن يكون هدفاً سياسياً لإعطاء النساء الصوت الذي هم عادةً محرومون منه في الحياة اليومية؛ لذا، فإن مثل هذا البحث يجب أن يستخدم إجراءات بحثية تفسيرية، ومضادة للوضعية مُولداً بيانات كيفية،

تهدف إلي تحرير وتوضيح وجهات نظر، وتصورات، ونظريات العالم حول النساء كتابعين. إن أي سعي للحياد، من أجل الإبقاء علي الموضوعية المحبوبة للغاية من وضعية القرن العشرين، يجب أن يُرفض إذاً لصالح الإنتاج المُتعمد لبيانات بحثية لكي تساعد في تحرير النساء. فمثل التنظير النسوي إذاً، فإن البحث النسوي يجب أن يكون لديه الهدف السياسي الواضح لدفع قضية تحرير النساء من الظلم، وذلك بتأمين تغييرات بنائية للمجتمعات الذكورية.

إن الطبيعة السياسية أساساً للبحث النسوي تعني أن العلاقة الذكورية العادية بين الباحث ومواضيع البحث يجب أن يتم التخلي عنها لصالح محاولة واعية ذاتية لجعل البحث تعاوناً بين النساء ومن أجل النساء. ويشير بعض النسويين إلي علاقة الباحث – الموضوع الذكورية علي أنها نموذج "البحث كالإغتصاب" :كما وصفها شولاميت رينهارز (١٩٨٣):Shulamit Reinharz" مُدار علي نموذج إغتصاب، فإن الباحثين يأخذون، يهاجمون ويركضون. انهم يتدخلون في خصوصية تابعيهم، يُعطلوا تصوراتهم، ويَستغلوا الادعاءات الكاذبة، يتلاعبوا بالعلاقات، ويَعطوا القليل أو لا شيء في المقابل. وعندما تُستَوفى إحتياجات الباحثين، فإنهم يقطعون الأتصال بتابعيهم".

حتي عندما يُتجنب هذا الشكل من الإستغلال بالنظر إلي البحث علي أنه إختبار لتعاون النساء، فلا تزال هناك ضغوط، مع ذلك، تُشجع المرأة الباحثة علي الإنفصال عن تضمنها المناسب مع مواضيعها، وهو الأمر الذي يراه بعض الباحثين علي أنه لا يمكن مقاومته. وتأتي في المقام الأول بين ذلك رغبتها في إقناع الأخرين – مثل هيئات التمويل والزملاء الأكاديميين علي سبيل المثال – بصحة نتائجها. إن الباحثة تستطيع أن تفعل كل شيء بشكل صحيح – تقوم ببحث النساء، تسأل أسئلة حول حياة النساء، و تستخدم وسائل تفسيرية لتعطي النساء صوتاً، وغير ذلك – إلا عندما يتعلق الأمر بجعل إلتزامها السياسي بالقضية النسوية بشكل عام. وخائفةً من أن يشوه مثل هذا الإظهار لحزبية بياناتها (وسمعتها) في عيون الأخرين في علم الإجتماع الذكوري، فإن الباحثة تفشل في الكشف عن إهتمامها و تخون زملائها من النساء عن طريق تبني إنعزال واعي ذاتي محايد وبعيد.

ماذا عن الجدال المضاد لإجراءات جمع البيانات التعاونية والحزبية هذه، التى هى ملتزمة سياسياً، والتى سوف تعنى ببساطة أن علم الإجتماع الذكورى يرفض نتائج البحث لأنها حتماً موضوعية، و انها تعادل فقط الإجحاف الذى

يرتدى زى البحث؟ إن الرد النسوي المعتاد لهذا يحاكي تبرير هوارد بيكر **Howard Baker** للبحث التفاعلي الأخذ مثل هذا الإهتمام في نظرة العالم للمنحرفين. ويمجد بيكر فضائل الحزبية، في العملية البحثية - التركيز المتعمد علي ظروف المصنفين والعاجزين (ضحايا ظلم واضطهاد المجتمع، كما يسميهم)، ووصف العالم كما ينظر إليه من خلال اعينهم - علي أساس أن هذا ببساطة يسلك طريق صغير تجاه تصحيح الخلل الجسيم الذي يسود تقريباً غالباً عكسه في علم الاجتماع، حيث يصور العالم من الجانب الأخر - من وجهة نظر ضحايا ظلم واضطهاد المجتمع المميزون والأقوياء كما وضعها جوفمان **(Goffman)** في مقدمة كتابة البيمارستانات (المستشفيات) **Asylums**:

"إن وصف وضع المرضى بأمانة يُعد ضرورياً لتقديم وجهة نظر نسبية. (وأنا أعذر نفسي جزئياً عن هذا التحيز الأخير بالقول أن عدم التوازن هو علي الأقل في الجانب الصحيح للميزان، لأن تقريباً كل المؤلفات المهنية حول المرضي العقليين مكتوبة من وجهة نظر طبيب نفسي، وهو، من وجهة نظر اجتماعية، يعد علي الجاني الأخر)".

وبطريقة مماثلة، تقول وجهات نظر نسوية أخري، مثل أبوت و والاس **Abbot and Wallace** (١٩٩٠)، بطريقة شبة فيبرية (نسبة إلي فيبر)، إنه بما أن كل التصورات للواقع إنتقائية وجزئية، وبما أن الإختيار روتيني متحيز للرجل في علم الاجتماع الذكوري، فإن كل ما يفعلونه هو تصحيح لهذا الخلل. وعلاوة علي ذلك، يستمر نقاشهم كالتالي:

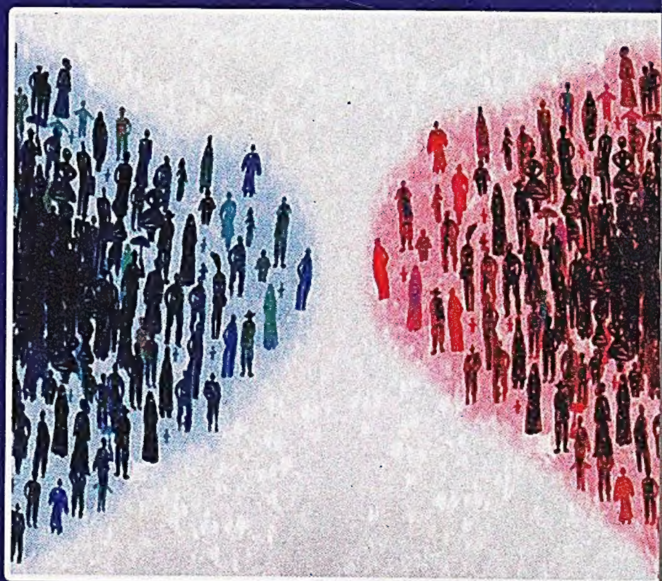
"...إن معرفة الرجال لا يمكن أن تكون كاملة أبدا. ليس فقط أن المقهورين يمكنهم أن يروا أكثر، ولكن أيضاً لأن معرفتهم ناتجة من نضالهم ضد القهر - معرفة النساء ناتجة من النضال ضد الرجال ومحاولة استبدال المعرفة المشوهة التي أنتجها الرجال والتي تستخدم بالتحكم في النساء وإخضاعهم... إن علم النسوية يمكنه أن يعكس صورة أفضل للعالم كما هو وقادر علي إستبدال الصور المّشوَهة والمُشوِهة التي أنتجها علم الاجتماع الذكوري..."

حاشية الكتاب

إذاً، أين تتركنا هذه السلسلة من النقاش والخلاف في التنظير والبحث في علم الاجتماع؟ علي الأقل نحن الأن في وضع يسمح لنا أن نسأل الأسئلة المناسبة. علي سبيل المثال، كبشر، هل نحن وكلاء خلاقين، ونكتب قصص الحياة الخاصة بنا؟ أم أننا تابعين مُشكَلين، الذين مصائرهم مملاه عليهم من قبل قوى سيرية **Biographical** خارجة عن سيطرتنا؟ وإذا كان الأمر كذلك، كيف ينبغي علينا أن نجعل لهذه القوي معني؟ هل هي قوي معيارية، مادية، ثقافية، منطقية، أم ماذا؟ أم هل تفهم الحياة البشرية بشكل أفضل من خلال كل وجهات النظر البنائية وتلك الخاصة بالفعل – كما في هذا الوقت، وعلي الرغم من أننا يمكننا أن نحاول أن نكون ما نريد أن نكون، أننا مع ذلك نفعل ذلك في ظروف بنائية ليست من إختيارنا؟

وعلاوة علي ذلك، كيف ينبغي علينا أن نكتسب معرفة الحياة الاجتماعية؟ أينبغي علينا أن نقبل العلوم، أو نرفضها، أو أن نري بناء المعرفة العلمية كما هو بوصفه عملية تتطلب فهم اجتماعي؟ هل يمكن الحكم علي المعرفة التي نكتسبها بأنها حقيقية أو مزيفة؟ أو هل أن الفهم البشري نسبي حتمياً – منتج من الزمان والمكان؟ وإذا كان الأمر كذلك، هل ينبغي علينا أن نستغني عن البحث عن "الحقيقة" تماماً؟ إن الأجوبة علي مثل هذه الأسئلة من الممكن أن تكون بعيدة المنال، ولكن وجوب البحث عنها ليس فقط مجرد الثمن الذي علينا أن ندفعه لكوننا بشر. إنه أيضاً ميزة لا يمكن لأي كائن حي آخر أن يتمتع بها.

النظريات الاجتماعية و الممارسة البحثية



علي مولا



ابن خلدون

مصر العربية للنشر والتوزيع

تليفاكس 22562268 / ت 24505863

masrelarabia@hotmail.com